

# رَسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالزاهرة



## رسالة الإسلام

مجلة اسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصلى لنشرها

مجمع البحوث الإسلامية للآستانة الرضوية المقدسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٤١١هـ / ١٩٩١م

الأمر الفتي والطبع

مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إذا وجد الظلم وجد الخوف ، وإذا وجد الخوف وجد الملق والنفاق ، لأن الإنسان حينئذ يحاول أن يتقى المظالم ، وأن يبتعد عن إثارة الظالمين ، فهو يفض البصر عما يجد من سيئات ، بل يحاول أن يُسَوِّغَهَا ليرضى أصحابها ، ثم يحاول أن يخلق لهم من الحسنات ما لم يفعلوه ، ويسند إليهم من الحمد والثناء ما لم يستحقوه .

ومن هنا نجد الطغاة والظالمين يحيط بهم عادة أهل النفاق والتزلف ، وينصرف عنهم - أو لا يروج لديهم - أصحاب الخلق القويم ، الذين يقولون الحق ، ويخلصون النصيح ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، وبذلك تفسد أمورهم ، وأمور الأمة بهم ، وقديماً قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين . إنه قد أحاط بك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ؛ فإنهم لا يألون الأمانة تصنيعاً ، ولا يألون الأمة كسفاً ولا خسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غيباً ؛ من باع آخرته بدنيا غيره .

هذا شأن الطغاة والمتجبرين ، والملوك العتاة الظالمين ؛ يعيش النفاق في كنفهم آمناً مطمئناً ، ويزداد كل يوم ترسناً وثباتاً .

أما إذا وجدت الحرية ، ووجد العدل ، وكان الحكم صالحاً ؛ فإن النفاق ينحصر حينئذ ظله ، ويبطل كيده وسحره ، ويندرى عن المجتمع فسادة وشره ، ويخلو وجه الحاكم العادل لأصحاب المبادئ القويمة ، والأخلاق الكريمة ؛ بمن يعملون

بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ » قال : « لله ، ولرسوله ، ولولاة المسلمين ، ولعامتهم ، ومعنى « النصيحة » في هذا الحديث أن تنطوى القلوب على النصح لا على الغش ، ولا على الخداع والتضليل ، بتزيين التبجح ، أو بتشويه الحسن ، وإذا انطوت القلوب على النصح ؛ لم تنطق إلا بالحق ، ولم يجد الخداع ولا الملق والتزلف سبيلا إلى المجتمع .

\* \* \*

ولقد جاء الإسلام بالحرية ، وطبقها في أوسع الحدود ، ولم يضق بها ذرعا ، فلم يترك مجالا لأخلاق النفاق والخذية ، وما كان المنافقون في العهد الأول إلا نباتا غريبا عن أرض الإسلام ، لم يجد له خصبا ولا ريا ، فذوى ثم صوّح ثم أصبح غطاء لا جدوى فيه ، ولا وزن لأصحابه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكره أن يمدحه أحد في وجهه ، ويقول : « انحوا في وجوه المادحين التراب » .

ويقول عمر بن الخطاب : « المدح ذبح » - يشير إلى أن مدح الرجل ؛ إنما هو خديعة وتخدير له ، فهو بمثابة ذبحه وإلغائه وجوده بزحزحته حين يتقبله عن موقف الحزم والعزم الذي كان عليه أن يقفه ، ويقول عن الله بن المقفع : « إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فيكون منقذا إليك ، واعلم أن قابل المدح كادح نفسه » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع إلى الرجل من الأعراب يسأله ويمجّده ، دون أن يبدو عليه ما يدل على التألم أو التبرم ، ذلك بأنه يؤثر أن ينعم الناس بنعمة الحرية ، وأن يذوقوا لذتها ، ولا يجب أن يبيت في نفوسهم عزتها وكرامتها .

هكذا كانت الحرية ، فكانت الصراحة ، وكانت الشجاعة في الحق .

محمد محمد الدقي

# نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود طه  
شيخ الجامع الأزهر

## سُورَةُ هُودٍ

— ٢ —

ربط بين هذا المقال والمقال السابق - الفصل الثاني : ( دعوة  
الإسلام على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي دعوته  
على لسان من كان قبله من الرسل - نوح - هود - صالح -  
إبراهيم - لوط - شعيب - موسى - تعليق السورة على هذه  
القصاص السبع : أنباء النيب التي يقصها القرآن ودلالاتها -  
الظالمون هم الذين ينجون على أنفسهم - سنة الله في المكذبين ) -  
تمهيد إجمالي عن الفصل الثالث - والتفصيل للعدد الآتي .

تبين من الكلام على سورة هود ، في العدد السابق : أن السورة تنقسم  
باعتبار ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى فصول ثلاثة : ( الفصل الأول في تقرير  
الدعوة المحمدية بأصولها الثلاثة - الفصل الثاني في تقرير أن هذه الدعوة بأصولها  
هي دعوة الرسل السابقين - الفصل الثالث في توجيه الخطاب للنبي وصحبه في  
الاستمساك بدعوة الله ) .

وانتهى فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمود شلتوت من عرض الآيات الواردة في أغراض الفصل الأول مع بيان ما تضمنته هذه الآيات تبصيحاً وإشارة، ثم مهد بذكر ما يتضمنه الفصل الثاني إجمالاً .

وهذا هو تفصيل الإجمال كما كتبه فضيلته :

**الفصل الثاني :** إن هذه الدعوة التي شرحت بأصولها وبأدلتها ونتائجها في الدنيا والآخرة، وما كان من إغراض عنها، هي دعوة الرسل السابقين من مبدأ الخليقة إلى عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي هذا - كما قلنا - تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كإخوانه السابقين، وفيه كذلك عظة وذكرى لقومه بما حدث لأسلافهم المتقدمين .

نوح :

ومن هنا ذكرت السورة « نوحا » ، وما كان من معارضة قومه له ، وبخريتهم به ، وموقف ابنه منه ، وموقفه من ابنه ، وتقرير أن الصلة التي لها قيمتها عند الله ، هي صلة الإيمان لا صلة البنوة ولا صلة الأرحام ، ثم ذكرت ختام القصة بنجاة نوح ومن آمن معه ، وهلاك قومه الذين عاندوه وبغوا على الحق .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أم من معك ، وأم سنمتهم . ثم يمسمهم منا عذاب ألیم » .

وفي هذا إشارة إلى أن من الأم من ذرية نوح من سيكون كالذين أهلكتهم الله على عهد نوح ، وقد أرانا التاريخ كثيراً من هذه الأم بعد نوح عليه السلام .

وفي ختام قصة نوح تعاجل السورة رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقولها :

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهو نوع من الإعجاز في الإخبار بغيب لا سبيل له ولا لقومه إلى معرفته

إلا عن طريق ربه ، وإلا في هذا القرآن ، ثم هو تثبيت وتصبير وإبعاد للهرج واليأس من نفسه ، وتبشير وتطمين بحسن العاقبة لمن ظل متمسكا بتقواه .

#### هود :

وذكرت « هودا » ورسالته إلى عاد ، وما كان منه من توجيههم إلى ربهم ، وما كان منهم من معارضته ورميه بالجنون ، وما ختم الله به الأمر بينه وبينهم .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود . »

#### صالح :

وذكرت « صالحا » وقومه ثمود ، وختمت الأمر فيهم بنجاة صالح ، وأخذ الذين ظلموا بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين « كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود . »

#### إبراهيم :

وذكرت إبراهيم ورسول ربه الذين بشروه بإسحق ومن وراءه إسحق يعقوب ، وفي هذه القصة لم تعرض السورة لموقف إبراهيم من قومه ، ولا موقف قومه منه فيما يختص بالدعوة ، وإنما ذكرت شأناً إلهياً يرشد إلى أن الله في تصرفه لم يكن مقيداً بمألوف من السنن التي يعرفها الناس في الخلق والإيجاد ، وفي هذا تطمين لحمسة الحق إذا كانوا قلة أمام الكثرة المبذلة ، فإن نصرهم مع قلة المبطلين إن لم يكن شأناً معروفاً بين الناس ؛ لكنه ليس مما تعجز عنه القدرة ، فلا ييأس المحق صاحب القوة المحدودة من نصرته على المبتطل صاحب الكثرة والقوة المرهوبة .

لوط :

وذكرت « لوطا ، وما كان من سيئات قومه ، وكيف جعل الله على قراهم ساقطاً ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد . »

وفي هذا الختام هنّ لأعصاب المعارضين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

شعيب :

وذكرت « شعيباً ، وقومه وما قابلوه به ، وتحذيره إياهم إن استمروا على الكفر والشقاق « أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . »

وختمت القصة بمثل ما ختمت به قصص السابقين : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود . »

موسى :

ثم ذكرت « موسى ، وقومه ، من فرعون وملته ، وختمت قصتهم بقول الله تعالى :

« يَتَذَكَّرُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ، وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمُرْفُودُ . »

وفي هذا إشارة إلى أن الأمم بإتباعها لزعمائها الفاسدين ؛ لا بد أن تصاب بما يصابون به ، وأن واجب الأمم الحية أن تقف من حكامها الضالين موقف الحزم حتى تسلم من شرهم ، وتقطع صلتها بهم .

\*\*\*

وبعد هذه القصص السبع تذكر السورة تعليقاً عليها بأمر ثلاثة :



أولاً: ان هذه أنباء القرى التي أرسلنا إليها رسلنا ، منها قائم يرى قومك آثاره ويمرون عليه في رحلاتهم ، ومنها حصيد هالك يتبينونه بعد سير في الأرض ، وتدبر فيما تحمل من آثار ، فليلتفت إلى ذلك قومك ، وليعتبروا بما يرون ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . .

ثانياً: ان ما أنزلناه بهم من العذاب ما كان إلا جنائياً ظلمهم على أنفسهم ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبئت . .

ثالثاً: ان سنة الله في هؤلاء المكذبين هي سنته النافذة في الماضين ، وهي هذه لاهورادة فيها ولا مجاملة ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ، وجدير بالعقلاء أن يأخذوا من سنة الله بالمكذبين في الدنيا ، سنته بهم في الآخرة ، ويعتبروا بها فيحذروا عذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى .

ثم أخذت تصف يوم ذلك العذاب ، وأنه يوم مجموع له الناس ، وأنه يوم مشهود ، وأنه ما يؤخر إلا لأجل معدود ، وأنه يوم تأخذ فيه النفوس حقها حسب أعمالها ، وأن من الناس يومئذ من هم سعداء ، ومنهم من هم أشقياء ، تختم ذلك كله بأن هؤلاء كهؤلاء ، وعبادتهم كعبادتهم ، وما لهم كما لهم ، وذلك كله في قوله تعالى :

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما يؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير

مجنود ، فلا تك في مرية بما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد  
آبائهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص .

\*\*\*

ثم لعود الآيات فتذكر بأن الله قد أعطى موسى الكتاب ، فاختلف فيه قومه ،  
وأنه لو لا كلمة سبقت من الله ببقائهم مع اختلافهم على كتاب موسى وعلى رسالته ؛  
لقضى بينهم كما قضى بين الأنبياء السابقين وقومهم ، ولوقع بهم عذاب الاستئصال ،  
وذهبوا في بطون التاريخ ، كما ذهبت الأمم السابقة ، وأن كلا لا بد موفى جزاء عمله ،  
وذلك كله في قوله تعالى .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلِف فيه ، ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى  
بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب ، وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم  
إنه بما يعملون خبير . »

\*\*\*

وهنا يأتي « الفصل الثالث » ، ويوجه الخطاب فيه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم  
ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . »  
فترسم لهم منهاجا كاملا لا يحتاجون معه في الحصول على السعادة إلى شيء .  
وراءه ، وقد جاء هذا المنهاج بعد أن صورت الدعوة وذكرت دلائلها ، وقدمت  
صوره تاريخية واضحة عن عاقبة الذين استقاموا على أمر الله ، والذين انحرفوا عنه .

\*\*\*

وإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ، لنعرف تفاصيل هذا المنهاج القويم ؟

# معالم التقريب

للمعزة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

— ٢ —

لا ينافس التقريب أحداً على جاء أو نفوذ ديني أو دنيوى ، ولا يدعى لنفسه - على أحد أى سلطان من أى نوع ، إذ من جوهر التقريب ألا يكون له سلطان ذاتي ، لأن كل سلطان يخلق ومعه مشاكه التي تشغله ، والتقريب لا يسمح معناه بأن يختصم المسلمون عليه ، ولا أن يشغلهم بنفسه باعتباره جماعة أو سلطة أو سلطاناً عن وحدتهم في الله وكتابه ورسوله وهدى رسوله ، ولذا لا يجد المستبصر المستقبله السياسى والاجتماعى شيئاً يسمع أو يسمن آماله وأطماعه وأمانيه عند جماعة التقريب .

وليس للتقريب ربة في عنق أحد ، ولا له عند أحد بعة ، ولا ينشلم به ولاء مسلم لمذهبه أو طائفته أو بلاده أو حكومته ، لأن التقريب ليس مذهباً ولا حزباً ولا فرقة ولا طائفة ، لا ولا بعة جديدة أو ولاء جديداً ، وإنما التقريب أولاً وآخرأ دعوة عامة للاهتمام بالإسلام والاتفات إليه كمرأس مال مشترك بين المسلمين في الماضى والحاضر والمستقبل وإلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى ، وهذا الاهتمام أمر مقبول ومعقول عند كل مسلم أيا كان مذهبه وبلده .

والتقريب ليس ثورة تجمع المعارضين المعارضين ، أو الساخطين الناقين ، لأنه ابتداء وانتهاء دعوة إلى التعرف على وجوه الاتفاق بين المسلمين والاتفات إلى مواضع الاتحاد والاتحام والتقريب ومعالم الأخوة التي تربطهم وتجمعهم وتبعد

بهم عن التفرق والتمزق ، ولذا لا يجد الساخط الناقم التأثير المتعجل للتغيير والتدمير مكاناً في جماعة التقريب .

ولكن إذا لم تجد نوازع الرغبة في الغلبة والتفوق ، ودوافع المصلحة الذاتية التي تسوق الرجال أمامها في طريق مطامعهم وأمانهم ، ولا نوازع العدوان والمقارمة وتوكيد الذات التي تحرك في الناس النعمة والسخط والثورة والشوق إلى الهدم والإزالة والتغيير العاجل ، إذا لم تجد هذه القوى الغريزية المحركة مكاناً لها في التقريب ، فكيف يرجو أهل التقريب أن تسير سفينتهم إلى غايتها أو غاياتها ؟ .

هذا سؤال يتجه إلى أساليب التقريب ومناهجه ، وهو يثير ابتداء مشكلة المنهج الذي يتبع في الدعوة الدينية في العصر الحديث بصفة عامة ، فإن هذه الدعوة من حيث هي محاولة للتأثير على نحو معين في السلوك الديني للإنسان تشبه من بعض الوجوه غيرها من المحاولات التي يمكن أن تبذل للتأثير في السلوك السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي للآدمي ، والدعوات السياسية والتجارية هي والدعوات الاجتماعية المادية تعمل على أسس احصائية باعتبار الآدمي وحدة مكررة في مجموعة تتكرر فيتكون منها مجاميع أوسع وهكذا ، وتدور مناهجها وأساليبها على الاستفادة إلى أقصى حد من المعارف والمعطيات التي يقدمها علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الإحصاء ، وما يتصل بهذه العلوم من أبواب العلم الأخرى ، وعلى الانتفاع بالمتحركات والفنون والقدرات الحديثة في تنشيط جانب من النوازع والغرائز والدوافع العميقة غير الواعية في النفس الإنسانية وتحريكها ، لكي تحدث هذه القوى الغالبة تأثيراً معيناً مقصوداً في سلوك الآدمي بالنسبة لموضوع معين ، وتنشيط هذه القوى النفسية الغامضة يتم في الأغلب الأعم على حساب العقل والقوى العنابطة فيه ، وعلى حساب ملكة النقد ، وحساب المشاعر الأكثر رقياً والابقى نفعاً للإنسان في حاضره وقابله ، ثم هي - أي هذه المناهج - قد وضعت لكي تعمل في عقلية الجماهير ونفسياتها ، وعلى أساس التسليم بأن عقليتها ونفسياتها تسودها تلك

النوازع والدوافع البدائية الغريزية غير الواعية ، تسودها الآن وفي المستقبل بقدر ما يمكن أن يتصور المستقبل في حدود المعقول ، وقد حققت هذه المناهج على الجملة - ولكن بصورة سطحية - ما هو مطلوب منها ، وهو ما أغرى فريقاً من الناس في بعض البلاد باستعمالها في الدعوة الدينية ، مدفوعاً إلى ذلك بالرغبة في مسابقة الميل العام الذي يرى في كل جديد رقباً وتقدماً وشعوراً منه بأن الدين يقف اليوم في موقف الانهزام بالتخلف والتقصير والقدم ، وإشفاقاً منه كذلك على ما يتصور من عجز الدين وعدم قدرته على الصمود للدعوات السياسية والاجتماعية المادية ، فضلاً عن قهرها والتغلب عليها .

وأياً ما كان الباعث على ذلك ومبلغه من الجِد والإخلاص ، ومن الاهتمام بأمر الدين ونصرته ، فإن تطبيق هذه المناهج والأساليب في الدعوة الدينية نقيض خضوع هذه الدعوة لمطالب هذه المناهج والأساليب ، وأولها ما يصح أن نسميه « بجمهرة » الدعوة وتحويلها إلى قضايا وشعارات مقولة أو مكتوبة بأسلوب العصر ولقته - أى بلغة الجماهير - وهو ما يستلزم إعادة تصفية وصياغة وترتيب وتكوين العقائد والأصول والقواعد والأفكار الدينية ، والاستغناء عما لا يصلح منها لهذه المناهج والأساليب ، مع التقليل من التركيز على الحياة الأخرى وما يتصل بها ، والاهتمام والتركيز على ما يستطيع أن يقدمه الدين للجماهير من حلول لمشاكل الدنيا وبخاصة مشاكل الفرد العادى العاطفية والاجتماعية والاقتصادية ، حتى يمكن أن تروق معروضات الدين في عين جماهير هذا الزمان على نحو ما تروق في عينها معروضات السياسة والتجارة والدعوات الاجتماعية المادية ، وقد حدث شيء كهذا من بعض رجال الطوائف المسيحية في أوروبا الغربية وأمريكا .

ولعل أخطر ما ينطوى عليه هذا الاتجاه هو منافسة الدين للسياسة والتجارة والاشتراكية والشيوعية وما إليها في تملق الجماهير واسترضائها ، فيغرق الدين في سيادة الشعب ، وتصبح إرادة الشعب في السماء كما هي على الأرض !! إذ من المحال أن يبقى الدين ديناً إذا تخلى عن دور الوالد الأمر الناهى المطاع في الحال والمآل

إلى دور خادم الجماهير الذى عليه أن يسترضى سيده بخدمات ترضى عنها ، وإلا فلا يريها وجهه ، وفى هذا نهاية معنى الدين ، لأن فيه نهاية التسليم بالله إله الكل من الأزل إلى الأبد ، ونهاية ناموس الله الذى يدين له البشر بالطاعة أينما كانوا ، وفى ظله نما وينمو النوع الإنسانى إلى آخر الدهر ، ونهاية فكرة الآخرة التى ضمن بها الإنسان خلوده حين حمل أمام الله مسئولية لا تموت بموته ، وعقد التزامات لا تنحل بتحلل رفاته ، وأحسب أن الناس فى هذا الزمان بعد أن صاروا دجماهير ، تنعت تملقاً بنعوت القداسة ، وتوصف مداجاة بأنواع الكمالات ، ويلعب بأفئدتها وأهوائها وشهواتها وغرائزها ونوازعها من يستطيع ويشاء ، أحسب أن الناس فى هذا الزمان أكثر خوفاً من أنفسهم ، وقلقاً على مصيرهم من أى وقت مضى ، وأشد شعوراً بالضياع والحيرة ، وبذلك الإحساس المزعج الذى يحس به الولد حين يفترق الوالد الحازم الذى يقف فى وجه أهوائه وعربدته ، ويرد إلى نفسه السلام والأمن الداخليين اللذين بدونهما تصبح الحياة عبئاً لا يحتمل .

أحسب أن ليس فى استطاعة الدين أن يقترب من الدعوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى الحد الذى يطوعه لأساليبها ومناهجها دون أن يفقد معناه أو معظمه ، فالدين ليس علاقة بشرية بين الإنسان وأمثاله من الفانين الهالكين وإنما هو رباط فذ يتجاوز فيه الإنسان الفرد أفق بشريته ليحدد فى هذا العالم المتغير المتقلب مصيره هو كفرد لا مصير نوعه أو جنسه بالارتباط إلى الأبد بنقطة ثابتة باقية إليها تنتهى الخطوط كلها ومنها تبدأ ، وبحول ارتباطه بها بينه وبين الانطفاء والانطماس فى ظلمة العدم ، هو رباط فذ له معنى فذ لا يشاركه فيه غيره من الروابط التى يرتبط بها الإنسان على هذا الكوكب ، يميزه أساساً أنه ليس دين اليوم غصب ، بل دين الأمس واليوم والغد ، كان ويكون وسيكون ، وهنا يكن وقار الدين ورهبته وتعالیه باتساع مدى تجاربه على غرور الإرادة البشرية التى لا ترى من طريقها بوضوح إلا ما تسمح لها برؤيته حيائها القصيرة المليئة بالشواهد والصوارف .

ويزيد مشكلة المناهج والأساليب فيما يتعلق بالدعوات الإسلامية خاصة أمور منها :

المرج في الدعوة لدى كثير من المسلمين بين فكرة الدولة الإسلامية وبين الإسلام ذاته ، واعتقاد التلازم بينهما في الدعوة ، وليس هنا مجال مناقشة هذه المسألة بالتفصيل ، ولكن يكفي أن نقول إن الإسلام باق ثابت ما بقى القرآن المجيد مصوناً محفوظاً كما وعد الله تعالى ، أما الدولة الإسلامية بصورتها التاريخية المعروفة وبمفهومها في كتب الفقه الإسلامى فقد انقضت ، والتفكير في إعادتها إلى الوجود بذلك المفهوم عينه يقتضى بداهة استبدال ذلك المفهوم القديم بالأسس الحالية للقانون الدولى ، وهو مرام لا يتعلق به خيال ، إذ الدولة بمعناها الحديث مفهوم سياسى وقانونى يحدد مقوماته القانون الدولى بالنسبة لجميع الدول ، ولا يدخل الدين في هذا المفهوم كما لا يدخل في مفهوم الجنسية باعتبارها رابطة الولاء الذى يربط الفرد بدولته ، وقد صارت البلاد الإسلامية والمستقلة دولاً بهذا المفهوم الحديث فى ظل القانون الدولى ، وغلب على معظمها الطابع المدنى السائد بين دول العالم ، ولا تعارض بين إسلام المسلم وولائه لدولته المدنية ، ولا يعتبر ولاؤه لها قادحاً فى إسلاميه .

وهذا التلازم فى التصور بين الدولة الإسلامية وبين الإسلام أكثره أثر للشعور السائد بين المسلمين بالشوق إلى الاتحاد والنفور من التفرق والضيقة مما يجدونه فى أنفسهم من الضعف والتخلف والتزق بالقياس إلى سواهم من الأمم والشعوب ، ولكن إعادة الدولة الإسلامية إلى الحياة هدف سياسى بلا ريب ، لأنه يتضمن تغيير حكام بحكام ، وأوضاع بأوضاع أخرى فى الحكم ، وقيم بقيم أخرى سياسية واجتماعية ، وليس عجيباً إذن أن نلاحظ عند من يمزجون فى الدعوة بين الإسلام والدولة الإسلامية ميلاً ظاهراً إلى تقليد بعض مناهج الدعوات السياسية وأساليبها .

على أن مشكلة المسلمين الأولى فيما يبدو ليست مشكلة امبراطورية تفككت ، فكل امبراطورية كانت أو تكون مصيرها إلى أن تفكك وتبديد وتحل الطريق لوحداث سياسية أضيق رقعة وأوسع نشاطاً وأكثر تماسكاً وحيوية ، إن مشكلتنا هى مشكلة قيم ، ومشكلة موقف : هى مشكلة قيم معينة قد تضائل اهتمام البيئات الإسلامية بها ، وقل حرصها عليها ، فلم تعد هذه البيئات تعيش وفق المبادئ التى

تعتنقها ، ولم تعد تستطيع أن تحمل أو تتحمل من يريد أن يعيش هذه المبادئ بشجاعة وإخلاص ، بل لم تعد تستطيع أن تكفل للأهل كامل الحقوق التي قررها له الإسلام ، أو تقوى على إيجاد الثقة فيها وحسن الظن بها ، وهيئة الفرصة للتماسك والتساند اللازمين لكل عمل مشترك قوى طويل الأمد .

ثم هي مشكلة موقف المسلمين من طابع المعارف الإسلامية ومن طابع المعارف الغربية أو الحديثة سمها ما شئت ، فالمعارف الحديثة غير شخصية في الأغلب الأعم ، ولا تتوقف على وجود صلة إنسانية شخصية وثيقة ، فالأفكار والمعلومات متى صيغت وحُصلت تنفصل عن الأشخاص ويصبح لها وجود مستقل تضمنه المطبعة أو الرسم أو الوسيلة التشكيلية التي تصاغ فيها ، وتنعقد صلة مباشرة بين المنتفعين وبين هذه الأفكار أو المعارف التي أحرزت على هذه الصورة دون حاجة إلى وساطة إنسان يتلقونها عن طريقه ، وهذا الانفصال بين الفكرة أو العمل وبين الإنسان المعين الحقيقي قد استقر ، حتى أن خلق صاحب الفكرة أو العمل لم يعد بذى شأن ، بل صارت الفكرة أو العمل في ذاته سبباً للشهرة والمجد ، والمنزلة لصاحبها برغم خلقه السيئ أو سلوكه الفاضح ، أو برغم تنكره في حياته كإنسان للقيم التي بها يكون الإنسان إنساناً ، بل برغم تنكره في حياته لذات الأفكار والمبادئ التي قامت عليها شهرته في مؤلفاته أو أعماله الأدبية أو الفنية .

وهذا الانفصال لا يعرفه الإسلام ، فالمعارف الإسلامية لا تُحصّل أساساً من كتاب ، ولا يمكن استخلاصها كاملة من أوراق ، لأنها قبل كل شيء معارف ينقلها إنسان مسلم إلى إنسان مسلم بعد أن تلقاها من إنسان مسلم كذلك ، ولا يختلف طابعها هذا سواء أكانت معارف مبناهما الإنشاء والإيجاد أو مبناهما النقل والرواية ، فهي في العالمين لها تكملة بشرية لا تقوى على حملها الأوراق يدركها التليد أو المرید عن شيخه في تصرفات الشيخ واهتماماته وما يظهر في سلوكه أو أعماله من أثر تلك المعارف التي يترجمها الشيخ من صيغ لفظية إلى واقع حيوى يحمل حقيقتها الحية ،



ولا يتصور الإسلام أن رجلاً معروفاً بسوء السيرة وقلة الذمة والإخلاص يمكن أن يصبح صاحب فكرة أو مدرسة، وأن يصير له مجد وشهرة بين المسلمين.

ومسلو هذا الزمان إذ يستعملون المطبعة على أوسع نطاق في مختلف أغراض حياتهم تصوروا أن الأفكار الإسلامية يمكنها بذاتها متى طبعت ووزعت أن تزاحم وتزعم غيرها من الأفكار والمعارف والعلوم في تلك السوق الواسعة الغاصة بالأفكار لا المجردة من الاتصال الانساني، والتي لا تحتاج إلى هذا الاتصال، ويكفي لمن يخالجه أدنى شك في مبلغ هذا الوهم أن يلاحظ ما تلقاه المطبوعات الدينية من قلة الرواج حتى مع بذل غاية العناية في إخراجها وطبعها، بوساطة الهيئات الدينية المسيحية.

وينبغي أن نلتفت إلى أن الإسلام ليس مجرد فكرة أو أفكار، ولا هو وصفة أو وصفات، ولا صيغ يحرز مضمونها من يتعقلها، وإنما هو حياة تعاش أو طريقة للحياة لا تعرف حقيقة معناها ومضمونها إلا من خلال إنسان يعيشها ويحيها وهو ما تعجز عن نقله المطبعة وهن حمله الكتب.

ومن ظن من المسلمين أن غير المسلم يمكن أن يتحول إلى الإسلام إذا قرأ كتاباً أو كتباً تعرض لمبادئ الإسلام المصوغه عرضاً صحيحاً مشوقاً، فهو واعم يضيع وقته وجهده، وما نطن أن هذه الطريقة على ما فيها من جاذبية كان أو يمكن أن يكون لها نصيب جدى في نشر الإسلام، إذ الإسلام لا تنشره الكتب وقراءة الأوراق، وإنما ينشره الانسان المسلم حين يتصل بغير المسلم، فيشهد هذا من يسر تناوله لحياته : سرائها وضرائها، ويسر تقبله للخروج منها ما ينطبع أثره في وجدانه ويصل إلى الأعماق فيدخلها الشوق إلى الإسلام قبل أن يتنبه العقل إلى النظر والتفكير فيه.

هذا هو الطريق الذى به انتشر الإسلام في الماضى البعيد أو القريب، وهو الطريق الرحب الطبيعى لكل دعوة إسلامية، وفيه من آثار رسولنا وآله وصحابه وتابعهم معالم هدى لا يخطئها قلب إذا أخلص في اتجاهه إلى الله.

ومن هنا كانت خطورة تهاون المسلمين في الخلق والسلوك ، وفيما يتعلق بالقيم التي أشرنا إليها ، فإن هذا التهاون قد أدى باضطراد إلى قلة النماذج التي يمكن أن تبعث الشوق إلى الاسلام في نفوس غير المسلمين ، كما أدى باضطراد إلى كثرة النماذج التي تبعث النفور منه عند أولئك ، ولا جدال في أن الاسلام بطبعه قادر على إنتاج النماذج الطيبة ، ولهذا وصل إلينا وسيصل إن شاء الله إلى من بعدنا إلى آخر الزمان ، إنما محل الانزعاج والقلق هو اختلال التوازن والنسبة بين إنتاج النماذج الطيبة التي تحمل في تواضع وعفة وإخلاص رسالة الاسلام ، وتسلمها إلى القلوب والنفوس كل يوم ، وبين إنتاج النماذج التي تحجب ظلها نور الإسلام ، وكثافتها رقتها ، وثقلها لطفه ، وعربدتها نظامه واتساقه ، فإن هذه النماذج الأخيرة تتكاثر في البيئات الاسلامية بما يشبه تكاثر الخلايا السرطانية ، ولا بد من وقفة جادة تقفها عقول المسلمين لمواجهة تكاثرها حتى لا يهدد حياة الاسلام ، وما يغني مع تكاثرها أن نملأ الكتب والمجلات والمحافل والندوات بمحاسن الاسلام ومزاياه إذا كانت هذه النماذج التي تنتجها البيئات الاسلامية على هذا النطاق الواسع تحمل لعين المحايد به المفروض المناوئ صورة غير كريمة عن الاسلام وأهله .

وينقلنا هذا إلى عقدة أخرى من عقد المسلمين في زماننا يتصل أمرها بمنهج التقريب ، فإنهم صاروا حريصين إلى حد المبالغة على أن يبدو الاسلام مقبولا من خارجه في عين من ينظر إليه من غير المسلمين على وفق معايير الحسن والقيم السائدة في الأمم التي بيدها مقاليد الحضارة الحديثة ، وهكذا وضعنا - دون أن نشعر - نبيينا وقرآنا وملتنا في موضع الانهزام ، وأخذنا نترافع لإثبات براءة الاسلام أمام محكمة لا يعنينا هذا الأمر كثيراً .

تلس هذا في كثير مما كتب ويكتب ، وقيل ويقال في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته ، والقرآن وآياته ، والاسلام ودوره .

على أن أحداً لن يترك بطبيعة الحال إسلامه إذا لم يفلج في إقناع الأوروبيين والأمريكيين بجمال الاسلام وكماله ، فلماذا إذاً نكلف نبيينا وقرآنا وديننا مهانة

المرافعة والمدافعة أمام تلك المحكمة الغريبة ، وما لصاحب المرافعة والمدافعة من كثرة التأويل أو التخريج التي لا تثبت شيئاً إلا مهارة المرافع وبراعة المدافع ، إن نبينا هو نبينا وهادينا لا نقبل أن يجادلنا فيه أحد ، وقرآننا هو كتابنا لا نرضى أن يشكك في قيمته إنسان ، وديننا هو الاسلام عشنا به ونموت وسنلقى الله عليه ، **لجفت بذلك الأقلام .**

هذا هو منهج التقريب في هذه المسألة ، فخال الاسلام في نظر التقريب يبدأ وينتهي من داخل الاسلام ذاته ، والناظر إلى الاسلام من خارجه إنما يحكم له أو عليه ، لا على أساس أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان له العذر أن يتزوج أكثر من واحدة أو لم يكن ، أو أن الصلاة فيها فائدة للبدن أو لا ، أو أن الصوم يفيد أو لا يفيد المصابين بالسكر وضغط الدم ، أو أن القرآن يحتوي أو لا يحتوي إشارات فلكية أو علمية طريفة ، إنما يحكم للإسلام أو عليه على أساس ما يشهد من متانة بنيانه أو وهنه ، وتعلق أهله به أو انصرافهم عنه ، واتحادهم وتأزرم فيما بينهم أو تمزقهم وتصدعهم ، وقدرة البيئات المسلمة على كفالة حقوق المسلم أو عجزها عن ذلك .

• يتبع •

# طرائف

## في لقاء ابن خلدون بتمورلنك

لمحاضرة الأستاذ الدكتور علي عبد الواهد وافي



في أوائل سنة ٨٠٣ هجرية جاءت الأنباء أن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام ، واستولى على مدينة حلب في مناظر مروعة من السفك والتخريب والتدمير والعبث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم ، وأنه في طريقه إلى دمشق ، وكانت الشام حينئذ تابعة لسلطان المماليك في مصر ، ففرع لذلك الخبر سلطان مصر حينئذ ، وهو السلطان الناصر فرج بن السلطان الظاهر برقوق ، وأسرع بجيوشه لصد ذلك المغير التتري ، وأخذ معه ابن خلدون فيمن أخذ من القضاة والفقهاء ، مع أن ابن خلدون كان قد عزل منذ قليل من منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ، فاشتبك جنده مصر مع تيمورلنك في ظاهر دمشق في معارك حامية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ، ولكن خلافا حدث في معسكر الناصر فرج ، فعادته بعض الأمراء خفية إلى مصر ، وعلم السلطان أنهم دبوا مؤامرة لخلعه وتولية أمير آخر مكانه ، فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا إلى القاهرة .

فأزمع حينئذ عدد كبير من العلماء الذين اصطحبهم الناصر فرج في هذه الحملة ، ومنهم ابن خلدون ، أن يقابلوا تيمورلنك ويطلبوا إليه الأمان على دمشق ، فتم لهم ذلك ، وأجابهم تيمورلنك إلى ما طلبوه .

ويصف ابن خلدون في كتابه « التعريف » ( الذي ترجم فيه عن نفسه وسرد تاريخ حياته ) لقاءه بهذا المغير فيقول : « دخلت عليه بخيمة جلوسه ، وهو متكئ على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، يشير بها إلى عصب المُنْغُل ( المغول ) جلوسا أمام خيمته حلقاً حلقاً ، فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، وأوميت لإيماءة .

الخضوع ، ورفع رأسه ومد يده إلى فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأقعدته يترجم بيننا .

وبعد أن ذكر ما دار بينهما من حديث يتعلق بتاريخ ابن خلدون ، وحياته في مصر ، وحياة أسرته في المغرب ، وما استطرد إليه هذا الحديث من الكلام على بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، وسؤال تيمورلنك عن مواقع هذه البلاد ، قال إن تيمورلنك لم يكنف بما قاله له شفويا ، وقال له : « أحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كأني أشاهده ، فقلت يحصل ذلك بسعادتك ، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك ، ولعل تيمورلنك كان يعمد غزو المغرب ، فأراد أن يعطى تفاصيل بلاده ومواقعها وجغرافيتها .

ويظهر أن ابن خلدون كان قد عاوده حينئذ داؤه القديم ، وساوره الحنين إلى المغامرات السياسية ، فكان يعلق على صلته بتيemorلنك آمالا أخرى غير ما وفق إليه في شأن دمشق ، ولعله كان يرجو الانضمام في بطانة الفاتح والحظوة لديه ، ولذلك أخذ يطنب في مدحه ، ويذكر له أنه كان عظيم الشوق إلى لقائه منذ أمد طويل ، ويتنبأ له في مستقبله بملك عظيم ، مستدلا على صحة تنبؤاته بحقائق الاجتماع وأقوال المنجمين والمنتبئين بالغيب .

ولعل ابن خلدون قد آانس سذاجة في هذا الفاتح وحبا في المدح فأخذ ينفخ في كبريائه بهذه التنبؤات ، ويروي ابن خلدون ما ذكره لتيemorلنك بدون أن يصرح بما دعاه إلى ذلك فيقول : « ففاتحته وقلت له : أيدك الله إلى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك ، فقال لي الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت أمران : الأول أنك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ، ولست بمن يقول في الأمور بالجزاف ، فإنني من أهل العلم . . . » ( ثم أخذ يؤيد قوله بنظريات اجتماعية عن قوة العصبية وأثرها في

الملك) « وأما الأمر الثاني مما يحملني على تمنى لقائك فهو ما كنت أسمعه عن أهل الحذّثان ( وهم المنجمون والملمهون من المتنبئين بالغيب من حوادث العالم ) بالمغرب والأولياء ... ، وذكر له طائفة من أقوال هؤلاء تنبأ له بملك عظيم .

غير أن ابن خلدون لم يوفق إلى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك ، فلم تمض أسابيع فلائل حتى سئم البقاء في دمشق ، واستأذن تيمورلنك في العودة إلى مصر فأذن له .

وفضلاً عن إخفاق ابن خلدون في الوصول إلى ما كان يأمله من تيمورلنك ، فإن هذه الرحلة كانت مغرماً كبيراً له ، فقد تجشم في أثنائها هديتين قدمهما لتيمورلنك ، وفقد في طريق عودته منها جميع ما كان معه من مال ومتاع .

ويصف ابن خلدون الهدية الأولى فيقول : « كنت لما لقيته ... أشار على بعض الصحاب بمن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم ، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية ، وإن كانت نزرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم ، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة للأبوصيرى في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأربع علب من حلوة مصر الفاخرة ، وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأباقي جالس في إيوانه ، فلما رآني مقبلاً مشل قائماً وأشار إلى عن يمينه ... جلست قليلاً ، ثم استدرت بين يديه ، وأشارت إلى الهدية التي ذكرتها ، وهي بيد خدامي ، فوضعتها ، واستقبلاني ففتحت المصحف ، فلما رآه وعرفه قام مبادراً فوضعه على رأسه ، ثم ناولته البردة ، فسألني عنها وعن ناظمها ، فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها ، ثم ناولته السجادة فتناولها وقبلها ، ثم وضع علب الحلوى بين يديه ، وتناولت منها حرقاً على العادة في التأنيس بذلك ، ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبل ذلك كله ، وأشعر بالرضى به . »

ويصف ابن خلدون الهدية الثانية فيقول : « ولما قرب سفره ، واعتزم على الرحيل من الشام ، دخلت عليه ذات يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلى ، وقال :

أعندك بغلة هنا ؟ قلت : نعم ، قال : حسنة ؟ قلت : نعم ، قال : وتبيعها فأنا أشتريها منك ؟ فقلت : أيدك الله مثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدمك بها وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : إنما أردت أن أكافئك عنها بالإحسان ، فقلت : وهل بقي لإحسان وراء ما أحسنت به : اصطنعتني وأحللتني من مجلسك ومحل خواضك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكت وسكت ، وُحملت البغلة إليه وأنا معه في المجلس ، ولم أرها بعد ، ! .

وهكذا ظن ابن خلدون أن باستطاعته - بفضل دهائه والمعيته - أن يعود مزوداً من هذا التترى ، الذي ظنه غراً ساذجاً ، بالمناصب والرتب والألقاب ، ولكنه عاد صفراً من كل شيء حتى من بغلته .

وزاد من كوارثه أنه قد دهمه في طريق عودته جماعة من اللصوص فنهبوا جميع أمتعته وجردوه حتى من ملابسه ، ويصف ذلك ابن خلدون فيقول : « وسافرت في جمع من أصحابي ، فاءترضنا جماعة من العشير ( يقصد البدو ) قطعوا علينا الطريق ونهبوا ما معنا ، ونحونا إلى قرية هناك عرايا ، واتصلنا بعد يومين أو ثلاثة بالصُبيية خلفنا بعض الملبوس . . . » .

\* \* \*

وهكذا جزاء من يطلب عرض الدنيا بإرخاص كرامته والاستهانة بحقوق وطنه ، والزلفى لأعداء بلاده .

## من ثمرات المعقول والمنقول

لشاعر الكبير الأستاذ على المجندى

المعيد السابق لكلية دار العلوم

لا حول ولا قوة إلا بالله :

سُئِلَ الإمام على - عليه السلام - عن معناها ، فأجاب : إنا لا نملك مع الله شيئاً ، ولا نملك إلا ما ملكنا ، ففى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا ، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا .

خير القرون :

جاء فى الأثر : خيركم : القرن الذى أنا فيه ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه .

قال النقيب أبو جعفر يحيى بن محمد العلوى البصرى : مما يدل على بطلان هذا الخبر : أن القرن الثانى شر قرون الدنيا ، وهو أحد القرون التى ذكرها فى النص ، وكان ذلك القرن هو القرن الذى قتل فيه الحسين ! وأوقع بالمدينة ، وحوصرت مكة ، ونقضت الكعبة ، وشرب خلفاؤه والقائمون مقامه ، والمنتصبون فى منصب النبوة الخنور ! وارتكبوا الفجور ، كما جرى ليزيد بن معاوية ، وليزيد بن عاتكة ، وللوليد بن يزيد ، وأريقَت الدماء الحرام ، وقُتِلَ المسلمون ، وسُيِّىَ الحريم ، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدي الروم ، وذلك فى خلافة عبد الملك وإمرة الحجاج ، وإذا تأملت كتب التاريخ وجدت الحسين الثانية شراً كلها لا خير فيها ولا فى رؤسائها وأمرائها ، والناس برؤسائهم وأمرائهم ، والقرن خمسون سنة ، فكيف يصح هذا الخبر ١٢ .

أقول : لعل المراد بخيرية هذه القرون الأربعة : أن العرب يلبفون فيها منتهى قوتهم ، وأن الإسلام يصل إلى الغاية من العزة ، ويبسط ظله على الآفاق ، وقد تحقق



ذلك ، فالقرون المذكورة تمتد إلى خلافة المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وبوفاته بدأ العرب تضعف قوتهم ، وتخضع شوكتهم ، وأخذ يجد الإسلام في التبدل والانهيار !! فليس الخبر صادقا لحسب ، بل هو من دلائل النبوة ١ .

#### الطفل عاقل :

قيل لحكيم : متى عقلت ؟ قال : حين ولدت ١ .  
فأنكروا عليه ذلك ، فقال : أما أنا ، فقد بكيت حين جمعت ، وطلبت الثدي حين احتجت ، وسكت حين أعطيت .  
يريد أن من عرف مقادير حاجته فهو عاقل .

#### قوة فراسة :

قال معن بن زائدة : ما رأيت كفأ رجل إلا عرفت عقله ١ قيل : فإن رأيت وجهه ؟ قال : ذا كتاب يقرأ ١ .

#### فائدة النوم :

كان بعضهم - إذا استشير - قال لمشاوره : انظرنى حتى أصقل عقلي بنومة .

#### أولاد على :

ذكر المأمون ولد على - عليه السلام - فقال : خصصوا بتدبير الآخرة ، وحرّموا تدبير الدنيا .

#### الرأى والعزيمة :

سمع محمد بن يزداد قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة      فإن فساد الرأى أن تترددا  
فأضاف إليه :

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا      فإن فساد العزم أن يتفندا

#### صبر الكرام :

قال الإمام على - عليه السلام - للأشعث بن قيس معزيا عن ابن له :

إن صبرت صبر الأكارم ، وإلا سلوتُ سلوُ البهائم - فأخذ المعنى أبو تمام  
بل حكاة فقال :

وقال عليٌّ في التعازي لأشعث      وخاف عليه بعض تلك المآثم  
أتصبر للبلوى عزاءً وحسبةً      فتؤجر أم تسلوُ البهائم  
عظة بليغة :

راود رجل امرأة عن نفسها ، فقالت له : إن امرأ يبيع جنة عرضها السموات  
والأرض بمقدار إصبعين لجاهل بالمساحة ! فاستحيا الرجل ورجع !  
بين الجاهل والعالم :

قيل لأفلاطون : لم يُبغض الجاهل العالم ، ولا يبغض العالم الجاهل ؟  
فقال : لأن الجاهل يستشعر النقص في نفسه ، ويظن أن العالم يحتقره ويزدريه  
فيبغضه ، والعالم لا نقص عنده ، ولا يظن أن الجاهل يحتقره ، فليس عنده سبب  
لبغض الجاهل .

#### الاختصار في الشرح :

قال الخليل بن أحمد : من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه ، حتى يستوى فيه  
القوى والضعيف لقلعنا ، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا .

#### الآل والأهل :

الآلاف في آل منقلبة عن همزة هي بدل من هاء أهل ، ولا يستعمل الآل في  
كل موضع يستعمل فيه الأهل ، وإنما يختص بالأشراف من الناس ، تقول :  
القراء آل الله ، والأتقياء آل محمد ، واللهم صل على محمد وآل محمد ، وفي القرآن  
الكريم : « وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » ، وتقول أهل الإسكاف  
مثلا لا آل الإسكاف .

#### التفسير والتأويل :

الفرق بينهما : أن التفسير للكشف عن المراد من اللفظ ، سواء أكان ذلك  
ظاهراً في المراد أو غير ظاهر .

والتأويل : صرف اللفظ عن الظاهر إلى غيره مما يحتمله اللفظ ، فإذا كل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تأويلاً .

الشعير يؤكل ويذم :

هذا مثل سائر ، يضرب لكل من يُنتفع به ويُجَارَى بالقيح ١١ وذلك أن الشعير يؤكل فيسمن ويُغنى عن جوع ، وهو مع ذلك مذموم .

الزهد بين كلمتين :

قال الإمام علي - عليه السلام - : الزهد كله بين كلمتين من القرآن : قال الله - سبحانه - : « لا تسكنوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » .

ومن لم يأس على الماضي ، ولم يفرح بالآتي ، فقد أخذ الزهد بطريقه .

حب الوطن :

كانت العرب إذا سافرت حملت معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحه ١ وتطرحه في الماء إذا شربته ١ وكذلك كانت تفعل فلاسفة اليونان ١ .

ومن الكلام القديم : لولا الوطن وحبه لحرب بلد السوء ١ .

ندم السيدة عائشة :

قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - : إذا مر ابن عمر فأرونيه ، فلما مر قالوا : هذا ابن عمر ، فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيرى - تعنى وقعة الجمل - قال : رأيت رجلاً قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه - يعنى عبد الله ابن الزبير - فقالت : أما إنك لو نهيتني ما خرجت ١ .

شرب دم الرسول :

قال الزبير بن العوام - رضى الله عنه - : احتجم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم دفع إلى دمه ، فقال اذهب به فواره حيث لا يراه أحد ، قال : فذهبت فشربته ، فلما رجعت قال - صلوات الله وسلامه عليه - ما صنعت ؟ قلت : جعلته في مكان أظن أنه أخفى مكان عن الناس ١١ فقال الرسول الكريم : فلعلك شربته ، قال : نعم .

أقول : وهذا خاص بالرسول - عليه الصلاة والسلام - فإن دمه طاهر ، وقد كان أصحابه يتنافسون في شربه .

### فظائع الحجاج :

قال علي بن مجاهد : ' قتل مع ابن الزبير في حصار الكعبة مائتان وأربعون رجلاً ، وإن منهم لمن سال دمه في جوف الكعبة ١١ .

ولما مات ابن الزبير كانت أمه أسماء - رضى الله عنها - تقول : اللهم لا تمتني حتى تفر عيني بجثته ، فلما دفنته - بعد إزاله من الصلب - لم يأت عليها جمعة حتى ماتت ١ .

### عفة العشاق :

دخلت بثينة إلى عبد الملك بن مروان فقال : ما أرى فيك يا بثينة شيئاً مما كان يلجج به دجمل ، فقالت : إنه كان يرنو إلى بعينين ليستا في رأسك يا أمير المؤمنين ١ . قال : فكيف صادفته في عفته ؟ قالت : كما وصف نفسه إذ قال :

لا والذي تسجد الجبال له      مالى بما ضمَّ ثوبها خبر  
ولا بفيا ولا هممت به      ما كان إلا الحديث والنظر  
ويقول مجنون ليلي :

كان على أنيابها الخمر شجه      بماء الندى من آخر الليل غابق  
وما ذقته إلا بعيني قفرساً      كما شيم من أعلى السحابة بارق  
والغابق : الذى يسقى شراب العشى ، وشج الشراب : مزجه .

ووصف أعرابي امرأة ، فقال : ما زال العمر يرينها فلما غاب ارتنیه ١ . فقيل له : فما كان بينكما ؟ قال : ما أقرب ما أحل الله مما حرم ١ إشارة من غير بأس ، ودنو من غير مساس ، ولا وجع أشد من الذنوب ١ .

### من حكم سليمان :

قال سليمان - عليه السلام - لقومه : أوصيكم بأمرين أفلح من فعلهما ١ لا تدخلوا أجوافكم إلا الطيب ، ولا تخرجوا من أفواهكم إلا الطيب ١ .

### التحرج من أكل الحرام :

قال جابر - رضى الله عنه - سمعت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول  
للكعب بن 'عجرة : « لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ، النار أولى به » .  
ويقول الحسن البصرى : لو وجدت رغيفاً من حلال لأحرقته ، ثم سحقته ،  
ثم جعلته ذروراً ، ثم داويت به المرضى ! .

ومن ورع أبى حنيفة : أن غنم الغارة اختلطت بغنم أهل الكوفة ، فأمسك  
أبو حنيفة عن أكل اللحم ! وسأل : كم تعيش الشاة ؟ قالوا : سبع سنين ، فترك  
أكل لحم الغنم سبع سنين ! .

وعن حذيفة بن اليمان يرفعه : « إن قوماً يحيثون يوم القيامة ولهم من الحسنات  
كأمثال الجبال ، فيجعلها الله هباء منثوراً ، ثم يؤمر بهم إلى النار ، ! فقيل : خلّهم  
لنا يا رسول الله ، قال : « لأنهم كانوا يصلون ويصومون ، ويأخذون أهبة من  
الليل ، ولكنهم كانوا إذا عرض عليهم الحرام وثبوا عليه » .

### حسن تربية :

رئى واصل بن عطاء يكتب من صبي حديثاً ، فقيل له : مثلك يكتب من هذا ! .  
فقال : أما إنى أحفظ له منه ، وإنكى أردت أن أذيقه كأس الرياضة ، ليدعوه ذلك  
إلى الازدياد من العلم .

### جليس قعقاع بن شور :

كان قعقاع بن شور قدم إلى معاوية ، فدخل عليه والمجالس غاص بالناس ليس  
فيه مقعد ، فقام له رجل من القوم وأجلسه مكانه ، فلم يبرح القعقاع من ذلك الموضع  
يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمائة ألف درهم ، فجعلت إلى جانبه .

فلما قام القعقاع ، قال للرجل القائم له من مكانه : « ضحها إليك ، فبى لك بقيامك  
لنا عن مجلسك ، فقيل فيه :

وكنت جليس قعقاع بن شور      ولا يشقى بقعقاع جليس  
ضحك السن إن أمروا بخير      وعند الشر مطراق عبوس

أخذ الشاعر قوله : « ولا يشق بقمقاع جليس ، من قول سيد البلغاء - صلوات الله وسلامه عليه - : « هم القوم لا يشق بهم جليسهم » .

### مصيبة المسلمين بموت الرسول :

قيل للإمام علي : لو غيرت شريك يا أمير المؤمنين !! فقال : الخضاب زينة ، ونحن في مصيبة برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

### رعاية حرمة الصديق :

نزل بعض الخوارج على بعض إخوانه مستتراً من الحجاج ، فشخص المضيف لبعض حاجاته ، وقال لزوجته : أوصيك بضيفي خيراً ، وكانت من أجل النساء . فلما عاد بعد شهر ، قال لها : كيف كان ضيفك ؟ قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شيء ! ولم يكن الضيف أعمى ، ولكنه أطبق جفنيه ، فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى منزلها حتى عاد زوجها .

### عفة الأحلام :

كان ابن سيرين يقول : ما غشيت امرأة قط في نقطة ولا منام غير أم عبد الله - يعني زوجته - وإنى لأرى المرأة في المنام ، وأعلم أنها لا تحل لي فأصرف بصرى عنها !! وفي عفة الأحلام يقول المتنبي :

عواذل ذات الخال في حواسد  
بردٌ يدا عن ثوبها وهو قادرٌ  
ويقول الجندی في هذا المعنى :

عجبت لها تهدي على النوم وصاها  
أقتع من « ليلي » بطيف خيالها  
على أنه روى غليل جوانحي  
وكيف اهتدى - والليل بنى وبينه -  
فله درى حين أغضى مهابةً  
لبست له بردَ الخشوع كأنني  
سوى قبلة من كفّه خلت وقعها  
ولو وصلت يغطي لزال خيالي  
وهل يقنع المضنى بطيف خيال  
ورّوح أحشائي وأنعم بالي  
إلى طلل رثّ المعالم بالي  
لطيف جمال زارني وجلال  
أقيم صلاتي والحطيم حيالي  
على قلبي الحرائر برد زلال

من لطيف الكتابات :

يقال : فلان من قوم موسى ، إذا كان ملولا ، إشارة إلى قوله - تعالى - :  
« وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، ويقال للجارية الحسنة : قد أبتت  
من رضوان ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَوْحِشِيَةِ الْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكَ الْأَهْلُ      أَيْ الْحَزْنَ حَلُّوا أُمَّ مَحْلُومِ السَّهْلِ  
وَأَيَّةُ أَرْضٍ أَخْرَجَتْكَ فَإِنِّي      أَرَاكَ مِنَ الْفَرْدُوسِ إِنْ فَدَشَ الْأَصْلُ  
قَفِي خَبْرِنَا : مَا طَعِمْتَ وَمَا الَّذِي      شَرِبْتَ ، وَمَنْ أَيْنَ اسْتَقْبَلَكَ الرَّحْلُ  
فَإِنْ عِلَامَاتِ الْجَنَانِ تَدَلَّنَا      عَلَيْكَ ، وَإِنْ الشَّكْلُ يَشْبَهُهُ الشَّكْلُ  
ويقول الجندی فی معناه :

هِيَ حَوْرَاءُ كَأَسْمَاءَ لِلْفَرَادِيسِ      عَلَيْهَا تَوَسَّامَةٌ قَدْسِيَّةٌ  
هَبَطَتْ أَرْضَنَا لَتَبْصُرَ بِالْعَيْنِ      وَبِالْقَلْبِ صُنْعَ رَبِّ الْبَرِيَّةِ  
وَيَرَى الْمُتَقُونَ مَا ذَخَّرَ اللَّهُ لَهُمْ      فِي جَنَّتِهِ الْعُلُويَّةِ

ويقال للشيخ الضعيف : العاجن والسكتى . قيل له عاجن : لأنه إذا قام عجن  
الأرض بكفيه ، والسكتى : الذى يقول : كنت أفعل كذا وكذا ، وكنت أركب الخيل ،  
يتذكر ما مضى من زمانه ، ولا يكون ذلك إلا عند الهرم ، أو الفقر ، أو العجز .  
ويقولون لمن يخضب : يسود وجه النذير ، والنذير هو الشيب ، ويقول بعض  
المفسرين فى قوله - تعالى - : « وجاءكم النذير » إنه الشيب . ويقال لمن يفخر بآبائه :  
هو عظامى ؛ إشارة إلى غفره بالأموات من آبائه وقومه ، ويقول الشاعر :

إذا ما الحى عاش بعظم ميت      فذاك العظم حى وهو ميت  
ويقال لمن يفخر بنفسه : هو عصامى ؛ إشارة إلى قول النابغة فى عصام بن مهمل  
حاجب النعمان :

نفسُ عَصَامٍ سَوَّدَتْ عَصَامَا      وَعَلَيْتَهُ الْكُرُ وَالْإِفْدَامَا  
وَجَعَلْتَهُ مَلِكًا مَهَامَا

ويكنى عن الموت بالقطع عند المنجمين . وعن السعاية بالنصيحة عند العمال .

وعن الجماع بالوطء عند الفقهاء . وعن السكر بطيب النفس عند الندماء .  
وعن السؤال بالزوار عند الأجواد . وعن الصدقة بما أفاء الله عند الصوفية .  
ويقال للتكلف بمصالح الناس : إنه وصى آدم على ولده ، وقد قال في هذا بعض الشعراء .

فكان آدم عند قرب وفاته أوصاك وهو يجود بالجواب  
بينه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء  
ويقال : فلان خليفة « الخضر » ، إذا كان كثير السفر ، يقول أبو تمام :  
خليفة الخضر من يربّع على وطن أو بلدة فظهور العيش أوطاني  
بفساد أهلي وبالشام الهوى فأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني  
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلغ بي أقصى خراسان

ويقال لمن لا يبق بالعهد : لا يحفظ سورة المائدة ، لأن أولها : « يا أيها الذين  
آمنوا أوفوا بالعقود » ، ويقال للطويل : خيط باطل ، وكانت كنية مروان بن الحكم ،  
لأنه كان طويلًا مضطربًا ، وفيه يقول الشاعر :

لما آفة قومًا أمّروا خيطًا باطل على الناس يُعطى من يشاء ويمنع  
وفي خيط باطل قولان :

أحدهما : أنه الهباء الذي يدخل من ضوء الشمس في الكوة من البيت :  
والثاني : أنه الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت ، وتسميه العامة : مخاط الشيطان .  
ويكنى عن السافلين على الأبواب بحفاظ سورة يوسف - عليه السلام - لأنهم  
يعتنون بحفظها دون غيرها .

بوركت من ثعلب :

جاء أعرابي إلى أبي العباس ثعلب وعنده أصحابه ، فقال له : ما أراد القائل بقوله :  
الحمد لله الوهب المنان صار الرّيد في رموس القضبان

فأقبل ثعلب على أهل المجلس ، فقال : أجيئوه ، فلم يكن عندهم جواب .  
وقال نبطويه : الجواب منك يا سيدي أحسن ! فقال ثعلب : أراد أن السنبل قد  
أفرك : أي صار فريكًا . قال الأعرابي : صدقت فأين حق الفائدة ؟ فأشار عليهم ثعلب  
بروه ، فقال الأعرابي - وهو يقول - : بوركت من ثعلب ! فما أعظم بركتك !



### الحب قديماً وحديثاً :

قال بعض الظرفاء : كان أرباب الهوى يسرون فيما مضى بالنظر ، ويقنعون بأن يمتنع أحدهم لبناً قد مضغته محبوبته ، أو يستاك بسواكها ، ويرون ذلك عظيماً .  
واليوم يطلب أحدهم الخلوة وإرخاء الستور ، كأنه قد أشهد على زواجهما أبا سعيد وأبا هريرة ، ورحم الله شوقي إذ يقول :

نظرة فابتسامه فسلام      فكلام فموعد فلقاء

### من حكم الإمام على :

١ - سأله رجل ، فقال : بماذا أسوء عدوى ؟ فقال : بأن تكون على غاية الفضائل ، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فار ، أو كلب صيود ، فهو - لأن تذكر بالجميل وينسب إليك - أشد مساءة .

٢ - إلهي ، كفاني غمراً أن تكون لي ربا ، وكفاني عزاً أن أكون لك عبداً ، أنت كما أريد ، فأجعلني كما تريد .

٣ - ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، والعدل في الغضب والرضا .

٤ - إذا قذفت بشيء فلا اتهام به وإن كان كذبا ، بل تحرز من طرق القذف جهداً ، فإن القول - وإن لم يثبت - يوجب ريبة وشكاً .

٥ - العشق مرض ؛ ليس فيه أجر ولا عوض .

٦ - وشكاً إليه رجل تعذر الرزق عليه ، فقال : مه ، لا تجاهد الرزق جهاد المغالب ، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم ؛ فإن ابتغاء الفضل من السنة ، والإجمال في الطلب من العفة ، وليست العفة دافعة رزقا ، ولا الحرص جالباً فضلاً ، لأن الرزق مقسوم ؛ وفي شدة الحرص اكتساب المآثم .

٧ - إزالة الجبال أسهل من إزالة دولة قد أقبلت ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء .

٨ - أكثرُوا ذكر الموت ، ويوم خروجكم من قبوركم ، ويوم وقوفكم بين يدي الله - عز وجل - يَهِنُ عليكم المصاب .

٩ - العمر أقصر من أن تعلم فيه كل ما يحسن بك عليه ، فتعلم الأهم فالأهم . أقول هذه الحكمة للإمام الرباني عليه السلام : أصل من أصول التربية والتعليم الحديث ، وبها يعلم فائدة التوفر على نوع من العلم للإحاطة به ، وهو ما يسمى بالتخصص في عصرنا .

١٠ - ليس كل ذى هين يبصر ، ولا كل ذى أذن يسمع ، فتصدقوا على أولي العقول الزمينة والألباب الخائرة بالعلوم التي هي أفضل صدقاتكم ، ثم تلا قوله تعالى : « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

١١ - وسئل عن القدر ، فقال : أقصر أم أطيل ؟ قيل بل تقصر ، فقال : جل الله أن يُريد الفحشاء ، وعز عن أن يكون له في الملك إلا ما يشاء .

١٢ - يا حملة العلم ، أتحملونه ؟ فإنما العلم لمن علم ثم عمل ؛ ووافق عمله عليه ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم : تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم عليهم ، يقعدون حلقاً فيما يهوى بعضهم بعضاً ، حتى إن الرجل ليغضب على جلسيه أن يجلس إلى غيره ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله - سبحانه - .

١٣ - لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ولا صياماً ، ولا حجاً ولا اعتكافاً ، ولكن عقلوا عن الله أمره ، خسفت طاعتهم ، وصح دينهم ، وكمل يقينهم ، ففاقوا غيرهم بالحظوة ، ورفع المنزلة

١٤ - إن الله - سبحانه - أدب نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ، فلما علم أنه قد تأدب قال له : « وإنك لعلی خلق عظیم ، فلما استحکم له من رسوله ما أحب قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

١٥ - يسرني من القرآن كلمة أرجوها لمن أسرف على نفسه « قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء » ، فجعل الرحمة عموماً ، والعذاب خصوصاً .

١٦ - كنت أنا والعباس وعمر نتذاكر المعروف ، فقلت أنا : خير المعروف ستره .  
وقال العباس : خيره تصغيره ، وقال عمر : خيره تعجيله ، فخرج علينا رسول الله  
- صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : فيم أنتم ؟ فذكرنا له ، فقال : « خيره أن يكون  
هذا كله فيه » .

١٧ - من كرم المرء : بكأؤه على ما مضى من زمانه ، وحنينه إلى أوطانه ،  
وحفظه قديم لإخوانه .

١٨ - أربع ، القليل منهم كثير : النار ، والعداوة ، والمرض ، والفقر .

١٩ - أربعة من الشقاء : جار السوء ، وولد السوء ، وامرأة السوء ، والمنزل الضيق .

٢٠ - أربعة تدعو إلى الجنة : كتمان المصيبة ، وكتمان الصدقة ، وبر الوالدين ،  
والإكثار من لا إله إلا الله .

٢١ - عاتبه عثمان - رضى الله عنه - فأكثر وهو ساكت ، فقال : مالك لا تقول !  
قال : إن قلت لم أقول إلا ما تسكره ، وليس لك عندي إلا ما تحب .

٢٢ - بُليت في حرب د الجمل ، بأشد الخلق شجاعة ، وأكثر الخلق ثروة وبذلاً ،  
وأعظم الخلق في الخلق طاعة ، وأوفى الخلق كيداً ونكيراً : بليت بالزبير لم يرد وجهه  
قط ، ويبيع بن منية يحمل المال على الإبل الكثيرة ، ويعطى كل رجل ثلاثين  
ديناراً وفرساً على أن يقاتلني ، وبعاثشة ما قالت قط بيدها هكذا إلا واتبها الناس ،  
وبطلحة لا يدرك غوره ، ولا يطال مكره .

٢٣ - لا تقبل الرياسة على أهل مدينتك ، فإنهم لا يستقيمون لك إلا بما  
تخرج به من شرط الرئيس الفاضل .

٢٤ - وسئل عن الفرق بين الغم والخوف ، فقال : الخوف : مجاهدة الأمر  
الخوف قبل وقوعه ، والغم : ما يلحق الإنسان من وقوعه .

٢٥ - أنا هب الله وأخو رسول الله لا يقولها بمدى إلا كذاب .

٢٦ - أخذ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يندى فhezها ، وقال : ما أول  
نعمة أنعم الله بها عليك ؟ قلت : أن خلقني حياً ، وأقدرني ، وأكمل حواسي ومشاعري

وقواى ، قال : ثم ما ذا ؟ قلت : أن جعلنى ذكرا ، ولم يجعلنى أنثى ، قال : والثالثة : قلت : أن هدانى للإسلام ، قال : والرابعة : قلت : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .  
 ٢٧ - وقيل له : أى الأمور أعجل عقوبة ، وأسرع لصاحبها صرعة ؟ فقال : ظلم من لا ناصر له إلا الله ، وبجازاة النعم بالتقصير ، واستطالة الغنى على الفقير .  
 ٢٨ - المرأة تكتم الحب أربعين سنة ، ولا تكتم البغض ساعة واحدة .

٢٩ - ثلاث موبقات : الكبير ، فإنه حطّ إبليس عن مرتبته ، والحرص ؛ فإنه أخرج آدم من الجنة ، والحسد ؛ فإنه دعا ابن آدم إلى قتل أخيه .  
 ٣٠ - الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فمن تركها وادعى الإيمان ، كذبه فعله ، وكان عليه شاهد من نفسه .

### يلقمه حجراً :

دخل الجوابيقي على المقتنى العباسي ، فقال : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! وكان الطبيب : هبة الله بن صاعد بن التليذ النصراني حاضرا ، فقال : ما هكذا يُسلم على أمير المؤمن ، يا شيخ ! فلم يلتفت إليه الجوابيقي ، وقال للمقتنى : يا أمير المؤمنين ، سلامي هذا ما جاءت به السنة النبوية ، ثم روى له خبراً في صورة السلام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، لو أن إنساناً حلف : أن نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتمد ، لما لزمته كفارة الحنث ، لأن الله - تعالى - ختم على قلوبهم ، ولن ينفك هذا الختم إلا بالإيمان !  
 فقال المقتنى : صدقت وأحسن ! فكأنما ألقم ابن التليذ حجراً ، مع فضله . وغزارة أدبه ، وكان الجوابيقي إماماً في غنون الأدب ، وله تصانيف مفيدة ، وكان إماماً للمقتنى يصلّى به الصلوات الخمس .

### انتقاء الموت بالعورة :

يقول أبو فراس الحمداني :

ولا خير في ردّ الردى بمذلة كما ردّها يوماً بسوءته عمرو  
 يريد عمرو بن العاص ، حين ضربه الإمام يوم صفين ، فالتقاء بسوءته كاشفاً

عنها ، فأعرض عنه قائلا : عورة المرء حشى . وقد وقع ذلك أيضاً لبُسر بن أرطاة فقد كان مع معاوية بصفين ، فأمره أن يلقي الإمام ، قائلا له : سمعتك تمنى لقاءه ، فلو ظفرت به حصلت على دنيا وأخرى ، ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى قصده في الميدان ، فصرعه الإمام ، فكشف عن سوءته ، فتركه كما ترك عمرو .

أقول : لو أن الإمام - عليه السلام - كان يريد عرض الدنيا ولا يبنى وجه الله ، لا هتبلها فرصة لها ما بعدها ، ولكنه كان لا يرضى إلا الحق كل الحق لا شيء غير الحق بوسائل هي الحق ! .

وفي هاتين الحادثتين يقول الحارث بن النضر السهمي - وكان عدواً لعمرو ولبسر :

أفي كل يوم فارس ليس يذهي	وعورته وسط العجاجة بادية
يكشف بها عنها دلى ، سنانه	ويضحك منها في الخلاء معاوية ،
بدت أمس من دعمره ففزع رأسه	وعورة بسر ، مثلها حذو حاذيه
فقولوا لعمرو ثم بسر ألا انظرا	سبيلكما لا تلقيا الليث ثابته
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما	هما كاتتا والله للنفس واقية <sup>(١)</sup>
فلولاهما لم تنجيا من حسامه	وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المشيخة صُبحة	وفها دلى ، فأتراكا الخيل ناجيه
وكونا بعيداً حيث لا تدرك القنا	نُحوركما إن التجارب كافية

لا بد للشاعر من النسب :

كان ابن المولى الشاعر المدني موصوفاً بالعفة وطيب الإزار ، فأنشد عبد الملك بن مروان شعراً جاء فيه :

وأبكي فلا دلى ، بكيت من صباية	لباك ولا دلى ، لدى البذل تبذل
وأخضع بالعُتبي إذا كنت مذنباً	وإن أذنبت كنت الذى أنتصل

فقال عبد الملك : من ليلي هذه ؟ إن كانت حرة لأزوجنكها ، وإن كانت أمة

(١) الحيا في الأصل : فرج المرأة ، والحياء بالمد : الفرج من ذوات الظلف والسباع ، وقد يقصر أيضاً .

لاشترينها لك بالثمن ما بلغت ، فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، ما كنت لأصغر وجه  
حر أبداً في حرته ولا في أمته ، وما ليلى التي أنست بها إلا قوسى هذه سميتها ليل ؛  
لأن الشاعر لا بد له من النسيب .

الآخذ بالظاهر :

كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يرد على أحد إسلامه ؛ أسلم عن علة  
أو عن إخلاص ؛ يكتفى بالظواهر ، ويكل السرائر إلى الله .

يخف الجاحظ وجرأته :

كان الجاحظ يفسق عمر بن عبد العزيز ، ويستمزيه به ويكفره ، وعمر  
ابن عبد العزيز يلقب بالخليفة الخامس ، وهو إن لم يكن من الصحابة فأكثر العامة  
يرى له من الفضل ما يراه لواحد من الصحابة .

الكهف والغار :

الكهف : النقب في الجبل ؛ فإن لم يكن فيه سعة فهو : الغار .

السوء والسؤء :

السوء - بالفتح - مصدر ساءه : أى فعل به ما يكره ، والسوء - بالضم - اسم منه .

الجبان والشجاع :

نفس الجبان ونفس الشجاع سواء فيما يدهمهما عند الوهلة الأولى ، ثم يختلفان ؛  
فالجبان يركب نقرته ، والشجاع يدفعها فيثبت ، ومن ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

فجاشت إلى النفس أول مرة      فزُدَّتْ على مكروهاها فاستقرت

أولاد عبد مناف :

ولد عبد مناف : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ؛ وعبد شمس أكبرهم ،  
وهو وهاشم ، والمطلب أشقاء ؛ وأما نوفل فأخوهم لأبيهم .

أو بمعنى إلا :

قال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عيشك إنما      نحاول مُملكا أو نموت فنُسْغَدَرا

قال المرتضى : أو بمعنى إلا : أى إلا أن نموت .

# في القصص القرآني

لـؤـلـمـة اـمـمـه الشـاب

وكيل كلية دار العلوم

— ٣ —

١٦ — والآن ، كيف ندرس القصص القرآني ١٤ .

إن الخطأ الذي تردى فيه خصوم القرآن أنهم وجدوا ما يُوجّه إلى التوراة والإنجيل من فقد يتصل بالمتن والسند جميعاً ، فقد يتبين به ما فيهما من خلط ، وتناقض ، ووضع ، واعتراف من أصحابهما بذلك ، فأرادوا أن يسلكوا بالنسبة للقرآن نفس المسلك خطأ وزوراً ، ولم لا يُتهم القرآن عندهم بمثل ما اتهم به كل من التوراة والإنجيل ؟ أليست كلها كتب ديانات سماوية ؟ أليس من المنطق ، عند هؤلاء ، أن نسوى بينها في الحكم ؟ وما شأننا وشأن توثيق القرآن وصيانتها من العبث والكذب والافتراء ؟ فلنتهم بما اتهم به سواه ، ولنفرض عليه هذه التهم مقدماً ، ثم نتناول قصصه تعسفاً في التفسير ، ورمياً بالباطل ، وفرضاً بلا دليل ، لنصل من وراء ذلك إلى ما نريد ، أما أننا ، نبتعد عن هذا الوضع المعكوس ، ونخضع في دراساتنا للمنهج العلمي الطبيعي فنبدأ من نصوص القرآن وندرسها في بيئتها ، وفي جوها ، وفي أهدافها ، وفي طبيعتها ، وننتهي من هذه الدراسات إلى نتائجها المنطقية الطبيعية ، أما أننا نفعل ذلك نزولاً على سلامة المنهج وصحة المادة ، فلا ، لا ، قالوا ذلك ، وادعوا أن الغرض من قصص القرآن هو الذي يبين قيمته التاريخية ، وما الغرض عند هؤلاء ؟ الضحك على الناس بأية وسيلة ولو كانت الخروج على التاريخ ، والكذب ، والافتراء ، والتدليس ، تملقاً للناس لينحازوا إلى جانب القرآن ، أما الهدف الحقيقي المباشر الذي تحدث به القرآن عن نفسه ، وأكدته كثيراً من مثل العظة والاعتبار وثبيت فؤاد النبي فليس له عندهم حساب ، إن هؤلاء قد عكسوا

الوضع ، ووضعوا العربية أمام الحصان ، لأنهم بدءوا من حيث يجب أن ينتهوا ، لأنهم بدءوا ففروا النتائج أولا ولم تفتحها المقدمات ، ويجب ، عندهم ، على القرآن أن يقبل هذه التهم الباطلة ، هكذا يفعل الجهلاء ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يكون القرآن متهماً بالكذب والتزييف والتدليس ، هي عندهم بطولة على كل حال ، وإن كانت مزيفة جاهلة ضالة فاسدة ، يفعلون ذلك وأمام أعينهم الإبطال لهذه التهم والرد عليها ، حيث نهض بذلك الأقدمون والمحدثون أمثال الإمامين : الفخر الرازي ومحمد عبده ، وسنرى فيما يلي كيف تفشل هؤلاء على الإمامين وعلى غيرهما ، وكيف نالوا كلامهم بالتحريف والبر لعلهم يصلون إلى ما يدعون .

هذا ، وقد قال العلماء إن التفسير بالرأى يتعرض لخطرين يجب الحذر منهما : أحدهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدها المفسرون من قبل ، وأرادوا قصر النصوص القرآنية عليها تأييداً لعقائدهم ، فجعلوا مذاهم أصولاً والقرآن فرعاً لها يُحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع .

وثانيهما : التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية ، وما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بها من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن « الله تعالى الصادق ، والمنزل عليه » محمد صلى الله عليه وسلم ، والمخاطب به <sup>(١)</sup> ، وهذا رد على من يتناولون القرآن مستقلاً عن مقوماته الدينية والأدبية كأنه كتاب بشرى ، بل إن الكتب البشرية لا يمكن أن تدرس بنجاح إذا أهملت ملابساتها المكانية والزمانية والشخصية .

١٧ — فلنترك هؤلاء في غيهم وضلالهم ، ولنحاول أن نشير في إجمال إلى معالم المنهج السديد لدراسة القصص القرآني ، تاركين التفاصيل إلى دراسة مستفيضة نرجو أن ينهض بها من يوفقه الله :

١ - يجب التمهيد لهذه الدراسة بالفرق بين القصص القرآني وبين القصص بهذا الاصطلاح الحديث ، وذلك نزولاً على طبيعة قصص القرآن ومنهجه وأهدافه ، كما بينا فيما سبق .

(١) راجع مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٠ ، والإحياء للأزالي ج ١ ص ٢٦١ ، وتفسير المنار ج ١ ص ٩ ، ومناهل العرفان للأزرقاني ص ٥٠٢ - ٥٣٨ وغيرها .



٢ - كذلك يجب أن نفرق بين قصص القرآن وبين التاريخ من حيث المنهج والهدف ، كما شرحنا ذلك من قبل .

٣ - فإذا تقدمنا إلى قصص القرآن كان علينا أن نجمع آيات كل موضوع متصل بشخص أو أمة ، وأن نرتبها بحسب النزول ، وأن نفهم مناسباتها من جو القرآن نفسه أولاً ، ومن أسباب النزول إذا صحت رواياتها .

٤ - يجب أن نضع نصب أعيننا أن هذه الآيات المتصلة بموضوع ما ، لا يلزم أن تكون مستوعبة لجميع عناصره ، وبذلك لا نتهما بالقصور ، فما كانت إلا فقرات واردة لمناسبات بيانية في سبيل التبليغ الإسلامي ، ولذلك يجمعها جميعاً هدف العظة والاعتبار وتثبيت فؤاد الرسول .

٥ - ويأتي بعد ذلك عرض الفكرة القصصية مكررة ، وهنا نلاحظ ، كما قدمنا ، أن التكرار تختلف عناصره ، فقد ترد بعض العناصر مرة ، وقد تحذف أخرى ، وأهم من ذلك أن الموقف الواحد قد يُجزأ ما يرد فيه من أحداث ، فيرد بعضه مرة وبعضه الآخر مرة أخرى ، وذلك حتى لا يقال إن هناك تناقضاً في قصص القرآن الكريم ، وقد يتكرر الموقف وترد فيه عبارات أخرى مناسبة له أو مشابهة لنظيرتها .

٦ - وإذا تم التنسيق التاريخي والموضوعي بين مجموع ما ورد في الموضوع الواحد ، أمكننا - في حدود ما ورد - أن نتبين حال المخاطبين بهذه القصة ، وما طرأ على مواقفهم من الإسلام والرسول ، ومقدار ما تأثرت نفوسهم بعناصرها ، كما نتبين تاريخ سير البلاغ الإسلامي نفسه ، وذلك يجعل القصص مصدراً تاريخياً من حيث أنبأؤه أولاً ، ومن حيث حياة الرسالة الإسلامية من وجه آخر .

٧ - فإذا صحت لدينا أنباء تاريخية وثيقة كان لنا أن نضعها في الاعتبار ، وأن نستعين بها في تفسير آي القصص ، وأن نوازن بينها وبين قصص القرآن مع ملاحظة الفرق بين المنهجين حسباً وضخاً فيما مضى .

٨ - وهنا يمكن أن نعقد موازنة - ولا أقول مقارنة - بين القرآن وبين التوراة

والإنجيل في هذا الباب - مع عدم تحكيم هذين في القرآن - وإنما يكتفى بالعرض أولاً وبيان خصائص كل في قصصه ، فإذا تعارضت النصوص كان علينا أن نتحرى الحقيقة من التاريخ الوثيق إن وجد ، وإلا كنا مضطرين بحكم المنهج أن نتبع النص الوثيق ، وقد بينا ذلك فيما مضى .

٩ - وتسجيل الخصائص العامة لقصص القرآن ، سواء فيما يتصل به مستقلاً ، أو فيما ينتج عن الموازنة بينه وبين غيره ، يمكن وصف القصص القرآني وصفاً يتناول ويتناول ما يُقْصَم من ملابسات زمانية ومكانية وإنسانية ، أو بالاختصار يمكن تأريخه تأريخاً إن لم يكن كاملاً فهو مقارب على كل حال .

١٠ - وأخيراً يجب الوقوف طويلاً عند أسلوب القصص القرآني وتبين ما فيه من خواص بيانية ، ولعل أسلوب القرآن في مقدمة ما عاجزه البشر وتخدام ، وفي هذا الدرس البلاغي تتركز خصائص لعلها خلاصة ما بينا في هذا المنهج الوجيز .

١٨ - والآن نورد مثالا موجزا لبيان طبيعة القصص القرآني ومنهجه ، تطبيقاً لما ذكرنا هنا ، وقد اخترنا ما ورد في القرآن من أنباء صالح عليه السلام .

وردت قصة صالح مع قومه ثمود في السور الآتية مذكورة بحسب ترتيب النزول الوارد في المصحف المتداول في مصر الآن : هود ، والأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والشمس ، والقمر .

١ - ففي سورة هود خلاصة موجزة لمعالم القصة : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها مستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١) قلوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، ولما لنا لى شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فأتزيدونني غير تحسير (٦٣) ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) ففعلوها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا

صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦)  
وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائنين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها  
ألا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعد الثمود (٦٨) .

٢ - وفي سورة الأعراف : د ولإن ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله  
ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل  
في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (٧٣) واذكروا إذ جعلكم  
خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال  
يوتأ فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا في الأرض مفسدين (٧٤) قال الملأ الذين  
استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من  
ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به  
كافرون (٧٦) فمقرروا الناقة وعتوا من أمر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا  
إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جائنين (٧٨)  
فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون  
الناصحين (٧٩) .

ويمكنك منذ الآن ملاحظة ما بين آيات السورتين من تقديم وتأخير وإجمال  
وتفصيل وغيرها ، كما يمر بك بعد حين ، وكما ترى في آيات السور الآتية .

٣ - وفي سورة الشعراء : د كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم  
صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤)  
وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون فيما  
ههنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨)  
وتنحتون من الجبال بيوتا فآفارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا  
أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٥٢) قالوا إنما  
أنت من المسحurin (١٥٣) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (١٥٤)  
قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم

عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك هو العزيز الرحيم (١٥٩) .

٤ - وفي سورة النمل : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أحامم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيرنا بك وبين معك ، قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧) وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون (٤٨) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون (٤٩) ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرم أنا مدرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فذلك بيوتهم غاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣) » .  
وهنا ورد من التفصيل ما لم يرد في السور السابقة فلنتنظر .

٥ - وفي سورة الشمس ، وهي من قصار السور : « كذبت ثمود بطغواها (١١) إذ انبعث أشقاها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥) » .  
وهنا تنويه بعقر الناقة وعاقرها وبآثار ذلك .

٦ - وفي سورة القمر : « كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر (٢٤) أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غداً من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقهم واضطرب (٢٧) ونبيهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محضّر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابى ونذر (٣٠) إنا أوسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) » .

وهنا عناية بالجدل حول صالح ودعوته .

١٩ - ١ - فإذا اتخذنا ما ورد في سورة هود على أنه لإجمال لمعالم القصة وترتيب لوقائعها ، مع ملاحظة عدم الاستقصاء رأينا الدعوة إلى عبادة إله واحد

أنشأ نمرود واستعمرهم في الأرض ، فيجب أن يستغفروه ويتوبوا إليه ، ولكنهم يقولون : إن صالحا خيب ظنهم به إذ كانوا يعدونه لمهام الأمور ، فكيف ينهزم عن دين آبائهم بدين يشكون في أمره ، ولكنه على بينة من ربه الرحمن الذي لا قبل له بمصيته ، ثم قدم لشود آيته ، وهي الناقة تأكل في أرض الله ولا تمس بسوء فقروها ، فأنذرهم ثلاثة أيام ، ثم أخذتهم الصيحة - إلا صالحا ومن آمن به - فأصبحوا في ديارهم جائمين .

٢ - فإذا انتقلنا إلى سورة الأعراف ظفرنا بتفصيل يتصل باستخلاف نمرود في أرض عاد ، وإغداق النعم عليهم ، وبانقسامهم بين مستضعف مؤمن ، ومستكبر كافر ، ويتقديم ذكر الناقة بعد أن كانت متأخرة في ترتيب آيات هود ، ثم يسجل عليهم صالح عدم الاستماع إلى نصحه ، فباءوا بالعذاب المبين .

ومن الواضح تشابه الأسلوب في القصتين وضوحا وقوة وجمالا .

٣ - وفي سورة الشعراء يقدم النص على تكذيب نمرود لصالح ، ويؤخر الآية في الذكر ، ويفصل بذكر ما دار من جدل حول رسالته ، واستنكارهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم ، وتحديه أن يأتيهم بآية ، فكانت الناقة .

٤ - وفي سورة النمل تفصيل جديد يحكي افتراق نمرود فريقين مختصمان أمام دعوته ، وباستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، وتطيرهم به وبمن آمن معه ، وبهؤلاء الرهط المفسدين ، والمتآمرين عليه ، وبما مكروا فكانت عاقبة مكرم أن دُمروا وخويت بيوتهم بما ظللوا ، ولم يصرح هنا بالآية « الناقة » .

ويجب أن نلاحظ منذ الآن أن الموقف الواحد في القصص قد ترد فيه عبارات مرة غيرها في مرة أخرى ، وتفسير ذلك أن القرآن يحكي جزأ مما حصل في المرة الأولى ، وجزأ آخر في المرة الأخرى ، وهكذا .

٥ - وأما سورة الشمس فقد نوهت بعقر الناقة وعاقرها ، وما تبع ذلك من عذاب حل بنمرود ، وهذا تصوير رائع يرتفع بقوته إلى الغاية .

٦ - وفي سورة القمر تكرار - ولكن بأسلوب جديد - للمعانى التي وردت في بعض السور الأخرى من استنكاذ أن يكون الرسول بشرا ، ومن تكذيب صالح ، وتوعد القرآن لهم ، وذكر الآية ، وقسمة الماء بينهم وبينها - وهذا جديد - ثم عقر الناقة وما أعقب ذلك من هذاب .

٢٠ - فإذا لاحظنا ما ورد في سورة الأعراف بعد هود ، تبين لنا أن ثمود كانوا في جملتهم معاندين ينتظرون دليلا أو آية ، فعجل لهم القرآن بذكر الناقة ، ونهبهم إلى عاد قوم هود الذين سبقهم إلى الأرض التي يعيشون فيها ، ثم نراهم انقسموا فريقين مؤمن وكافر به ، ثم كان هقر الناقة والعذاب ، وخروج صالح من المهدة بعد ما نصح لثمود فلم ينتصحو ، وفي الشعراء ما يدل على تعنت القوم ورمى صالح بأنه من المسحرين ، فإذا كانت النمل رأينا المؤامرة بصالح ، وفي الشمس كانت العاقبة الوخيمة لثمود ، وقد تكررت في سورة القمر بأسلوب مفصل .

ذلك ما يتسع له المقام هنا عما يتصل بمنهج القصص القرآني ، وربما كان الواجب أن نلم ببعض الشبهات التي يوردها خصوم القرآن ؟

## الثروات الطبيعية والتصنيع من خلال آيات القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

- ١ -

القرآن الكريم يخاطب النوع الإنساني بعناية وتقدير ، على أساس أن الإنسان مخلوق له رسالة عظيمة الشأن استخلفه الله في الأرض لتحقيقها ، ويسر له جميع وسائلها ، حيث زوده بالعقل ، وأقدره على الحركة الفكرية التي لها طابع المتابعة ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وزوده بأعضاء وجوارح تعينه كذلك ، ثم جعل الأرض نفسها مزودة بكل شيء . « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » ، وهياً للإنسان فيها جميع الثروات الطبيعية ، والمواد الأولية ، ثم سخر له مع ذلك كل شيء خارج نطاق الأرض .

والروح الذي يدرك من هذا كله : أن الأرض وما حولها ميادين عظيمة خلقت وهيئت بقوانين وسنن ثابتة حكيمة ، وسخرت للنوع الإنساني ، كي يحول فيها ، ويستثمر ثمراتها ، وينتفع بخيراتها ، ويولد منها ما شاء وما هداه إليه عقله ، وما استطاعه دون حجر ولا تحديد .

لقد منح القرآن الكريم الإنسان بهذا شخصية قوية ، وغرس فيه الاعتداد بالنفس ، والثقة بالقدرة ، والرغبة في توليد كل ما يعينه من الإمكانيات الطبيعية والصناعية ، ليتقدم من نصر إلى نصر ، ويرتفع من علو إلى علو ، تحقيقاً لقوله تعالى : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش » .

وهذه العناية الإلهية بشأن الإنسان راجعة إلى علوه تعالى وحكمته ، ولذلك تساءل الخلق الأخيار - وهم الملائكة - لما استخلفه الله في الأرض ، عن مزاياه ودونهم ، فأعلمهم الله أنه أقدر منهم على تحقيق الرسالة التي اختير لها ، لما هيأه الله

عليه من صفات ، وزوده به من قدرة وإمكانات : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ، وهذا حكم فاصل من شأنه أن يرفع معنويات الإنسان ، حيث يرى أن الإله الخالق القادر الحكيم العليم اعتبره أصلح لمهارة الكون من الملائكة الأبرار الأطهار ، مع أنه مخلوق يصدر عنه الفساد أحياناً ، وسفك الدماء أحياناً ، ومع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون :

ثم حكم حكماً آخر على منافس آخر للإنسان ، هو إبليس عدو بني آدم اللدود ، حيث أمره بالخضوع لآدم ، فلما لم يخضع تكبراً واستعلاء ، وعصى أمر الله ، وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، لعنه الله وطرده من رحمته ، ونصر الإنسان عليه في موقف التحاكم ، وحذره منه ومن ذريته مبيئاً له أنه عدوه المبين . قال اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .

ولإذن فالإنسان هو النوع المختار الذي علم الله جدارته بالرسالة التي استخلفه في الأرض من أجلها ، دون الطيبين الأبرار من الملائكة ، والمفسدين الأشرار من الآبالة .

وما دام الإنسان مخلوقاً له رسالة ، وقد استخلف في هذا الكوكب لغاية ، فلا يمكن أن يرضى الإسلام الذي يقرر هذا ويؤكد مرة بعد مرة في آيات من كتابه الخالد ، بأن يقضى الإنسان حياته فارغاً أو قابلاً مستسلماً لما حوله ، مستمرّاً رتبة الحياة ونعيمها السهل الميسر دون أن يعمل ويشقى .

وليس الإسلام هو دين الرهينة الذي يرضى أو يطلب من الإنسان أن يعيش كما يعيش الراهب في صومعته ، أو كما يعيش المتقطع في الجبل ، لا يعمل ، ولا يزرع ، ولا يحصد ، ولا يفكر ، ولا يؤلف ، ولا يواجه ، ولا يشارك في أى نشاط ، بحجة أنه متفرغ للعبادة ، وأداء حق الشكر لله تعالى على ما أنعم ، وأنه مؤثر للزهد في الحياة ، واحتقار الدنيا وزينتها .

وذلك لسبب بديهي هو أن هذا هروب من الرسالة التي خلق لها ، وتخلص من الأمانة التي هيء لتحملها ، وغفلة عن قاعدة أساسية قررها الإسلام ، وهي أنه



يعتبر كل عمل يقوم به المرء للإصلاح والتعمير ، والتوليد والتمشير ، عبادة لا تقل في أهميتها عن الصلاة والصيام والحج ، بل ربما تفضلها ، وأن الله تعالى حين قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، لم يحصر نوع العبادة بالنسبة للإنس في أداء الفرائض والنوافل الروحية ، وإنما بين في غير هذه الآية أن كل عمل صالح فهو عبادة ما دامت النية فيه حسنة ، والقصد صالحاً مشروعاً ، وما دام المرء مؤدياً به حقاً عليه لنفسه أو لمجتمعه ، أو لأمته ، أو للإنسانية عامة .

\* \* \*

إذا تبين لنا هذا علماً أن الإسلام يريد تهية النوع الإنساني للعمل والسمي وتعمير الأرض واكتناه شأن الكون ، والانتفاع بما سخره الله فيه .

وبذلك يكون قد أمد الأرض بالموارد البشرية ، أي هياً لها - باعتبارها منجماً كبيراً أو مستودعاً هائلاً - موارد لا تنقطع من القوى البشرية العاملة الدائمة المفكرة المدبرة ، المتقبلة على السعي بفطرتها وطبيعة تكوينها ، ولم يحل بالدين بينها وبين هذا السعي والدأب ، بل جعله دافعاً لا مثبطاً ولا مخذلاً ولا معوقاً .

فهذا هو المورد الأول والأساسي من موارد الإعمار والكشف والتمشير والتحصيل والتصنيع ، لولاه ما كان للأرض قيمة ، ولا ثرواتها الطبيعية من ينتفع بها ، ولا لما حول الأرض دلالة ولا إشارة تنبيء عن عظمة الخلق ، وبديع الصنع ، وظل العالم كالقصر المنيف الذي هيء أعظم التهية بكل شيء ، ثم ترك خالياً خرباً لا يسكنه أحد ١ .

وإن هذا ليتفق مع النظريات الاقتصادية كل الاتفاق ، فإنه لا فائدة في أي مورد من الموارد الاقتصادية الطبيعية إلا إذا توافرت لها الموارد البشرية التي تستنبطها وتستحييها وتعمل فيها العقل والفكر ، وتصنعها أو تهذبها على نحو من التصنيع أو التهذيب .

\* \* \*

والقرآن الكريم بعد أن يبين الغاية من خلق الإنسان ، وبعد أن يحشد أفراد هذا النوع للعمل والسعي والدأب ، كورد أساساً للإعمار والتصنيع يلفت الإنسان

في كثير جداً من الآيات ، إلى الثروات الطبيعية التي خلقها الله ، وأعدّها للإنسان لينتفع بها على وجه طبيعي أحياناً ، وصناعي أحياناً ، فهو يلفت إلى الثروة الزراعية ، أو النباتية حيث يقول :

« هو الذي أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمون ، ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . »

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . »

« إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأتى توفكون . »

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . »

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . »

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . »

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . »

« أفأرأيتم ما تحرثون ؟ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو أنشأ جعلناه حطاما فظلمت تفكهمون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون . »

« أفرايتم النار التي تورون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للبقين ، .

« الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم ، .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا ، .

إلى غير ذلك من الآيات التي تلفت إلى الثروة النباتية التي هي أساس عيش الإنسان وغذائه وطعامه وفاكهته ، والتي يرجع إليها شطر كبير من عمل العاملين ، وتجارة المتجرين ، وحركات النقل ، والمصانع .

ويلاحظ أن القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى هذه الثروات بأسلوبه الذي ينتهز كل فرصة تواتيه حتى ينفذ من خلالها إلى العبرة والدلالة على بديع القدرة ، وواسع الرحمة ، لأنه يربط دائماً بين الأشياء والأعمال ، وما توحى به من حقائق توجب الإيمان ، وتحول بين الإنسان وما قد يعتريه من الطغيان ، وتعرفه بربه وما له من حق عليه .

ولذلك نراه لا يسرد أصناف النبات والزرع سرداً كما لو كان يقدم بها جدولاً اقتصادياً ، أو كشفاً حسابياً ، وإنما يذكرها موزعة في مواضع مختلفة ، ويقدمها إلى العقول كي ترى فيها عظمة الخالق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، .

« إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، ، « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ، ، « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، ، « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، ، « أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، وهكذا يأتي لفت الأنظار إلى الخيرات والثروات مقررنا يلفت الأنظار إلى واهبها والمنعم بها ، وهذا من أسرار البلاغة والإيجاز في القرآن الكريم ، إذ يثير العواطف في قلوب المؤمنين حتى وهو يقدم صورة اقتصادية تلفت إلى بعض الموارد الطبيعية .

ثم يلاحظ أيضاً أن القرآن الكريم يلفت في أثناء ذلك إلى تصنيع هذا النوع من الثروات ، حيث يقول في بعض الآيات : « تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فالاتخاذ لا يكون إلا بنحو من الصنعة والعمل والتحويل ، وحيث يقول : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والتعريش إنما يكون حيث يتعاون الإنسان مع السنن الكونية للنبات والزرع ، فهو لون من ألوان الصنع الإنسانى الذى يدخله الناس على بعض الموارد الطبيعية تنظيماً للانتفاع بها ، وتحويلاً لها عن أوليتها الفطرية ، وسداجتها الأصلية ، ويقول الله تعالى فى التفرقة بين ما يكون من فعل الإنسان وفعل الخلاق : « أفرأيتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، فالحرث هو فعل الإنسان ، إذ هو الذى يقطب الأرض ويهيئها لتلقى البذر ، ويشير باطنها ، أما الزرع فهو صنع الرحمن إذ هو الذى سن قانون النبات ، وأودعه القوة التى تجعله يمتص الماء بقدر ، ويأخذ من التربة بقدر ، ومن ضوء الشمس بقدر ، فيزرع وتتمكن جذوره ثم ينمو ويؤقأ كله كل حين بإذن ربه ، وليس للإنسان فى هذا الجانب أى عمل ، وكذلك قوله تعالى : « أفرأيتم النار التى تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المُنشئون ، فالشجر فى الغابات وفى غيرها منشأ من الله تعالى بتكوين عناصره التى يمكن معها أن يكون نارا ، وليس للإنسان دخل فى تكوين هذه العناصر وتأليفها ، وقد اكتشف الناس فيما بعد أن هذه الشجرة التى توقد منها النار هى الأصل للفحم الشجرى ، وقد مرت عليها أعصار طويلة فى المصنع الإلهى حتى صارت فخماً يستخرج ويستوقد بفعل الله ، أو كما يقولون : بفعل الطبيعة ، وما الطبيعة إلا قوانين التكوين والتحويل التى سنّها الله ، فسبحان الخلاق العليم .

## — ٢ —

يتصل الإنتاج الحيوانى بالإنتاج الزراعى اتصالاً وثيقاً ، فكما كان هناك رواج زراعى ، كان هناك رواج حيوانى .

وسبب ذلك واضح ، وهو أن الحيوان ككائن حى يحتاج إلى الغذاء ويفتقر إلى العوامل الطبيعية للنمو والتوالد ، وهو يجد ذلك بصورة سهلة منتظمة فى البينات الزراعية .

حتى أن علماء الجغرافية الاقتصادية ، يعتبرون أن الإنتاج الزراعى بمصناه الواسع يشمل الإنتاج الحيوانى ، وهذا صحيح فى واقع الأمر ، لأن الحقل الذى ينتج الحبوب والمراعى ، ينبت أيضا اللحوم بطريق غير مباشر ، إذ أن الحيوانات للمقصودة اللحم تتغذى مما ينتجه الحقل فيتحول غذاؤها إلى لحم ينمو الحيوان وتوالده .

والقرآن الكريم يربط بين الزراعة والإنتاج الحيوانى حين يصرح بأن ما تخرجه الأرض من النبات يقصد منه فيما يقصد أن يكون طعاماً للإنسان والحيوان ، وأن الماء الذى تروى منه الأرض لتنبت زرعها ، يسقى منه الإنسان والحيوان كذلك ، فآله تعالى يقول :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم . »

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . »

« أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم . »  
« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زراعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون . »

ونجد فى الآية الأخيرة من هذه الآيات تقدىما فى الذكر للأنعام على أنفس الآدميين ، تأكيداً لحق الأنعام فى الزرع ، كما نجد فى الآية التى قبلها تسوية بين النوعين فى اعتبار ما تنبته الأرض متاعاً لهما ، إذ تقول : « متاعاً لكم ولأنعامكم . »  
ويقول الله عز وجل فى شأن الماء الذى أنزله :

« وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً . »

فالماء أيضاً شركة بين الناس والأنعام والنبات .

والقرآن الكريم يشير إلى ارتباط العوالم الثلاثة : عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، فيما يتصل بالحجم العددي لأفراد هذه العوالم ، وأنها وجدت على قانون يجعلها متوازنة ، وذلك باستعماله لفظ « ذراً » الذى يدل على الإيجاد بالبث والكررة والتوليد ، لا على مطلق الإيجاد .

فالله تعالى يقول فى شأن الناس : « وهو الذى ذرأكم فى الأرض » .

وفى شأن النبات : « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه » .

وفى شأن النبات والحيوان جميعاً : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » .

وفى شأن الإنسان والأنعام : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذروكم فيه » .

فالقانون الإلهى العام الذى جعل سنة كونية ثابتة لتحقيق النسبة بين الإنسان والنبات والحيوان ، هو قانون « الذرة » أى البث والتكثير والتوالد والتضاعف ، فكلما كثر الناس ، كثر الزرع والنبات ، وكثرت الأنعام .

وكما وصف الله تعالى فى لسان الشرع بوصف « البارى » الدال على مجرد الخلق والإبداع ، وصف بوصف « الذارى » الدال على الإيجاد بسنة التكثير والتضعف والتوليد .

والقرآن الكريم كما يلفت إلى الموارد والثروات الحيوانية فى آيات كثيرة أيضاً ، وأسلوبه هنا هو أسلوبه هناك : لا يكتفى بأن يمر على الأشياء ، مرأ عابراً ، ولكن يقف وقفات يربط فيها بين النعمة والمنعم ، ويهذى الناس إلى الأساس الذى يجب أن يقيموا عليه صروح انتفاعهم واستغلالهم ، وهو أساس الإيمان بالخالق الوهاب ، ومعرفة حقه ، وما أمر به فيما بين أيديهم من هبات .

والثروة الحيوانية التى أنعم الله بها على الناس أصناف :

فمنها ما يراد للانتفاع بلحمه وشحمه ، ومنها ما يراد لبن الذى يدره ، ومنها

ما يراد لأشعاره وأوباره ، ومنها ما يراد لجلوده أو ريشه ، ومنها ما يراد لغرائه أو أنيابه ، ومنها ما يراد للركوب والحمل والجري والحرق ... وهكذا .

وقد ذكر القرآن الكريم ، وبينت السنة هذه الأصناف ، وكان أسلوب القرآن في عرضها أسلوباً رائعاً من شأنه أن يهز النفوس ، ويشير إعجابها وإقرارها بمظمة الله تعالى ، كما يشير انتباهها إلى هذا اللون من الثروات .

يقول الله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ، ومنها ما تكونون ولهم فيها جمال حين تريحون وحين ترحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرموف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » .

وهذه الآيات تقرر في مطلعها حقيقة يريد الله من الإنسان أن يعلمها ، ويجري في حياته على مقتضى عليها ، وهي أن هذه الأنعام مخلوقة للإنسان ، أى أن له أن يملكها ، وأن يستهلكها في مصالحه ، وأن يسخرها كما يشاء ، وذلك قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم » .

ثم تبين الآيات ما تقصد له هذه الأنعام ، فزراها تذكر : الدفاء ، والمنافع ، والأكل ، والتجمل والزينة ، وحمل الأثقال ، وبلوغ الأهداف بعد قطع المسافات الطويلة .

وفي هذا استقصاء شامل لكل ما تراد له الأنعام ، فإذا نظرنا إلى قوله جل شأنه : « فيها دفاء » أمكننا أن نفهم منه هذا الدفاء الذى يحصل لنا بأصواف الغنم ، أو أشعار البقر ، أو أوبار الإبل ، كما قال تعالى في آية أخرى :

« ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » .

ولنا أن نفهم منه ذلك الدفاء الذى يحدثه أكل اللحم ، فإنه مكون من عناصر فيها كثير مما يبعث الحرارة والقوة والقدرة على مكافحة تيارات البرد ونزلاته .

وقوله تعالى : « ومنافع » فيه إجمال تام لكثير مما يراد له مصدر الدفاء ، وهو الجلود والأصواف والأشعار والأوبار ، فليست منافعها أو منافع الحيوان

الذى تصدر عنه قاصرة على التدفئة ، بل هناك عشرات من وجوه الانتفاع يعرفها أهل الصناعات ، ونشهد لها فيما بين أيدينا من أمتعة مستخدمة ، وكلما تقدمت الصنعة ، وقوى الإنسان بالعلم ، ازدادت معرفته بهذه الوجوه ، وظهرت له ألوان المنافع .

ولسنا بصدد تفسير الآيات ، ولكننا نريد فقط أن نوجه الأنظار إلى منافعها من أسرار ترشد إلى الثروة الحيوانية ووجوه تصنيعها والانتفاع بها .

وما أحسن قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير :

« ويخلق ما لا تعلمون » ، فإن فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وأنه إذا كانت هذه الحيوانات يراد بعضها للركوب والزينة والحمل والجر والحرق وغير ذلك ، فإن زمان الآلة سيأتى على الناس ، وسيؤدى كثيراً من وظائف هذه الحيوانات ، وقد حدث ذلك فلم يلبث الناس حتى رأوا « الموتورات » ، تأخذ المكان الأول فى التصنيع والتحرك ، والحمل والجر ، والغوص ، والطيران ، وكل ذلك مندرج تحت قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » ، ولو أن القرآن يوم كان ينزل زاد الناس إفصاحاً ، وصرح بهذا الذى أشار إليه ، فذكر الحديد الطائر ، أو الغائص ، أو المتحرك ، أو المحرك ، لشق ذلك على أذهان الناس يومئذ ، وما قبله ، ولو أنه اكتفى بذكر الأنعام والخيل والبغال والحمير ، ولم يشر إلى ما سوف يكون من آلات ، لكان لنا أن نقول فى عصرنا : أين هذه الحيوانات من الوسائل الآلية التى استحدثها العلم ، وازدهرت بها الصناعة ؟ فسبحان الحكيم العليم .

ويقول الله تعالى فى شأن نوع من أنواع الحيوان سخره للناس :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يمرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

ولا شك أن عالم النحل وما يمتاز به من نظام ، وما يؤديه لبنى الإنسان من خدمات وثمرات هو عالم جدير بالتأمل والاعتبار والاستفادة بما يرشد إليه من



جوانب القدرة في الدقة والمثابرة وقوة الصبر على المتابعة ، فالمناحل ما هي إلا مصانع مدوية تمتلئ بألوان النشاط والسعي والعمل الدائب ، ولكل عامل فيها دوره ، وليس فيها موطن لكسلان أو متخلف أو متعطل .

وما زالت الأبحاث العلمية في الشرق والغرب ، دائبة على محاولة استكشاف ما في عسل النحل من شفاء للناس ، وقد عرفوا بعض الحقائق في ذلك ، وسوف يعلمون أكثر منها « ولتعلن نبأه بعد حين » .

ويقول الله تعالى واصفاً لنوع من أنواع الإنتاج الحيواني وهو اللبن :  
« وأن لكم في الأنعام لعبرة : نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » .

ولا شك أن هذه الآية الكريمة تشير ، بل تصرح ، بوجوب الاعتبار عن طريق التحليل الكيماوى للبن ، وكيف أنه يخرج خالصاً سائغاً للشاربين من بين « الفرث » ، الذى هو الزبل فى الكرش ، والدم الأحمر المعروف ١ .

ويقول الله تعالى ذاكراً الأنعام وما يستند إليها من صناعات :  
« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » .

وأن هذه الآية لتشمل كثيراً من وجوه النشاط الصناعى المتصلة بالجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، فكم قامت على ذلك صناعات ، وأقيمت مصانع ، وعملت أيد ، وفكرت عقول ، وراجت أسواق ، ودرت أرزاق ١ .

ويقول الله تعالى فى لفت الأنظار إلى اختلاف ألوان الدواب والأنعام ، كما تختلف الألوان فى الثمرات ، وفى الجبال ، وفى الناس :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم التي تلفت النظر إلى ما وهب الله الإنسان من ثروات حيوانية سخرها له ، ومكنه منها ، وحشه على الانتفاع بها ، وهبها لتحويل منتجاتها بالصناعة إلى ملابس وأثاث وزينة ووقاية وبيوت مستخفة في السفر والإقامة ، وغير ذلك من وجوه التصنيع والانتفاع .

\*\*\*

وقد أباح الله أنواعاً من الحيوان فأذن بأكملها والانتفاع بلحمها وشحمها وجلودها وسائر أعضائها ومستخرجاتها فيما وراء الأكل ، وحرم أنواعاً أخرى ، فلم يبيح أكلها لما فيها من مضرة عليها ، كتحريمه - على لسان رسوله - كل ذى مخلب من الطير ، وكل ذى ناب من السباع ، وكتحريمه في القرآن الكريم أكل لحم الخنزير وأباح الانتفاع ببعض أشياء من تلك المحرمات في غير الأكل ، كالفرأ ، أى جلد الثور أو السبع أو نحوهما ، فإنه داخل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أيما أهاب - أى جلد - دبغ فقد طهر » وكذلك ورد تحليل الانتفاع بناب الفيل ، ومن الفقهاء من يجعل الفيل نفسه مباح الأكل .

وإذن فالمدى واسع أمام الإنسان ، للانتفاع بسائر أنواع الحيوان ، وليس الشريعة ما يحول بين الإنسان وهذا الانتفاع المباح .

وقد سفه الله أحلام قوم حرموا ما لم يحرمه الله من الأنعام افتراء عليه فقال : « ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

« قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

# تعريف بالقرآن

المهرموم الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بري

— ٢ —

الباب الثاني : جمع النص الموحى :

يقدم إلينا القرآن الآن في سفر واحد يتألف في شكله الأكثر دوراناً من نحو ٥٥٠ صفحة ، وفي كل منها خمسة عشر سطراً ، وينقسم إلى ١١٤ سورة - أو بابا - تختلف طولاً بعد الفاتحة المؤلفة من خمسة أسطر صغيرة - تأتي السور مرتبة عموماً بحسب طولها النسبي الأطول أولاً ، فالمتوسطة في الوسط ، فالأقصر - بعضها من سطر واحد - في الآخر . ويجد المطالع ما يرشده من العلامات الصوتية والوقفية والإملائية ، وعلامات الترقيم وكل ما يرشده نطقاً ووقفاً .

ولم يكن القرآن كذلك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان النص قد بقي تماماً كما أملاه فإن المظهر قد تغير كثيراً .. أولاً لم يكن حين ذاك ما يسمى مجلداً أو سفرأ ، كما أمكن أن نشهد في الأمثلة المذكورة آنفاً ، فلقد ظهر القرآن نجوماً تطول وتقصّر ، وتختلف من سورة قامة إلى آية بل أحياناً بعض آية ، فكل قطعة يوحى بها إلى النبي يتلوها ، ويحفظها سامعوها ، ويذيعونها بين الذين لم يسمعوها مباشرة من فم ، فكل ينتظر الوحي في حرارة ويود أن يتلقاه بقدر ما يتنزل ، وأعداء النبي أنفسهم بعيدون عن أن يكونوا غير مكترئين لقرآنه ، بل هم يحاولون في الغالب أن يستمعوا إلى تلاوته ، إما ليجدوا نقطة ضعف تنفع في المناقشة أو المهاجمة ، وإما ليشبعوا حاجتهم العاطفية الملحة إلى الأدب . تصور إذن مقدار

الرغبة التي يوحيا إلى أنصاره .. أولئك الذين صار القرآن غذاءهم الروحي وقاعدتهم السلوكية ، ونص صلاتهم ، وأداة دعائهم ، إنه أنشودتهم وتاريخهم .. إنه قانونهم الأساسي ، بل المجموعة القانونية لكل ملابسات الحياة .

ولكن النص المقدس ليس قرآناً فحسب أو مجموع ما يتلى شفاها بقصد حفظه عن طريق الذاكرة وحدها ، بل هو أيضاً كتاب ، فهما مظهران متعاونان مترابطان أبداً على التبادل ، لذلك فكل قطعة يوحى بها إلى النبي ويتلوها تعيد كتابة على شيء في متناول الكاتب : ورق وألواح وقطع جلد مدبوغ أو غير مدبوغ وحجارة مسطحة ... الخ ، وأوثق العلماء يرفع عدد كتاب الوحي إلى تسعة وعشرين ، هم الذين كان يملئ عليهم النبي ، والأعراف منهم الخلفاء الخمسة : الأول : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، ثم الزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعمر بن العاص وأنس بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ولكن معاوية وزيد بن ثابت كانا مخصصين لهذا العمل أكثر من غيرهما .

وإذا لم يكن عدد الكتاب بمكة كثيراً ، ولم يكن لهم طابع رسمي ، فإن المؤمنين من البداية ما كانوا ليقصروا حتى في أخرج أيام الاضطهاد عن كتابة الوحي في صحف شخصية لاستعمالهم الخاص ، وإن الآثار لتحدثنا أن عمر يدين بإيمانه لتلاوة ورقة وجدها عند أخته محتوية أوائل آيات السورة العشرين ، على أن تلك الوثائق في شكلها المكتوب هذا لم تكن في أوليتها مجموعة مرتبة منسقة مرقومة . ولم يكن عند النبي أية قطعة مكتوبة ، كذلك لم يكن عند الأفراد في ذلك العهد أية نسخة كاملة .. بل كانت النصوص هكذا مشتقة بين المؤمنين ، ولم يكن في الإمكان أن تأخذ صورتها النهائية في الذاكرة العامة إلا قرب نهاية حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان لوحظ منذ وقت مبكر أن تلك المنزلقات منجمات ما كانت لتصير إلى أن تبقى هكذا متفرقات كلها ، ولا أن تتعاقب بحسب تاريخ نزولها ، لقد روى أن مجموعات كثيرة من الآيات آخذة في التكامل مفترقة بعضها عن بعض لتكوّن شيئاً فشيئاً وحدات مستقلة بإضافة الآيات الأخر التي تأتي فيما بعد لتلحق بها ، فكان يجب أن

هذه الآية مثلاً تضاف هنا وتلك هناك فيما بين أولئك، حسب بيان الرسول الصريح، مؤكداً أن هذا البيان نفسه موحى به كما أمر أمين السماء، وكما يترك الباب مفتوحاً لهذا البناء المطرد التقدم كان لازماً أن ينتظر تمام الكتاب قبل أن يوضع في جسم واحد... على أن التتابع المستمر للآيات إذا لم يأخذ الشكل المكتوب منذ البداية، فلقد كان على العكس من حيث التلاوة، وفي كل مراحل نزل الوحي معروفاً أن كل فقرة لها موضعها المحدود: سورة كذا<sup>(١)</sup>، كذلك كان الأمر في الصلاة والتعليم والموعظة والتلاوات الأخرى، وكذلك وجد في حياة الرسول مئات من الصحابة سموا بحملة القرآن، إذ اختصوا بتلاوة الكتاب، فحفظوا عن ظهر قلب كل سورة في صورتها للمبينة مؤقتاً أو نهائياً، فزى ابن مسعود مثلاً يفخر بأنه أخذ أكثر من سبعين سورة من فم النبي الذي يؤكد لنا من ناحيته أنه في شهر رمضان من كل سنة كان يراجع القرآن مراجعة عامة بتلاوة الآيات التي تنزلت في حضرة جبريل الذي راجعه معه مرتين في السنة الأخيرة، فكان ذلك إيذاناً بدنو ساعته صلى الله عليه وسلم، وما أن ينقضى عام على وفاته عليه الصلاة والسلام حتى تمس الحاجة إلى جمع تلك الوثائق المبعثرة في مجموعة يسهل استعمالها والرجوع إليها، ويتابع فيها أجزاء كل سورة حسب النظام الذي تحدد واستقر في الذواكر دون أن ينقطع استمراره، أوحى بالفكرة عمر بن الخطاب للخليفة الأول بعد وقعة اليرموك مع وسيلة الكذاب التي استشهد فيها مئات من الصحابة، منهم سبعون من حملة القرآن، فقد خشى أن يعطى نقص عدد الحفاظ من جراء الحروب المحتملة... لأنها لو سيلة لم يرد بها حفظ تلك الوثيقة كاملة بحيث يتيسر الرجوع إليها عند الحاجة فحسب، بل أراد أيضاً إعطاءها الصورة الرسمية الواحدة بتأييد أولئك القراء الأحياء هم، وجمع أصحاب الرسول الذين يحفظ كل منهم جزءاً من القرآن قل أو كبير.

(١) ربما باستثناء الآية الأخيرة من السورة الرابعة التي نزل بها الوحي قبيل وفاة النبي، فلم يسمح الوقت للصحابة بأن يستفسروا عن الموضع الذي يجب أن توضع فيه، فأضيفت إلى هذه السورة لوحدة الموضوع الذي تعالجه.

عهد بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت الذى أحس ثقل التبعة التى يفرضها مثل هذا العمل فتردد ، ولكن أبابكر يلح عليه : « إنك لرجل ذكى ، وليس عندنا أدنى شك فى نزاهتك ، ولقد كنت تكتب الوحي عند إمامه النبي ، فلتضطلع إذن بععب جمع القرآن » (١) .

وتم سبب آخر يبدو أنه كان ذا أثر فى هذا الاختيار ، ذلك أن زيدا لم يكن من حملة القرآن وكتاب الوحي فحسب ، ولكن من ناحية أخرى حضر تلاوة النبي الأخيرة للقرآن (٢) .

وزيادة على كل ضمانات الصحة تلك وضع للعمل قاعدة روعى أن تطبق تطبيقاً دقيقاً : ذلك أنه لا يقبل أى مكتوب لم يشهد اثنان بأنه حرر لا من الذاكرة ، بل بإملاء النبي نفسه ، وأنه أحد أجزاء للنص فى وضعه الأخير ، يقول لنا الليث ابن سعد إن طلب الشاهدين كان من نتائج استبعاد نص عن رجم الزانى ، لأن عمر كان وحده شاهده ، ولما أتم زيد العمل بكل تلك الاحتياطات وضعه بين يدى أبى بكر الذى حفظه مدة خلافته ، وعهد به قبل موته إلى عمر بن الخطاب المعبود إليه بالخلافة ، والذى استحفظ عليه فى اللحظات الأخيرة بفته خصة إحدى أمهات المؤمنين ، لأن الخليفة لما يكن اختيار بعد .

هذا المجموع الأول الذى يمكن أن تتمثله ملفاً يضم صفحا مرتبة ، إلا أنها غير متصلة زيادة على كاله يفترق عن النسخ الأخرى التى كانت لدى الآخرين كاملة أو جزئية بالدقة الشديدة الموفية التى تجنبنا كل ما ليس جزءا من النص نفسه المتلو فى آخر صورته ، فالواقع أن مثل ابن مسعود أو أبى بن كعب إذ يكتبون من الذاكرة كانوا يعيدون صورة قراءة ربما كانت ترتبط بتاريخ سابق ، أو يستبيحون أن يكتبوا على الحاشية أو بين السطور فى نسخهم الخاصة ، وفى الغالب بلون مختلف

(١) يكتب « ليلوا » ذكرنا هذه الوثيقة : « من ذا الذى لا ينسى لو أنه بعد موت المسيح كلف أحد تلاميذه المباشرين أن يعطى تعليماته الصورة المكتوبة » القرآن والثوراة العبرية ليلوا من ٤٧ حاشية ٥ .

(٢) انظر السيوطى فى الإثنان جزء ١ ص ٥٨ .

مذكرات تفسيرية صغيرة <sup>(١)</sup> ، أو د صيغ دعوات ، خارج النص <sup>(٢)</sup> ، في حين أن المجموع الرسمي صاف خال حتى من عناوين الأبواب أو السور ، ولكن مهما تعظم قيمة تلك الوثيقة ، ومهما يستحق الجهد الذي بذل في سبيلها من ثناء ، فإنها بوصف كونها محافظاً عليها في أمانة عند الخليفين يكون لها صفة الشيء الخاص إلى حد صغير أو كبير ، وهي في الواقع لم تكتسب صفة الصحة العامة إلا منذ تاريخ نشرها ، ومناسبة هذا النشر لم تعرض إلا في خلافة عثمان بن عفان الخليفة الثالث بعد مواقع أرمينية وأذربيجان ، فإن جيوش سورية والعراق تجمعت لهذه المناسبة ، ف لوحظ اختلاف في التلاوة بين الفريقين ، فالسوريون يتلون بقراءة مواطنهم « أبي » ، والعراقيون بقراءة مواطنهم « ابن مسعود » ، قال أحد الفريقين للآخر : إن قراءتنا خير من قراءتكم ، ويجزع لهذا المشهد حذيفة بن اليمان ، ويذهب إلى الخليفة فارغاً إليه أن يجعل بوضع حد لهذه المنافسة التي عساها أن تؤدي إلى فرقة كتلك التي حدثت بين اليهود وبين النصارى في موضوع « الكتاب المقدس » ، ويكون عثمان حينئذ لجنة من أربعة كتاب : زيد نفسه من المدينة ، وثلاثة من مكة : عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام ، ويطلب إليهم أن ينسخوا من الأصل الذي عند حفصة نسخاً <sup>(٣)</sup> بقدر ما يوجد من المدن الرئيسية في العالم

(١) مثلاً يوجد في مجموع ابن مسعود بجوار عبارة والصلاة للوسطى هذا العرح : وهي صلاة العصر ، أفهذا التحديد صحيح في ذاته ؟ لا نريد أن ندخل في هذه المناقشة التي أحتدمت بين أصحاب الرسول أنفسهم ، ولكن حتى لو سلمنا مع البراء أن هذا التعريف كان موجوداً في الأصل بدل المعروف ، ثم ألقى وحل محله فإنه لم يصحبه قط في النص المنلو بدليل تلك المناقشة نفسها في المعروف ، فإن الأنباري يذكر أنه في أثناء الإحصاء الأول طلبت حفصة أن تضاف تلك العبارة المفسرة إلى النص ، ولكن بالنظر إلى أنها لم تقدم أي دليل على الصحة عارض عمر في ذلك معارضة حاسمة « انظر السيوطي في الدر المنثور ج ١ ص ٣٠٣ » .

(٢) كذلك نجد في نسخة أبي زيادة على السور الدعاءين المشهورين المسميين قنوتاً .

(٣) هذا النسخة الشخصية لثمان يتفق أصحاب الحديث على أن خمس نسخ وجهت إلى مدن مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق ، إلا أن أبا حاتم يذكر نسختين أخريين : إحداهما ليعين ، والأخرى للبحرين .

الإسلامي ، ثم يحدد لهم : إذا اختلفتم في إملأ كلمة <sup>(١)</sup> فاكتبوها بلهجة قريش التي نزل بها القرآن أول ما نزل ، ويتم العمل تماماً على الأصل الذي يعاد لفحصة ، وتجمع تلك المصاحف متصلة الصحف وتوزع على الأمصار بوصفها أئمة أو مثلاً ثابتة يعد كل ما عداها باطلا ما دام يخالفها في شيء .

بعض الشيعة استطاع أن يستريب في أن عثمان انتقص بعض نص الكتاب ، أو بمباراة أصح أهل شيئاً ما يمكن أن يتعلق بعلي ، ولو كان ذلك صحيحاً فإن حلة القرآن وكانوا جد كثيرين حين ذلك النشر ما كانوا ليقصروا في تصحيحه وفق ما يحفظون عن ظهر قلب ، ولكن ابن مسعود الذي كان عنده أكثر من سبب يحمله على عدم الرضا بالسياسة حينئذ لم يسمعه إلا الاعتراف بدقة العمل ، بل لقد تنبأ أنه في زمن لاحق سيتوافر القراء ، ويقل العلماء ، وأن حرف القرآن سيحترم ولكن تطبيق أو امره سيهمل <sup>(٢)</sup> ، وإذا أدخلنا في حسابنا أن غير المسلمين الأولين على كتاب الله كانت أشد مما كانت لدى من جاء بعدهم ، فإننا نجد من المستحيل أن يكون روح التوفيق هو الذي جعلهم يقبلون صحف عثمان دون معارضة ، بل أن نولدكه ، يستنتج أنه يجب أن نرى في ذلك أحسن دليل على أن النص جاء تاماً صادقا على قدر ما كان يجب أن ينتظر .

مهما يكن الأمر فإن تلك النسخة هي المعمول بها منذ ثلاثة عشر قرناً في العالم الإسلامي كله ، بما فيه الشيعة ، ولنستمع في هذا إلى رأى الشيعة الإمامية « أهم طوائف الشيعة » كما ورد في كتاب أبي جعفر القمي « عقيدتنا فيما يتعلق بكم القرآن الذي أوحى به الله جل جلاله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله أنه هو المحفوظ الآن بين الدفتين ليقراء الناس لا أكثر ، وعدد السور فيما تعرف عامة المسلمين ١١٤ ، أما نحن فنرى أن السورتين ٩٣ و ٩٤ تكونان سورة واحدة ، وكذلك السورتان ١٠٥ و ١٠٦ ، والسورتان ٨ و ٩ ، والذي ينسب إلينا عقيدة أن القرآن أكثر من هذا إنما هو كاذب .

(١) وكذلك كلمة تابوت التي تكتب بلغة المدينة « تابوه » احتفظت بالشكل المسك .

(٢) مالك : كتاب جامع الصلاة .



ومن أجل هذا استطاع ليلوا أن يؤكد : أن القرآن هو وحده الآن الكتاب المقدس الذى لا يوجد فيه خلافاً تذكر<sup>(١)</sup> ، ولقد أعلن هذا قبل د موير ، لقد وصلت مجموعة عثمان إلى أيدينا دون أن يعثورها أى نقص ، ولقد حفظت بأمانة لدرجه أنه لا اختلاف يذكر ، بل يمكن القول لا اختلاف إطلاقاً فى نسخ القرآن التى لا تحصى ، والتى تتداول فى العالم الإسلامى المتسع . . فليس ثم إلا مصحف واحد لكل تلك الفرق المتناحرة ، وهذا الإجماع على قراءة نسخة موحدة الذى قبله الجميع حتى أيامنا هذه لدليل من الأدلة التى لا يمكن نقضها على صحة النص الذى نملكه الآن ، والذى يرجع إلى عهد الخليفة المنكوب د مات عثمان مقتولاً . .

على أن هذه الأحكام مع عدم تحيزها التاريخى المسلم تتطلب تصحيحاً مزدوجاً ففى إفراط وتفریط . فأما التفریط أو التقصير فى أنها تنتهى من حيث المصدر إلى عهد عثمان ، فى حين أنه لم يزد على نشر النسخة التى جمعت على عهد أبى بكر . ولقد رأينا كذلك أن ذلك الجمع كان نسخاً كاملاً للقرآن بترتيب التلاوة ، هذا الترتيب الذى لا يجوز أن يختلط بترتيب الوحى كما أملاه النبى نفسه .

(١) تولدكة جوشقست دى كوران : الجزء الثانى ص ٩٣ ، انظر ميرز الكسندر كاظم الجريدة الأسبوعية سنة ١٨٤٣ ، الخلاف الوحيد إذن فى طريقة تقسيم القرآن إلى سور وعددها بل إن هذا الخلاف نفسه ليس إلا نظرياً بين العلماء ، ولا أثر له عملاً فى نسخ المصنف التى لا تختلف عن نسخ السنين ، وإذا وجد بعض الموالى المتعصبين الذين يكرون كلمات أهلها عثمان فإنهم لا يستطيعون إدخالها فى مصاحفهم ، فالإمام الصرعى لم يجزها ، وكذلك الأمر ، ومن باب أولى بالنسبة إلى القطعة التى لا يدرك من تاريخها « سورة النورين » التى نعرها « جارسان ويتاس » بنون : باب غير معروف من القرآن ، واتى آثار ميرز الكسندر قضيتها فبين ذلك للعالم لا أن هذه السورة المزعومة لا توجد فى مصاحف الشيعة فحسب ، بل إنه لا ذكر لها فى مؤلفات المناقشات السلفية ، والتعبير نفسه « النوران » مطبقاً على عهد ، وعلى لم يظهر عند الشيعة إلا فى القرن السابع الهجرى بعد الطومى ، وبكى قراءة القطعة التى لا تمدو أن تكون شرعاً عادياً للكلمات وعبارات مختلفة من القرآن لتبين التضاد الذى يعدم بينهما وبين تناسق الأسلوب القرآنى ورشاقته . انظر أيضاً تولدكة : ج ٢ ص ١٠٧ - ١١٢ .

ولكن لم إفراطاً أيضاً ، إذ يؤكد أن تلك النسخ على الرغم من إيجادها من حيث الشكل الإملائي - لا تحتل أى اختلاف فى النطق ، وإن كل من له أدنى لملم بالكتابة العربية يعرف ذلك ، فمن ناحية إذا كانت الحروف المتحركة الطويلة تظهر فى رسم الكلمات العربية ، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الحروف المتحركة المتوسطة ولا القصيرة ، ومن ناحية أخرى نجد كثيراً من مجموعات الحروف لا تتشابه بحسب بل تتحد ، فلا تتميز إلا بنقط تسمى نقط الإجماع ، فإياه مثلاً يمكن أن يقرأ نونا أو تاء أو باء أو ياء حسب نطقها واحدة أو اثنين فوق أو تحت ، وما كانت النقط مستعملة لا فى عهد الرسول ولا فى عهد الخلفاء الأربعة بعده . . وإذا كان الذوق السليم يكفى أحياناً لإحساس النطق الصحيح ، فهو فى الغالب يقتضى توجيهاً شفوياً .

والسنة تدلنا على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقتصر دائماً على نطق واحد ، ولكن فى الكلمة الواحدة ، أى بعبارة أخرى فى المقطع الأساسى لم يكن نادراً أن يختار نطقين كلاماً حسن ومبين ، فكذلك كلمة « ملك » ، يمكن أن تقرأ مالك ، أى صاحب ملك وملك ، أى صاحب رعية ، وأيضاً « فتنبتوا » ، يمكن أن تقرأ تبنوا من « التبين » أو فتنبتوا من « التنبيت » ، وكلاهما قراءة مأثورة ، وما دام السامعون لم يكونوا دائماً فئة واحدة بالضرورة ، فلقد ترمب على ذلك أن نشأ عند الصحابة منذ الزمن الأول طرق مختلفة للتلاوة ، وصاحب كل طريقة يجهل الآخر فى الغالب ، والبخارى يذكر أن عمر غضب يوماً غضباً شديداً على هشام بن هاشم ابن حزام ، إذ سمعه يتلو السورة ٢٥ تلاوة تختلف عن التى يروىها هو عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبصعوبة استطاع أن يكتم غيظه حتى يتم الرجل صلاته ، وما أن أتمها حتى لبيه وسأله : من أين له تلك التلاوة فأجاب : من فم النبي - أنت تكذب لأن النبي علمها بطريقة أخرى ، وقاده إلى الرسول الذى طالب إلى هشام أن يقرأ وبعد الموافقة على قراءته قائلاً أن السورة هكذا نزلت ، فعل الشيء نفسه مع عمر مضيفاً أن القرآن نزل فى الحقيقة على سبعة أحرف ، فليتله كل بالطريقة التى تتيسر له ، والطبرى يحدثنا أن أبى بن كعب صدمه أيضاً اختلاف فى تلاوة السورة ١٦ ، وأنه احتكم إلى النبي فأجاز القراءتين ، أفيكون عثمان إذن أكثر تشدداً من سيده

ويمنع تلاوة أجازها ؟ كلا فيما يبدو لنا ، ولم يكن من هم عثمان كما ظن في الغالب صور النطق المختلفة ، فنسخته كغيرها من النسخ السابقة لا تتألف من هياكل الألفاظ الصالحة لكل القراءات لحسب ، بل كان من همه الذائب الإبقاء على تلك التلاوات السلفية المختلفة ما دام رسم اللفظ يحتمل أكثر من تلاوة ، وكذلك نرى كلمة مسيطر مكتوبة بسين فوقها ص أو بصاد فوقها سين ، وكذلك نجد في إحدى تلك النسخ الأئمة « سارعوا ، وفي أخرى « وسارعوا ، وأيضا « بما تشتهي ، أو « بما تشتهيه ، « سيقولون الله ، أو « سيقولون لله ، في رأينا أن نشر عثمان النص القرآني إنما كان يرى إلى غرض مزدوج :

(١) فهو - إذ يصحح ويحصى التلاوات المختلفة التي كانت باقية في إطار النص المكتوب ، والتي كانت ذات نسبة نبوية تعترف بها الأمة - يمنع المناقشات غير التقية لمناسبتها ، كأن يقال مثلا : أن هذه التلاوة خير من تلك ، فهو يبين أن مثل هذا القول تقريبا عدم إيمان .

(٢) وهو - إذ ينفي كل ما لا يتفق اتفاقا تاما مع الأصل - إنما ينفي أن تتفرق كلمة المسلمين تفرقا خطرا ، كما يتق احتمال أن يشاب النص مع طول الزمن بما يدخله من تلاوة قل فيها النزاع أو أكثر ، أو شروح يدخلها الأفراد بحسن نية في نسخهم .

كذلك لا يجوز الاعتقاد أن النسخة العثمانية - والنسخ التي أخذت منها - تتضمن كل التلاوات التي أجازها الرسول على الراجح بوصف كونها من الأحرف السبعة - أو طرائق التلاوة السبع - لأنه إذا كانت قد حفظت التلاوات التي اتفقت عليها الشهادات أنها أضيفت إلى النص في صورته النهائية ، فهي على العكس قد أقصت كل صورة نقلت عن الطريق الشخصي ولم تتوافر لها تلك الضمانة ، هذا الأصل الأساسي اتفق عليه منذ البداية رأى آلاف الصحابة الحاضرين<sup>(١)</sup> ، ولنصف أن إقصاء ما أقصى من التلاوات لم يكن القصد منه ، ولم تكن نتيجته إلغاء تلك

التلاوات عملاً ، بل إن وضع الأمور في نصابها يقتضى أن نقول إن القاعدة تركت الذين يؤكدون أنهم سمعوا النبي يتلو النص بطريقة ما أحراراً في تلاوتهم الماضية ، وتحت مسئوليتهم الأدبية دون أن يكون لذلك حجة عند سائر الأمة ، هذا الوضع المعقول المشروع يؤكد لنا أولاً إجابة عثمان نفسه ، إذ تحدث إلى الثائرين السياسيين « أما عن القرآن فإنى لم أمنعكم إلا خشية تفرق الكلمة ، ولكنكم تستطيعون أن تتلوا بالحرف الذى تريدون <sup>(١)</sup> » ، ثم فتوى الإمام مالك حيث أجاز تلاوة « فامضوا ، حسب تلاوة عمر بديل فاسموا ، آية ٩ سورة ٦٢ .

إلا في الصلاة المكتوبة كما يحدد ابن عبد البر ، لأن التلاوات غير العثمانية ليست قرآناً محققاً بما فيه الكفاية لأداء هذا الواجب <sup>(٢)</sup> ، ففيما عدا التلاوة الرسمية والإلحاق بالمجموع الرسمى كذلك ، تظل التلاوة من الوجهة العملية حرة تمام الحرية ، ولقد كان التفسير الإسلامى فى كل زمان ما ينفك عن تلك التلاوات الماضية « ولكن الدكتور « أوتير جيفرى » كتاب المصاحف لم يكن صائب النظرة فى تلك المسألة المزدوجة .

(١) ابن أبى داود : كتاب المصاحف ص ٣٦ -

(٢) الزنجاني : ص ١٦ .

# منهج الإسلام

## في إصلاح عقائد الألوهية والربوبية

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بسى سويلم ط  
من كبار علماء الأزهر

- ١ -

كانت الأمم قبل ظهور دعوة الإسلام قد ضلّت في عقائدها ضلالاً بعيداً ، ولم يكن هذا الضلال قاصراً على الأمم التي استحوزت عليها الوثنية بأوهامها وخرافاتهما ، بل طغى أيضاً على الأمم التي كانت على صلة برسالات الله تعالى وشرائعه ، فقد امتدت أيدي قادتها الدينيين إلى كتب أنبيائهم ورسلمهم ، فحرفوا فيها وبدلوا بجملهم وسوء طويّاتهم ، وافتروا على الله الكذب في صفاته وأفعاله وشرائعه ، وشوهوا بذلك توحيد أنبيائهم وشرائع رسلمهم ، وبقي هذا الضلال شائعاً في عقائدهم وتديّنهم ، حتى جاء الإسلام في جلال الحق وجمال الصدق ، فحرف العقول من أباطيل الوثنية وخرافاتهما ، وأصلح ماضل من العقائد وما فسد من الأعمال ، وكشف عن جنائيات المحرفين والمبدلين ، وأعاد توحيد الأنبياء إلى أصوله الخالصة من شوائب التضييل والتلبيس ، وأرشد الضالين والمنحرفين إلى ينابيعه العذبة الصافية ، ورد العقول الضالة إلى رشدها ، وأرجع النفوس الشاردة إلى ربها ، ولم يدع في ذلك حجةً لمحتج ، ولا مغذرة لمعتذر .

وكان إصلاح عقائد الألوهية والربوبية أول ما عني به الإسلام في تصحيح هذه الأوضاع الفاسدة ، لأن إصلاحها هو أساس الدين في كل تشريع سماوى ، والمقصود الأول من مقاصد الإصلاح الدينى .

وقد عني القرآن الكريم بتقرير عقائد الألوهية والربوبية عناية كبرى ، وجلّالها للعقول في أساليب جمعت بين التأثير القلبي والإقناع العقلى ، وذلك بما أودع الله فيها من الروعة البلاغية ، والقوة الروحية القدسية ، وما اشتملت عليه

من قضايا العقل والعلم ، وودائع الفطرة والوجدان ، والإبداع في تجلية الحقائق وتصوير المعاني ، والإحكام في تصريف فنون القول وضروب البيان ، ووجوه الحجاج والإقناع والإلزام .

كما يتجلى ذلك فيما نذكره من أنواع الأساليب الآتية :

١. النوع الأول ، الأساليب التي توجه العقول إلى مسارح النظر في عوالم السموات والأرض ، وما فيها من الآيات الكونية والدلائل العلمية على وجود الله الذي خلقها بعد أن لم تكن ، إذ كان سبحانه في الأزل موجوداً ولا موجود معه ، فأحدث العوالم الكونية لإظهاراً لقدرته وحكمته ، وتعريفاً بوجوده وجلاله وعظمته وإعلاماً بسلطانه وقهره وهيئته ، كما في قوله تعالى في سورة ق : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وفي سورة آل عمران : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب ، وفي سورة الذاريات : « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون . »

بهذه الآيات القرآنية وغيرها من مئات الآيات ، خاطب القرآن العقول والأفهام ، وأيقظ الحواس والمشاعر ، وعرض عليها بدائع المخلوقات ، وعجائب الكائنات ، وروائع النظم الكونية ، وجلال السنن الإلهية ، لتتخذ منها كتاب نظر وعلم وهداية ، تقرأ في صحائف دلائل وجود الله جل جلاله ، وتطالع في سطورهِ سلفته تعالى في الخلق والتدبير ، وتشاهد في كتاباته جماله الذي ظهر في بدائع الموجودات ، وترى في أحرفه جلاله الذي تجلّى في روعة الكائنات .

فالعوالم الكونية هي مسارح العقول والأفهام ، ورياض الأحاسيس والمشاعر ، وتبصرة القلوب النقية والبصائر النيرة ، والنظر فيها هو أقرب طريق إلى معرفة جلال خالقها وعظمة مبدعها .

فاذا نظر الإنسان إلى نفسه وهي أقرب مجال إلى فكره ، وفكر فيما أجراه الله عليه وهو في بطن أمه من أطوار الخلق والتكوين ، وكيف جعله الله نطفة

في قرار مكين ، ثم جعل النطفة علقة ، ثم جعل العلقة مضغة ، ثم جعل المضغة عظاماً وعصباً ولحماً ، ثم أنشأ بشراً سوياً كامل البنية والحواس ، معتدل الخلقة بديع التركيب والصورة ، وجعله إنساناً ناطقاً مفكراً ، يزداد على الأيام قوة ونماء ، وعلى السن عقلاً وتفكيراً ، وفيما أجراه عليه في نشأته وحياته من أطوار الطفولة والشبيبة ، والكهولة والشيخوخة ، ثم هو في جميع هذه الأطوار مشمول بالعناية الإلهية ، والرعاية الربانية .

أو نظر إلى الأرض كيف جعلها الله فراشاً ومهاداً ، وجر فيها العيون وأجرى الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والنخيل والأشجار ، وكيف جعلها مختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها ، وفي عناصرها وثمارها وطعومها ، مع أن الكل يثبت في بقاع متلاصقة ، ويسقى بماء واحد ، وينمو في جو واحد ، كما قال تعالى في سورة الرعد : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وكيف جعل فيها جبلاً ثوابت من فوقها ، لتحفظ توازن الأرض وتمنعها من الميئدان والاضطراب ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وأرزاقها ، ووضع لعوامها ميزانية مقدره بتقدير معلوم ، كما قال تعالى في سورة فصلت : « قل أنتمكم لتفكرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ... » وفي سورة هود : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين ، وفي سورة الحجر : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

أو نظر إلى السماء كيف أحكم الله بناءها ، ورفعها بغير عمد نراها ، وإلى الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، وإلى الكواكب في تألقها وإشراقها ، وهي تسبح في أفلاكها ومداراتها « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ، ٣٦ : ٤٠ ، وتسبح

بحمد خالقها ومبدعها ، كما قال جل جلاله في سورة الإسراء : « تسبح له السموات والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً . »

أو تدبر قول الله عز وجل في سورة الواقعة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم ، وفي سورة الحاقة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وأدرك ما في هذا القسم الإلهي من توجيه للنظر ، وإيقاظ للفكر ، وإثارة للعبر ، وتنويه بشأن هذه المواقع التي أقسم الله بها ، وما فيها من الدلائل على عظمة المبدع وجلال الخالق ، وأخذ يفكر في عظم هذه المواقع التي أعظم الله شأن القسم بها ، ويسائل نفسه عن مدى هذه العوالم التي لا تبصرها ولا نعلمها ، وعرف أن منها ما يحيط بنا ويشاركنا في وجودنا وحياتنا ، ولكنها لا تزال محجوبة عن العلم على رغم اتساعه وتقدمه ، ومنها ما يغيب عنا وراء حجب الغيب وأبعاد الفضاء ، فلا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بعظمها العقول والأفهام ، إذ لا يحيط بالعوالم الكونية إلا الذي خلقها وأبدعها . »

إذا هدى الإنسان إلى كل هذه الأنظار أو إلى بعضها ، فإنه يجد نفسه مذساقة بدافع قوى من عقله وفكره ، وجاذب شديد من ضميره ووجدانه ، إلى الإيمان بوجود الصانع المقتدر الذي خلق هذه العوالم الكونية بقدرته ومشيئته ، العليم الخبير الذي أحكم تقديرها وتنظيمها بعلمه وإرادته ، المدبر الحكيم الذي يدبر أمورها ويصرف شئونها بحكمته ورعايته ، لأنه إذا كانت مصنوعاتنا لا يمكن بالبداهة أن تخرج إلى عالم الوجود متماسكة الأجزاء والحلقات ، بديعة الإتيان والإحكام ، جامعة لعناصر الوجود ووسائل البقاء ، مستكملة لجوانب الوفاء بالمقاصد التي صنعت لأجلها ، إلا إذا كانت صادرة عن صانع ماهر صنعها وأحسن صنعها ، ومنظم خبير نظمها وأحكم تنظيمها ، فإنه لا يمكن بالبداهة أن يوجد هذا الكون العظيم على هذا النظام البديع المحكم ، وأن يبقى سائراً في وجوده على هذا النظام والإحكام ، إلا إذا كان صادراً عن صانع قدير صنعه بقدرته ومشيئته ، وأحكم تقديره وتنظيمه بعلمه وإرادته ، ومدبر حكيم يدبر أموره ويصرف شئونه بحكمته ورعايته .



وإذا كانت سفينة المحيط المحدود في أبعاده ونهاياته ، لا يمكن أن تسير فيه سيراً منتظماً بغير ربان ماهر يسيرها ، ويرعى سيرها ويوجهها إلى الغاية التي رسمت لسيورها فإنه لا يمكن بالبداية أن تسير سفينة الكون كله في هذا المحيط الذي لا تعرف له حدود ولا نهايات ، بغير رب قادر يسيرها ويدبر أمورها ويصرف شئونها ، ويرعاها في سيرها بالعين الساهرة حتى تبلغ بموالمها الغاية التي خلقت لأجلها .

فطريق الوصول إلى معرفة الله والإيمان به واضح المعالم قريب المنال ، متى صلت القلوب واستنارت البصائر ، وتحررت النفوس من ظلمة الجهل وطغيان الهوى ، واستقامت العقول في نظرها وتفكيرها واتجهت بمقاصدها إلى طلب الحق والكمال وصحة الاعتقاد ، وخضعت في أحكامها لدلالة الحجة والبرهان ، واستجابت في تفكيرها لوحى الفطرة والوجدان ، فإن وجود الله تعالى ماثل أمام العقول في جميع الكائنات ، والإحساس بألوهيته وربوبيته كامن في أعماق النفوس ، والشعور بعظمته وجلاله منبث في حنايا الضلوع ، ولكن أكثر الناس ضلوا عن هذه الحقائق وهي على كثر منهم .

فريق حجه إلف العادة أو ظلمة الجهل والتقليد الأعمى عن الاستماع لوحى الفطرة والوجدان ، والنظر في آيات الله الكونية التي تحيط بهم وهم عنها غافلون ، وتطالبهم بدلائلها في كل لحظة وهم عنها معرضون ، كما قال تعالى في سورة يونس : « وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » ، وفي سورة يوسف : « وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون » .

وفريق حجه عن هذه الحقائق مرض القلوب ، واعتلال البصائر ، وانحراف العقول في نظرها وتفكيرها ، والخضوع لسيطرة الأهواء وطغيانها ، والإقبال على شئون الدنيا ، والإعراض عن شئون الآخرة ، وفرحوا بالحياة الدنيا ، وكفروا بآيات ربهم ولقائه ، وضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى في سورة الرعد : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » ، وفي سورة الكهف قل هل ننسكم بالآخرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم

فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائهم ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ، .

فأوائك وقفوا من آيات الله موقف الغفلة والجهل والإعراض ، وهؤلاء وقفوا منها موقف الغرور والجحود والكفران ، وفى ذلك يقول بعضهم :

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كتابه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم	ويُبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه	إذا ما بدت أقاربه وكواكبه
وليس يقول : الله فى عرش مجده	وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبّح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربي فى الأنام عظيمة	ولكن جهل المرء لا شك غالبه

فإن قال قائل : إذا كان النظر فى ملكوت السمات والأرض يهذى إلى معرفة خالق الكون ومبدعه ، والإيمان القلبى بألوهيته وربوبيته ، فما بال كثير من عنوا بدراسة العوالم الكونية ، ووقفوا على كثير من أسرارها وخواصها ، ينكرون العوالم الغيبية والأديان السماوية ، ولا يؤمنون إلا بالقوى المادية والنواميس الطبيعية ، بل كلما توسعوا فى الدراسات الكونية استحوذ عليهم الغرور العلى ، وتوغلوا فى مجاهل الإلحاد وإنكار وجود الله جل جلاله ، وزاد افتقارهم بالحياة الدنيا ووقفوا عند حدودها ، وفرحوا بها عندهم من علوم الدنيا وأقبلوا عليها ، استخفوا بعلوم الآخرة وأعرضوا عنها .

قلنا : سر ذلك أن النظر فى عوالم الكون تختلف آثاره باختلاف دوافعه وبواعثه ، فإن كان قائماً على بواعث وحى الفطرة والوجدان ، وشوق النفوس وحنينها إلى معرفة خالق الكون ومبدعه ، والاستجابة لدعوة الدين ، ومطالبته بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، فإن هذا النظر القائم على بواعث الدين فطرى والدين التعليمى ، يسمو بأصحابه إلى الملأ الأعلى ، ويرقى بعقولهم وأهلامهم

إلى أفق الإيمان والتوحيد ، لأنهم يجدون فيه تجاوباً مع أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتفسيراً لما هو كامن في فطرتهم وضمائرهم ، ونوراً لعقولهم ، وحياة لقلوبهم ، وإن كان قائماً على بواعث حب الاستطلاع والكشف عن أسرار الكائنات وخواصها ، انسخيرها في جلب المنافع المادية وتحقيق المطالب الدنيوية البحتة ، والاستعانة بها على الطغيان والسيطرة على الشعوب والأمم ، واستغلال مواردها وامتصاص دمايتها ، فإن هذا النظر القائم على البواعث المادية البحتة ، يقف بأصحابه عند حدود هذه المقاصد والأغراض ، ولا يرقى بمقولاتهم وأفهامهم إلى أفق الإيمان والتوحيد ، لأن ذلك خارج عن محيط نظرهم وتفكيرهم ، وبعيد عن مجالات أغراضهم ومقاصدهم ، كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى في سورة غافر : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وفي سورة الروم : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، وفي سورة النجم : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . »

النوع الثاني ، الأساليب التي تقيم البراهين العقلية على وحدانية الله عز وجل ، وأنه تعالى لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله تعالى في سورة المؤمنون : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولعلنا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون ، وفي سورة الإسراء : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، وفي سورة الأنبياء : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . »

فإن من القضايا التي تضافر عليها العقل والعلم والمشاهدة ، أن عوالم السموات والأرض مرتبط بعضها ببعض من جهة صلاحها وبقائها ، وانتظام سيرها وتدير أمورهما ، وقائمة على نظام كوني عام ينظم هذه الروابط التي لا صلاح ولا بقاء لها بدونها ، وأن الخلق والإيجاد ، والقهر والغلبة ، ونفوذ السلطان والإرادة ، هي من خص شئون الألوهية وصفات الربوبية ، فلا يجوز في حكم العقل أن يكون الإله

عاجزاً مغلوباً على أمره ، أو مقهوراً لسلطان غيره وخاضعاً لإرادته ، لمنافاة ذلك  
 الصفات الألوهية والربوبية ، فلو كان مع الله آلهة كما يزعم القائلون بتعدد الآلهة ،  
 لوقع التنازع والتصادم بينهم في الأفعال والإرادات ، والنفوذ والسلطان ، ولذهب  
 كل إله بما خلق ، واستقل بتدبير أموره وتصريف شئونه ، ومنع غيره من  
 الاستيلاء عليه أو التصرف في شئونه ، وإعلا بعضهم على بعض بالقهر والغلبة  
 وتنازع النفوس والسلطان ، ولطلبوا سبيلاً للوصول إلى صاحب العرش وهو الله  
 جل جلاله ، الذي أخبر على ألسنة رسله بأنه هو مالك الملك وحده ، ليقاقلوه  
 وينازعوه الملك والسلطان والنفوذ .

ولو حصل شيء من ذلك لفسدت عوالم السموات والأرض ، واضطرب نظام  
 سيرها وتدبير شئونها ، وانقطع ما بينها من روابط صلاحها وانتظام أمورها ،  
 واختل النظام الكوني الذي ينظم هذه الروابط التي لا صلاح للعوالم الكونية ولا  
 بقاء لها بدونها ، لكن فساد السموات والأرض وما فيهما من العوالم معلوم الانتفاء  
 بالمشاهدة ، فإن العوالم الكونية قائمة على أكمل ما يكون الإبداع والإحكام ، وسائرة  
 على نظام كوني واحد يسيرها ويصرف شئونها ، وينظم قوانين التعاون بين العوالم  
 السماوية والعوالم الأرضية .

وانتفاء فساد العوالم الكونية اللازم لتعدد الآلهة ، يستلزم بالبدهة انتفاء  
 ملزومه ، وهو وجود آلهة مع الله تعالى كما يزعمون ، لأن انتفاء اللازم يستلزم  
 انتفاء الملزوم قطعاً ، فثبت بهذا ثبوتاً قطعياً ، أن الله تعالى إله واحد لا شريك له  
 في الألوهية ولا مثيل له في الربوبية ، وأن كل شيء في الوجود خاضع لسلطانه  
 وقهره ، وسائر تدبيره وتصريفه ، وملحوظ بعنايته ورعايته ، وقائم على مشيئته  
 وإرادته ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

• النوع الثالث ، الأساليب التي تحيل المخاطبين على ما هو مركز في فطرهم  
 وسرازمهم ، لتقيم الحجة عليهم بما يعترفون به في قرارة نفوسهم ، وما يعلونه حق  
 العلم بوحى فطرهم وأحاسيسهم ، كقوله تعالى في سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم  
 من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ، فأنى يؤفكون ،

وفي سورة يونس : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذالكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ، .

فانظر إلى روعة هذا الحجاج القرآني وقوته ، يسألهم الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، عن خالق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ومن يرزقهم من السماء والأرض ، ومن يملك الإسماع والأبصار خلقاً وحفظاً ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر أمر الكائنات كلها ، يخبر تعالى - وهو العليم بما في سرائرهم - بأنهم سيجيبون بما هو معلوم لهم ومركوز في فطرتهم ، ويعترفون بإسناد ذلك كله إلى الله وحده ، ثم يقيم الحجة عليهم بمقتضى اعترافهم وتسليمهم ، ويحكم عليهم حلقات الأحكام والإلزام ، ويسكتهم على انصرافهم عن الإيمان والتوحيد مع قيام البرهان ، وتماذيرهم في الشرك والضلال مع اعترافهم بالحق وقيام الحجة عليهم ، يقول عز وجل : « فذالكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ، ولا يخفى ما في هذا الحجاج القائم على ودائع الفطرة والوجدان ، من الإبداع في تصريف وجوه الإقناع والإلزام ، وقوة التأثير في القلوب ، والاتصال بأعماق النفوس .

• النوع الرابع ، الأساليب التي تطالب الناس بتحكيم عقولهم ومراجعة ضمائرهم فيما عرضته عليهم من شئون الخلق والإيجاد والتدبير ، كقوله تعالى في سورة النمل : « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون <sup>(١)</sup> ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات

(١) أى يساوون بالله تعالى غيره - من العدل بمعنى المساواة - أو يعدلون عن الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك - من العدل بمعنى الميل والانحراف .

البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، أله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، وفي سورة الفرقان : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، » .

إلى غير ذلك من الآيات التي تنال القلوب والأرواح ، وتنبه الحواس والمشاعر ، وتطالب المخاطبين بتحكيم عقولهم ومراجعة ضمائرهم ، فيما عرضته عليهم من شئون الألوهية والربوبية ، وما يدركونه بأبصارهم وبصائرهم من ثبوتها لله وحده وانتفاها عن اتخذوهم من دون الله آلهة ، وجعلوهم أنداداً لله رب العالمين ، وما في ذلك من الدلائل الواضحة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية ، لتقيم الحجة عليهم بما هو كامن في عقولهم وضمائرهم ، وما يرونه بأبصارهم ويدركونه ببصائرهم وأفهامهم .

فأى حجاج أبلغ في البيان والتأثير ، وأقوى في الإقناع والالزام ، من هذا الحجاج القائم على تحكيم العقول ومراجعة الضمائر ، وشواهد الواقع ومدارك الأبصار .

فحكوا عقولكم ، وراجعوا ضمائركم يا أولى الأبواب لعلمكم تتقون .

« النوع الخامس ، الأساليب التي تقرر هقائق التقديس والتنزيه عن صفات الحوادث ، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام : « بدیع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، وفي سورة مريم : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إداً (١) ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، وقوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فالله جل جلاله أحد ، أى واحد في الألوهية والربوبية ، واحد في ذاته العلية ، منزّه عن التركيب والتجسيم والتحيّز ، فليس مركباً من جواهر مادية أو أصول غير مادية ،

(١) أى أمر منكراً وجراً عظيماً .

وليس متحيزاً في مكان أو جهة ، وهو سبحانه الصمد ، أى السيد الذى ليس فوقه سيد ، والذى يصمد إليه ويقصد فى الحوائج والمطالب ، فهو الغنى المطلق الذى لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء ، والمقصود الذى يقصده كل كائن لإمداده بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، سواء كان قصداً إرادياً أو طبيعياً أو استعدادياً ، فكل شيء متجه بإرادته أو بطبيعته أو باستعداده إلى الله تعالى ، فى طلب حوائجه وكالاته منه جل جلاله ، لم يلد ولم يولد ، أى لم يلد أحداً ، لأن الوالدية تستلزم التركيب والمجانسة ، لأن الولد جزء من أبيه ومجانس له فى ذاته وصفاته ، والله تعالى منزّه عن التركيب والمجانسة والمماثلة ، ولم يلد أحد ، لأن المولودية تستلزم التركيب والمجانسة ، والحدوث وسبق العدم ، والله تعالى منزّه عن ذلك كله ، فهو واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه ، ولم يكن له كفواً أحد ، أى ليس أحد مكافئاً ومماثلاً له فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وقوله تعالى فى سورة الحديد : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، أى السابق على جميع الموجودات بلا بداية ، والباقي بعد فنائها بلا نهاية ، والظاهر وجوده فى بدائع الكائنات ، والمحتجب بذاته تعالى عن إدراك الحواس والعقول ، وهو بكل شيء عليم .

فالله جل جلاله منزّه عن الوالدية والمولودية ، والتركيب والتجسيم ، والتحيز والاحتياج ، وسابقة العدم ولاحقية الفناء ، وسائر صفات الحوادث ، وكل ما لا يليق بذاته العلية ، قائم بنفسه فى الأزل <sup>(١)</sup> وفى الأبد ، أى منزّه عن الأحياء والأزمان ، فلا يحده مقدار ، ولا تحويه أقطار ، ولا تحيط به جهات ، ولا تكتشفه الأرض والسموات ، ولا تجرى عليه الأزمان والأوقات ، أزلى ، أى لا أول لوجوده ولا بداية ، أبدى ، أى لا آخر لبقائه ولا نهاية ، فوجوده عز وجل لا يسبقه عدم ، وبقاؤه تعالى لا يلحقه فناء .

(١) الأزل : هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب الماضى ، والأبد : هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب المستقبل .

ولم تقف عناية الإسلام بمقائد التنزيه والتقديس عند تقريرها وتفصيل أصولها، بل ساطها بسياج من الاحتياط وسلامة الاعتقاد، والتحفظ والاعتدال في النظر والتفكير، وسد على الوم والخيال منافذ التشبيه ومسالك الزلل، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام: « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » وفي سورة طه: « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » وفي سورة الثورى: « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » إلى غير ذلك من الآيات التي تقرر أن الله جل جلاله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الحواس، وتعالى ذاته العلية عن الإحاطة والإدراك، وتنزهت صفاته القدسية عن المشابهة والمائلة، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « إن الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم، فأقصى ما تدركه العقول والأبصار من شئون ذاته العلية، إنما هو أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ومظاهرها وآثارها التي تجلب في بدائع الكائنات وعجائب المخلوقات، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته » وفي ذلك يقول بعضهم:

تبصر حيث كان لك التبصر      وفي ذات الإله دع التفكير  
وإن ترد المهيمن حين تذكر      تأمل في نبات الأرض وانظر  
إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات      وأفكار الخلائق حائرات  
ولكن الأدلة واضحة      أصول من لجنين زاهرات  
على أغصانها ذهب سبك  
رياض موقفات منعشات      وألوان لعينك مدهشات  
وأغصان تسرك ناضرات      على قضب الزبرجد شامدات  
بأن الله ليس له شريك

« يتبع »



# الدعوة إلى العامية وأسرارها

لصاحب الفضيلة الشيخ علي محمد حسن العمري

- ١ -

لعل أول من أشار إلى ضرورة التعبير بالعامية - في بعض الأحيان - أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فقد رأى أن « النكتة ، البلدية لا تؤدي الغاية منها في أطراف السامعين ، وإضحاكهم إلا إذا حُكيَتْ ملحونة ، أما إذا قيلت بالعربية الصحيحة الفصيحة فإنها تفقد رونقها ومغزاها ، وفي ذلك يقول : « ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب فيأياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين ، والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فيأياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخذ لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويُذهب استطابتهم لإياها ، واستملاحهم لها (١) » .

ويقول في نفس الموضوع : واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر ، وربما استملح الرجل ذلك منهم ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد .

ويذكر - في هذا الموضوع أيضاً - شعر مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه :

وحديث أئذه هو بما ينعت الناعتون يوزن وزنا  
منطق صائب وتلحن أحسباً ، وخير الحديث ما كان لحنا

هكذا فهم الجاحظ اللحن في هذين البيتين بمعنى الخطأ في المنطق ، وقد روى  
ياقوت الحموى في معجم الأدباء أن الجاحظ رجع عن هذا الفهم ، قال : حدث يحيى  
ابن المنجم قال : قلت للجاحظ : مثلك في عليك ومقدارك في الأدب يقول في كتاب  
البيان والتبيين : ويكره للجارية أن تشبه بالرجال في فصاحتها ، ألا ترى إلى قول  
مالك بن أسماء : وذكر البيتين ، فقرأ من لحن الإعراب ، وإنما وصفها بالظرف  
والفتنة ، وإنما تلحن أى تورى في لفظها عن أشياء ، وتتنكب ما قصدت له ؟ فقال :  
فطنت لذلك ، قلت : فغيره ، قال : فكيف لى بما سارت به الركبان ؟ فهو في  
كتابه على خطئه (١) .

وذكر أبو على القالى في كتابه الأمالى ، هذا المعنى الأخير للحن ، ونسبه إلى  
أبي بكر بن دريد ، ونسب معنى إلى ابن الأعرابي ، وهو أن اللحن في هذا النص  
معناه الإصابة ، فيكون المعنى : منطق صائب ، وتصيب أحيانا .

غير أن ياقوت نقل انتصار أبي حيان للتفسير الذى ذهب إليه الجاحظ أولاً ،  
ثم رجع عنه ، وذلك حيث يقول أبو حيان : وعندى أن المسألة محتملة للكلام ،  
لأن مقابل المنطق الصائب المنطق المملوح ، واللحن من الغوانى والفتيات غير منكر ،  
ولا مكروه ، بل يستحب ذلك ، لأنه بالتأنيث أشبه ، وللشهوة أدهى ، ومع الغزل  
أجرى ، والإعراب جد ، وليس الجد من التغزل ، والتعشق ، والنشاجى فى شىء .  
وهذا - عندى - كلام حسن ، وهو أشبه بهذا الشاعر الغزل مالك بن أسماء ،  
مع مناسبته للمقابلة منطق صائب .

ولا أدرى - إذا كانت الحكاية صحيحة - ما الذى حمل الجاحظ على التنكر لهذا  
التفسير ، والإقرار على نفسه بالخطأ في فهم الخطأ من اللحن ؟ .

\* \* \*

ثم نطوى القرون لنقف عند ابن خلدون في مقدمته فنجدته يتحدث عن الإعراب ،

وعن مدى حاجة البلاغة إليه ، فيذهب يدافع بحماس شديد عن لغة أهل عهده ، وينعى على النحاة أنهم يحكمون بأن هذه اللغة لا بلاغة فيها ، ويصف لغة جيله بأنها لا تنقص شيئاً عن لغة مضر إلا الإعراب ، وفقدان الإعراب لا يؤثر في الإبانة ، ولا يحرم من بلاغة ، وما زالت هذه البلاغة والبيان يدين العرب ، ومذهبهم لهذا العهد ، ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه ، وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم ، وألقاها القصور في أفئدتهم (١) .

ويذهب بصرف القول ، ويعترض ، ويستدل ، ونلخص مناقشاته فيما يلي :

١ - كل مقومات اللغة المضرية موجودة في لغة « الجليل » ، ما عدا الإعراب ؛ والكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها ، والتعبير عن المقاصد ، والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجود في مخاطباتهم ، وفهم الخطيب المصقع في محافلهم وجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم حاصل لهم ...

ويعلن أنه لم يفقد من لسان مضر المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، وهو بعض من أحكام اللسان .

٢ - أن العناية إنما وقعت بلسان مضر لما فسد بمخالطة الأعاجم ، وكان القرآن منزلاً به ، والحديث النبوي منقولاً بلغته ، وهما أصلا الدين والملة ، فخشى تناسيها وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي نزل به ، فست الحاجة إلى وضع مقاييس ، واستنباط قوانين ، وسميت علم النحو ، كما أن الذي دعا إلى العناية بلسان مضر هو حفظ الشريعة ، فعمل ذلك العلماء على الاستنباط والاستقراء .

قال ابن خلدون : وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه (٢) .

٣ - من الممكن إذا اعتنينا باللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه أن

نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمر أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، بل إن أهل هذا اللسان اعتاضوا عن الحركات الإعرابية في الدلالة على الفاعل والمفعول بالتقديم والتأخير، وقرائن أخرى تدل على خصوصيات المقاصد.

٤ - كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بمثابة لغة العهد، مع اللسان المضرى، ولا عبرة بمن يعمله القصور على الزعم بأن المضرى والحميرى لغة واحدة، فلهذا حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها، وتصاريفها، وحركات إعرابها، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر.

\* \* \*

ولا يفتأ ابن خلدون يكرر أن الإعراب لا مدخل له في البلاغة، لأن البلاغة مطابقة الكلام للمقصود، ولملتضى الحال، وهذه المطابقة موجودة سواء كان الرفع دالا على الفاعل، والنصب دالا على المفعول، أو بالعكس.

ويدافع عن أشعار العرب، وأهل الأمصار لعده، مع أن أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى مخالفة للغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات، ولكن الشعر موجود بالطبع في أهل كل لسان، سواء كان عربيا، أو أعجميا، فقد كان في القرى شعراء، وفي يونان شعراء، وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون.

والعرب من أهل جيله يقرضون الشعر في سائر الأعاريض، ويأتون فيه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر، وأغراضه، من النسيب والمدح والرماء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن، وربما مجمعوا على المقصود لأول كلامهم، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون، ويسمى أهل المشرق من العرب هذا النوع من الشعر بالبدوى.

ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون، ولكن بعض العلماء - كما يقول ابن خلدون - لعده يستنكر هذه الفنون، ويرمى بجمع نظمهم،

ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها ، وفقدان الإعراب منها ، ثم يقول :  
وسبب ذلك عند هذا القائل أنه لم تحصل له ملكة من ملكاتهم ، ولو حصلت له  
الشهد له طبعه وذوقه يبلاغها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ويبدو من كل ما لخصناه من كلام ابن خلدون أنه لا يرى مانعا من استعمال  
لغة ملجونة ، أو لغة ناقصة الإعراب ، ولا لغة بينها وبين اللسان المضى اختلاف  
كبير في كثير من الأوضاع والتبايرف ، وأن البلاغة موجودة في هذه اللغات ،  
وينكر على من يستهجنها من أصحاب الأذواق العربية الخالصة ، ويحتكم إلى الذوق  
السليم ، والطبع القويم في كل أحكامه .

ولكن ابن خلدون غفل عن أمر بالغ الأهمية هو الذي أبدأ فيه وأعاد ، وأطال  
القول والاستدلال : ذلك أنه أكد أن الذي نشأت له ملكة في لغة ، واستقرت  
عنده ، ورسخت ، لا يستحسن إلا بلاغتها ، ويمج كل بلاغة مخالفة لها ، ولو أراد  
لسانه على بلاغة أخرى لما قدر عليه ، فكيف ينكر على صاحب الذوق العربي  
الاصيل أن يستهجن هذه الأشعار ، وكيف يحتكم إلى الذوق - وهو طبعاً يريد  
الذوق العربي - في الحكم على أدب ليس في دائرة اختصاصه ، ؟ .

ثم كيف غاب عن ابن خلدون أن العناية باللسان لاستنباط قوانين الشريعة ،  
وإن لم تلزم في عهده ، لأنه لا يوجد علماء يمكنهم أن يجتهدوا ، قد تلزم في عهد  
آخر ، أو في قطر آخر ، وأن المسلمين - إلى يوم القيامة - في حاجة إلى المحافظة على  
لغة مضر لهذا الغرض الذي قال ابن خلدون أنه لا تدعو إليه حاجة .

نفهم أن ابن خلدون - وهو يؤرخ الاجتماع والعمران - من حقه أن يصف  
ويقرر ، ويتحدث عن أنواع اللغات ، وأنواع الشعر في عصره ، ومن حقه أن  
يثبت البلاغة - على عمومها - لكل هذه الألوان الأدبية ؛ لأننا نؤمن معه بأن في  
أدب اللغات العامة بلاغة وبياناً ، وأريحية ، وجودة ، ولكن ليس من حقه أن

يقول إن ذلك جارٍ على الذوق العربي ، لأن صاحب الذوق - كما كرر هو وأكد - إنما يدرك ، ويستحسن البلاغة التي نشأت ملكته عليها .

وفهذان الإعراب ، لا يمنع البلاغة ، والتخلي عن العربية جملة بالنظم بأية لغة أعجمية لا يحرم القائل من البلاغة ، ولكن ليس شيئاً من ذلك بلاغة عربية .

ويبدو لي - مع تقديرى لهذا النابغة العبقري ابن خلدون - أنه صدر في أحكامه هنا عن إيماء من شعوره الباطني ، فقد كان الرجل - على الرغم من سعة أفقه - متعصباً لموطنه الأصلي ، ومن آية ذلك أنه كان - كما قال بعض من كتبوا عنه - يأبي أن يلبس زى القضاة - حين تولى القضاء في الشرق - ويحتفظ بزيه المغربي ، وقد علل هذا الصنيع في عهده بأنه من حب المخالفة الذي كان يحرص عليه ابن خلدون ، ولكن سببه - فيما يبدو - هو التمسك بالباطني لكل ما هو مغربي .

\*\*\*

وإذا التفتنا إلى الوراء قليلاً ، واستحضرنا ما نقلناه عن الجاحظ رأينا الفارق الكبير بين تشدد الجاحظ ، والعلماء القريبين من عهده في أمر العامية - فمع أن الجاحظ أباح العامية في « النكتة » ، ومن الجوارى الحسان نراه يرجع بعد ذلك عن فهمه في بيتي مالك بن أسماء ، وبين ترخص ابن خلدون ، ودفاعه عن عامية عهده ، وبلاغتها ، ولعل السر في ذلك - بعد ما قلناه - هو الزمن ، فابن خلدون جاء بعد الجاحظ بأكثر من خمسة قرون كانت الأحداث ، والطرانات والأعجميات قد تركت آثارها البالغة في لغة مضر ، والجاحظ عاش في بغداد حيث علماء اللغة والنحو ، وكبار الكتاب والشعراء ، أما ابن خلدون ففرض ردها من دهره في المغرب حيث العجمة ، والطرانة ، وحيث يقول إنه ما كان من الشعراء المشاهير في إفريقية إلا ابن رشيق ، وابن شرف ، وأكثر ما يكون فيها الشعراء من الطائفتين عليهما .

والجاحظ وضع كتابه في البيان العربي ، أما ابن خلدون فوضع مقدمته في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما إلى ذلك من العلل والأسباب ، فالرجل مؤرخ

لهذه الظواهر العمرانية ، والشعر والنثر بعض فروعها ، فإذا انساق إلى حكم من أحكام الذوق والصنعة - بعد ذلك - صدر فيه عن مشاعره النفسية .

وغلطة ابن خلدون الكبرى أنه قصر المتعة والتذوق بهذه الأشعار البدوية على من كانت له ملكة في هذا اللسان ، كأنه يريد من الناس أن يطيلوا النظر في هذه الأشعار ، وأن يحفظوها ، ويتفهموها حتى ترسخ في أذهانهم ملكتها ، ثم بعد ذلك يدركون بلاغتها ، وحسبنا ذلك ضياعا ؛ لأن هذا الذي تنفق فيه العمر والجهد لا يفيدنا إلا أن نتذوق هذه الأشعار ، ولو أنه دعا أهل هذه اللغات البدوية أن ينفقوا وقتهم وجهدهم في تحصيل العربية وتذوقها لكانت فائدتهم أكثر ، والخير عليهم أعود ، فإن كانت ظروف حياتهم هي التي اضطرتهم إلى أن يبقوا على هذه اللغات ، وأن ينظموا فيها أشعارهم فلندعهم وشأنهم ، ولا حاجة بنا إلى النظر في بلاغتهم ، لأنها - حينئذ - تفسد علينا أذواقنا العربية ، أو تخدشها ، ونحن إنما نجهد لتنميتها ، لا لتقص منها .

\* \* \*

وترك ابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري لتجليل النظر في بعض مآدبجه الكتاب ، وعلماء الاجتماع ، ونقاد الأدب في الاحتجاج للعامية ، أو الهجوم عليها وعلى أنصارها .

وهي قضية ضافية الذيل ، وقد كثرت الجدل حولها ، لا سيما في أيامنا هذه ، ونحن سنقتصر على الجوانب البارزة فيها ، وربما استخرجنا بعض الحبايا من الزوايا .

\* \* \*

لعل بعض المنتصرين للعامية لو اطلعوا على حقيقة الدوافع عند دعائها الأوائل في هذا العصر الذي نعيش فيه لرجعوا عن الانتصار لها ، والدفاع عنها ، ولا يقنوا أن دينهم الإسلامي ، ولغتهم العربية الفصيحة بهيبان بهم أن يتنبهوا للسموم الخفية التي دسها هؤلاء الدعاة في دعوتهم ، زاعمين - كما يبدو لغير المتأمل - أنهم يريدون خدمة الأدب ، وخدمة الشعوب العربية التي لا يكاد معظم أفرادها يفهمون العربية الفصحى .

ولم أشك لحظة واحدة منذ بدأت أدرس هذه القضية أن لدعاتها الحقيقيين أهدافاً بعيدة المدى ، يجهلها الكثيرون ممن يحطبون في حبالهم دون وعي ، أو تقدير ، أو إحساس بما وراء هذه الدعوة من أخطار ، وأيقنت أن وراء هذه الدعوة أغراضاً دينية ، وسياسية ، وقومية ، لم يشأ أن يفصح عنها دعاة العامية ، بادية فى بدء ، بل لعلمهم كانوا حريصين على إخفائها إلى الأبد ، ولكن سوء حظهم أطلقها على ألسنتهم ، أو على ألسنة الذين لا يترززون من أتباعهم ، وإلا فليس من المقبول ولا من المنطق أن يدعى قوم إلى ترك لغتهم التى نزل بها قرآنهم ، والتى دونت بها شريعتهم ، والتى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، بدعوى أنها لغة غير متطورة ، وأنها غير مرنة ، فلا تستطيع أن تفي بحاجات الآداب الجديدة ، فهى غير قادرة - مثلاً - على التعبير الدقيق عن خلجات النفوس ، وعن مستحدثات الصناعة فى هذا العصر . أو بدعوى أن المراد من الأعمال الفنية المتعة ، وهذه المتعة إنما تنشأ عن الفهم ، وجمهرة الشعوب العربية لا تفهم اللغة الفصحى ، أو بدعوى أن بعض الأشخاص الذين يتحدثون على المسرح لا يتكلمون اللغة الفصحى فى حياتهم العادية ، فليس من المقبول ، ولا من الواقعية فى شيء أن يتحدثوا على المسرح بهذه اللغة .

فإن لم يكن وراء هذه الدعوة إلى العامية هدف دينى أو سياسى أو قومى ، فهى كما يقول الأستاذ الزيات : مرض جرثومته الجهل ، وأعراضه الهذيان ، ونهايته كنهاية كل مرض ، إما الموت ، وإما الإبلال <sup>(١)</sup> .

وفى حديثنا القادم سنكشف - إن شاء الله - عن الأسرار البعيدة التى حفزت أفراداً من الأمة العربية إلى أن يحاولوا القضاء على لغتهم ، ولغة قومهم ؟



## جَلال الدين مَوْلَى

للكنور محمد غنيمى همدان

ويقال له أيضاً « جلال الدين الرومى » ، ولد فى بلخ وتركها فى طفولته لابان حملة المغول ، ليذهب مع والده إلى آسيا الصغرى ، واستقر بها مع أسرته ، وتوفى بها عام ٦٧٢ هـ ( ١٢٧٣ م ) ويعتد أعظم صوفية الفرس على الرغم من أنه بمثابة الإمتداد لعطار الذى تحدثنا عنه فى هذه المجلة من قبل .

وقد تتلمذ أولاً على والده ، ثم على تلميذ والده سيد برهان الدين ، وقد رحل زمناً إلى الشام ليحصل العلوم العربية والفلسفية ، عاد بعدها إلى « قونية » ليشغل بكسب العلوم والمعارف الدينية حتى تعرف على أحد الصوفية الكبار « شمس الدين تبريزى » ، فترك تحصيل العلوم إلى الاشتغال بالتصوف ، وأسس فيه طريقة المولويين الذين ينشدون الوجد فى حلقات الذكر ، وعلى سماع الأنغام ، ومن ثم عظم شأن هذه الأنغام فى الإثارة الروحية عند المتصوفين ، وعندما أن هذه الأنغام أقرب إلى الروحانيات فجعلها تجريدية ، وهو لذلك أطوع إلى التعالى بالروح ، وقد ترك « جلال الدين » آثاراً أدبية ، صار بها سيد الصوفية للفرس من الجانب النظرى والعملى معاً فى عالم الصوفية .

وأشهر هذه الآثار ديوانه المسمى « مثنوى » ، فى حوالى ستة وعشرين ألف بيت من بحر الرمل ، بها تصوير كثير من المسائل الأخلاقية والدينية ، والصوفية النظرية ، وبها وصل الشعر الصوفى إلى قمته لدى الفرس ، وبالرغم من سيره على طريقة العطار فإنه أنضر منه أسلوباً ، وله غير المثنوى ديوان غزل باسم « شمس الدين تبريزى » ،

إذ أنه ألفه بتأثيره ، وهو غزل صوفي تختلط فيه خواطر الحب بالوجد الإلهي المشبوب ، المعشوق فيه الذات القدسية ، ويعزى إليه كذلك مجموعة من « الرباعيات » . ولا بد في قراءته من معرفة مبادئ عامة صوفية هي مفاتيح خواطر فلسفية منها أن الجنون عند الصوفية معناه الوجد الإلهي الذي يصل به الحب إلى درجة النشوة الإلهية ، وهي أعلى درجات المدح لديهم ، ومنها أن الخمر في كلام الصوفية معناها النشوة الإلهية في حياة التأمل الروحي ، وقد أخذ الصوفية مفهوم هذين الاصطلاحين عن « افلوطين » ، ومدرسته ، التي تأثرت بدورها بأفلاطون ، ومنها أن الجمال في الخلق طريق للهداية إلى الجمال الحقيقي ، لأن ذلك الجمال صوري شفاف ، معناه روحى لدى ذوى البصائر ، وليس سوى وسيلة للهداية ، وإنما ينطمس معناه على من يستغرق في المادة ، فيصبح الجمال الظاهري لدى باصرته كشيئاً لا يشف عن شيء ، لأن بصيرته قد ران عليها صدأ المادة فأغراه التكالب عليها .

ومن ثم يجب أن نفهم ما يتردد من ذكر الخمر والخمار ، وذكر الجمال ، ثم ذكر ما يتصل بهذين الأمرين من أوصاف تبدو مادية ، وهي في الحقيقة رموز يضل المرء في فهمها إذا وقف عند ظاهرها ، فما أشبهه عندهم بمن يحاول القراءة وهو لا يعرف حروف اللغة ، أو بمن يقرأ لغة لا يفهم معنى كلماتها ، فلهذا الجمال روحية ، لا ينفذ إليها سوى طاهر الروح ، كذلك لغة الأدب الصوفي مشعة تستعصى على من لا يعرف مفاتيحها الفلسفية ، ونقدم في ضوء هذا التمهيد الموجز بعض نماذج نترجمها من أشعاره ، لعل القارئ يتذوقها بعد هذا التمهيد ، ولا أقصد إلى غير التذوق الفني في التصوير ، وقوة دلالاته على الإشعاع الروحي ، على أن يحتفظ القارئ بعد ذلك باستقلاله ، لأن هذا الأدب يجب أن يقوم في قرائن عصره فيما يخص مضمونه ، كما أشرت ، وكما شرحت ، أكثر من مرة ، في حديثي بهذه المجلة « الرسالة » .

#### ١ - التعصب :

هذا العالم - أى بنى - مثل الشجرة  
ونحن عليها مثل الثمرات نصف الناضجة

فغير الناضجة منها يشتد تعلقها بغصنها  
 لأنها ليست طيبة ولا تروق لأهل القصور  
 وأما حين تنضج وتصير أهلاً للمذاق حلو الشفاء  
 فإن تمسكها بأصلها من الغصن ين على الأثر  
 فشدّة الاستمساك والتعصب سذاجة  
 وما دمت جنيئاً فلا شأن لك سوى شرب الدم  
 ٢ — ضيق النظرة :

جلس في سفينة نحوى من النحاة  
 وتوجه مغترا بذات نفسه شطر الملاح  
 وقال : أتعرف من النحوي شيئاً ؟ فأجاب الملاح : كلا  
 فقال النحوى : لقد ضاع منك نصف عمرك !!  
 فانفطر قلب الملاح حزناً ، ولكنه  
 في تلك اللحظة قد صمت فلم يحرج جواباً .  
 وألقت العاصفة بالسفينة في لجة الموت  
 فتوجه الملاح شطر ذلك النحوى الجليل :  
 خبرنى : أتدرى من السباحة شيئاً ؟  
 فأجابه : كلا لا تنشد في سباحا  
 فقال الملاح : لقد ضاع كل عمرك أيها النحوى  
 إذ السفينة بسبيل أن تفرق في اللجة  
 الذى يلزمك هنا هو المحر ، الفناء فى الله ، لا النحوى  
 وإذن فاعبر الماء ولا خطر عليك  
 فماء المحيط يعلو مفرق من يموت به  
 وإن بقى المرء حيناً فيه فكيف له بالخلاص من مياهه ؟

إذا تجردت من صفات البشر ، بالفناء في الله ،  
فإن بحر الأسرار سيحملك على مفرقه  
٣ — التعلل باسم الجبر :

كل من يظل من الكسل بلا شكر وصبر  
يرى مع ذلك أن الجبر هو الذي قيد خطاه  
وكل من يتعلل بالجبر إنما يزعج بنفسه في العناد  
ويظل كذلك حتى يسلبه القبر  
والجبر ما هو ؟ أن تضمد عضواً كبيراً  
أو أن تصل بعظامك عرقاً قطعاً  
فإذا كنت في هذا الطريق غير كبير القدم  
فبمن تسخر حين تلفه بالعصائب ؟  
وأما من جهدت قدمه في طريق الكفاح  
فإن البراق قد أتاه فاعتلاه  
قال لص الحاكم : أيها الأمير  
أن ما أتيتك إنما كان بحكم الإله  
فأجابه الحاكم : وكذلك ما أفعله أنا بك  
إنما هو حكم الحق يا من أنت ذو عينين تبصران

٤ — المرآة :

يا من تشاهد الظلم سائداً بين الناس  
إن محنتك من محنتهم يا هذا  
ففيهم يترامى وجودك أنت  
من نفاق وظلم وعريضة  
إن ذلك الإنسان هو أنت وذلك الذي إنما تمارسه على نفسك

وحق أن تلعن في تلك الساعة نفسك  
 ألا ترى عياناً هذا الشر من ذات نفسك  
 وإلا فأنت إذن عدو نفسك  
 فالؤمنون مرآة بعضهم لبعض  
 كما ورد في الخبر المروى عن النبي

ه — مدينة العشق :

قال معشوق لعاشق : أيها الفتى  
 لقد رأيت في غربتك مدناً كثيرة  
 تخبرني : أية مدينة من هذه أطيب ؟  
 فأجاب : تلك المدينة التي فيها من اختطف قلبي  
 ولأنه لأطيب من الدارين ذلك المكان  
 حيث أنال فيه سؤلى - أى إلهى - بحضرتك

٦ — الطائر القدس أو الروح :

ظلمت أياماً أفكر نهاراً وطول الليل  
 لماذا أظل في غفلة عن شئون قلبي ؟  
 من أين أتيت ؟ ولأى جدوى كان مقدمى ؟  
 وإلى أين أذهب آخر الأمر ؟ إذ لا يترأى وطنى هناك  
 وبقيت في عجب بالغ أن لماذا خلقت  
 أو ماذا كان مراده من صنعى ؟  
 أنا على يقين من أن الروح من العالم العلوى  
 فإما أن أشد رجلى من جديد إلى هناك حيث قدمت  
 وإما أن تحملنى الروح إلى حان المليك  
 حيث يقيم ساقى ، وثم سأفرض ختم الدنان

فطائر ملكوتي ليس من عالم الارض  
ولانما صنع له من بدني قفصاً لإقامة موقوتة  
فيا لطيب ذلك اليوم الذى أظير فيه حتى باب الحبيب  
ناشداً أن أخفق بجناحي على عتبات ذلك الحى  
فمن ذلك الذى صاغ فى مسمعى تلك الأصوات  
وأية كلمات وصفها على لساني  
ومن هو الذى ملء باصرتي التى بها أرى  
وأية روح تلك التى أنا لها لباس ؟  
إذ طالما لا يبدو لى منزل ثم ولا طريق  
فلن أستريح لحظة ولن أقر بالا آونة  
فأدقنى خمرة الوصال فى هذا السجن الدنيوى  
حتى أحطم بابه فى عريضة السكر ، شأن السكرانى  
أنا لم آت هنا اختياراً ، فلأعد هناك عن اختيار  
وليحملنى حتى موطنى الآخرى من قدم بى هنا  
لا تظن أنى أقول هذا الشعر اختياراً  
فطالما أنا على وعى وبقظة لا أنيس لحظة

٧ — سكران :

أنا ثمل وأنت مجنون فمن ذا الذى يقودنا إلى المنزل ؟  
لقد نصحتك مائة مرة أن تقلل من الشرب كأسين أو ثلاثة  
فى المدينة لا أرى شخصاً واحداً صاحباً من السكر  
كل امرئ أسوأ من الآخر ولهان ومجنون  
أى حبيبي ! هلم بنا إلى الخربات حتى ترى لذة الروح  
وكيف يطيب للروح أن تكون بدون صحبة الحبيب

فى كل زكن شخص نمل يده فى يد نجيه  
 والرأس يدور ثملا من يد الساق بالكأس الإلهية  
 أيها الخفيف الروح ! أعزف على العود ، أنت أوغل فى السكر أم لنا ؟  
 فيا أيها العاقل حين تشمل أنت فسحرى أسطورة !  
 أنت وقف على الخربات لا شأن لك سوى الخمر  
 فلا تدع حبة من عقل لدى القادمين الصناحين  
 لقد خرجت من المنزل فاسرع إلى بالسكر  
 ركل نظرة منه تجيـء وراهها مائة بستان ومنزل  
 مثل سفينة ضلت المرمى وجنحت للفرق  
 وعلى الأسى بها آلاف العقلاء والحكماء صرعى  
 قلت من أين أنت أيها النفس فهزأت قائلة :  
 نصفى من تركستان ونصفى من فرغانة  
 شطرى ماء وطين وشطرى روح وقلب .  
 شطرى من شط المحيط والباقي كالجوهر الفريدة  
 فقلت لها : كونى لى رفيقا فأنا من أهلك  
 فأجابت : لم أعد أعرف أنا قريبا لى من غريب  
 لقد فقدت رأسى وتاج رأسى فى منزل الساق  
 ولى صدر به كلم - أأشرحها أم أكتمها ؟

# أبوزكريّا الفراء

للكنور أحمد مكي الأنصاري

عرض وتحليل بقلم الأستاذ حسين عبد الرحيم مبارك



ما ذا قالوا عن الكتاب :

قالوا : « إنه نموذج حي للبحث المنهجي ، وإنه مثل أعلى للدراسات الجامعية المتعمقة » .

« كان ثمرة جهاد عنيف بين الكاتب وبين الغموض الذي كان يكتنف الفراء من معظم جوانبه » .

« أسلوب قوى رصين ، يذكرنا بالأسلوب الأدبي في العصر الذهبي للغة العربية في القرنين الثالث والرابع الهجري » .

طبع هذا الكتاب على نفقة الدولة ، ليعم الانتفاع به ، ويبلغ ما يعاق عليه من آمال في تقدم البحث العلمي الدقيق .

وماذا عن الفراء :

قال بعض المستشرقين : « إن الفراء عبقرية نادرة لا نظير لها في تاريخ الآداب العربية كلها ، اللهم إلا أن يكون الخليل بن أحمد » .

كما أن المستشرق الألماني « يوهان فلك » صاحب كتاب « العربية » يقدر الفراء حق قدره ، فينعت في كتابه القيم بأنه « الفراء العظيم » .

وكذلك المستشرق « ب . كاله » يقدره ويكبره ويرى فيه « النحوى الكوفي الضليع » .



وكان القدماء يلقبونه « بأمير النحاة » كما كانوا يطلقون عليه : « أمير المؤمنين في النحو » .

وقال فيه سعيد بن سالم لأصحابه حينما دخل عليهم الفراء : « قد جاءكم سيد أهل اللغة ، وسيد أهل العربية » .

وأعجب به زعيم المعتزلة ثمامة بن الأشرس فقال : « إن الفراء نسيج وحده » . وأبلغ من هذا وذلك ما كان من الخليفة المأمون حين علم أن ابنه يقتتلان على تقديم نعل الفراء ، فاستدعاه وقال له : من أعز الناس ؟ قال : ما أعلم أحداً أعز من أمير المؤمنين ، قال لا أعز الناس من يقتتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى يصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً ، ثم لم يكتف بهذا التقدير الكلامي وإنما أردفه بالتقدير المالي فأمر له بعشرة آلاف درهم مكافأة له على حسن تأديبه ولديه .

كان الفراء في خلقه كما يشتهي كل عالم فاضل أن يكون ، كان متديناً ورعاً باراً بأهله وعشيرته ، وفيماً لأشياخه حفيماً بأصحابه ، عف اللسان ، محبباً إلى النفوس ، كما كان حازماً صارماً حين ينبغي الحزم ، له صدر رحب ، وقلب كبير ، يتحرى الصدق في المودة والعداوة ، ويصون نفسه عن التبذل ويعرف لها حقها في الحياة الذكيمة الحرة .

وهذا هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة النعمان يقول للفراء معجباً به : « ما ظننت آدمياً يلد مثلك » .

وقد وازن المرحوم أحمد أمين بين الفراء والكسائي فقال : « وكان الفرق بين الفراء والكسائي كالفرق بين المأمون والرشيد ، والفرق بين محافظة الرشيد وحرية العقل عند المأمون ، والفرق بين الحركة العلمية الناشئة في عهد الرشيد والناضجة في عهد المأمون » .

وهذا هو الدكتور طه حسين يمدى لنا مدى إعجابه بالفراء في ثانيا حديثه في مقدمة « إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى حين شبه بالفراء في مجال التقدير والتجديد حيث يقول :

وإني لأعجب أشد الإعجاب بهذا الصبر الطويل ، وهذا الجلد الذي لا أعرف له نظيراً في هذا الجيل الذي نعيش فيه ، فليس يسيراً أن تعاثر النحويين فتطيل عشرتهم ، فضلاً عن أن تنفق حياتك كلها في مصاحبتهم ، والتحدث إليهم والتحدث عنهم ، والناس بعد يضيقون بالنحو ، ويتبرمون بحديثه ، فما بالك برجل قد أصبح يضيق بكل شيء لا يتصل بالنحو ، ويتبرم بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد ، حتى سميناه فيما بيننا بالفراء .

وماذا قالوا عن الدكتور الأنصارى مؤلف هذا الكتاب :

قالوا : إنه وضع نظرية جديدة ، وكشف بذلك عن حقيقة علمية هامة لم يسبقه إليها أحد . .

كما وضع منهجاً لغوياً علمياً دقيقاً ينافس مناهج علماء اللغة في العصر الحديث . . وقالوا عن استعداده للدراسات العميقة : « استعداد أصيل عنده لمثل هذه الدراسات ، ومقدرة فائقة عليها ، ثم صبر ، وثقوب فكر ، ومثابرة وجلد » .

وقالوا : « إنه يجمع بين الذرق الأدبي الرفيع ، وبين البحث العلمي الدقيق » . منحه الله عزيمته قوية ، وقرينة وقادة أضاءت له معالم الطريق ، وأهابت به إلى المضي قدماً في المسالك الوعرة الموحشة لهذا البحث الدقيق ، حتى ذل منه العصي ، ودنا الآبي ، واستأنس النافر الشرود .

العرض الموجز :

هذا الكتاب يشتمل على باين اثنين ، تسبقهما مقدمة ، وتتلوهما خاتمة .

تحدث في الباب الأول عن عصر الفراء وحياته وآثاره في ثلاثة فصول ، فكان الفصل الأول في الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية في عصر الفراء ، وأوجز فيه المؤلف أيما إيجاز مع إلقاء الأضواء الكاشفة عن تلك الحقبة في عصر الخليفة المنصور والرشد والأمين والمأمون ، حيث ولد الفراء سنة ١٤٤ هـ ، في خلافة المنصور ، ثم توفي سنة ٢٠٧ هـ ، في خلافة المأمون .

أما الفصل الثاني فكان عن الفراء ذاته منذ نشأته الأولى إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وبالرغم من الغموض الشديد الذى كان يكتنف حياة الفراء استطاع المؤلف أن يبرز لنا شخصيته ، ويمثله أمامنا بشراً سوياً ... بفضل التعمق فى البحث والاستقصاء ... فكأنما كان يعد أنفاسه ، ويحصى عليه خطاه .

وفى الفصل الثالث تحدث المؤلف عن آثار الفراء جميعها : الموجود منها والمفقود ، ثم أردف ذلك بحديث ضاف عن منهج الفراء فى التأليف .

أما الباب الثانى فقد جملة فصلين اثنين فقط : الفصل الأول مذهب النحوى ، والفصل الثانى مذهب اللغوى .

أما الخاتمة فقد تحدث فيها عن المعالم الكبرى لنتائج البحث ، وبين الجديد فيه - وما أكثره - ثم أعقبه بما عن له من نداء ومقترحات ، وذيل الكتاب بمجموعة حافلة من الفهارس الموضوعية التحليلية وغيرها من الفهارس العديدة التى يقتضيها البحث المنهجى الحديث .

بعد هذا العرض الموجز سأتحدث عن الجديد فى الكتاب ، وعن منهجية البحث ، وعن التحقيقات العديدة ، وعن التوثيق الفريد ، ثم نخص الناحية الدينية فى الكتاب بحديث أوفى وأضفى ، وكذلك الجانب اللغوى ، والجبال النحوى إن اتسع المقام ، ثم أختم المقال بمأخذ على المؤلف كنت أود أن يتحاشاها ، وألا يتورط فى أمثاله . وإليك البيان بالتفصيل :

\*\*\*

#### الجديد فى الكتاب :

لعل لا أكون مبالغاً إذا قلت : كل ما فى الكتاب جديد وجدير بالعرض والتشويه ... لكن ذلك أمر عسير ... غير أن هذا لا يعيننى من إلقاء الأضواء على أبرز النظريات فى هذا الكتاب القيم ، ولنبدأ بنظرية إلغاء العامل :

تلك النظرية التى قامت عليها شهرة المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى - حينما أخرج للناس كتابه المشهور « إحياء النحو » ، وقدم له الدكتور طه حسين بقدمة

قوية طويلة حافلة رفعت الكاتب والكتاب إلى عنان السماء ، فكان له دوى قوى في الأوساط العلمية ، أشبه ما يكون بدوى القنبلة الذرية حين ذاك .

واختلف الناس ، واشتجرت الآراء حول هذا الكتاب ... وانبرى للرد عليه عليه عالم فاضل من جماعة كبار العلماء هو الأستاذ الشيخ محمد عرفة ، فأخرج للناس كتابه المعروف « النحو والنحاة بين الازهر والجامعة » ، ولكنه لم يكن ذا أثر بعيد في صرف الباحثين عن هذا الكتاب ، فظلت له شهرة ومكانة إلى أن عثر الأستاذ الدكتور شوق ضيف على مخطوطه لابن مضاء القرطبي اسمها « الرد على النحاة » ، فشر هذه المخطوطة ، وقدم لها بمقدمة حافلة أظهرت ما بين الكتابين من تشابه يقوم أساساً على « نظرية إلغاء العامل » ، حتى أن بعض الباحثين اتهم المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى بأنه أخذ كتابه « إحياء النحو » من كتاب « الرد على النحاة » لابن مضاء القرطبي .

ومن هنا بدأت أسهم ابن مضاء ترتفع ... وترتفع باعتباره صاحب الفضل في تيسير النحو العربي بإلغاء نظرية العامل .

ولكن ابن مضاء طويلاً بهذا المجد في عصرنا الحديث حتى ظهر كتاب « أبو زكريا الفراء » ، الذي أثبت فيه الدكتور مكى الأنصارى بالأدلة الدامغة أن ابن مضاء القرطبي سرق هذه النظرية من أبي زكريا الفراء ، وأن الفراء هو المؤسس الحقيقي ، والرائد الأول لتيسير النحو العربي ، وقد آن الأوان للمستمع معاً إلى حديث الدكتور الأنصارى في هذا الصدد حيث يقول في ( ص ٥١٤ ) :

« ابن مضاء صورة من الفراء ... ابن مضاء القرطبي صاحب الدعوة العريضة إلى تيسير النحو بإلغاء نظرية العامل ، كما أنه صاحب الثورة العارمة على النحو البصرى . بوجه عام ... لقد كشفت أن قاضى القضاة ابن مضاء انتفع بآراء الفراء دون أن يشير إليه في قليل ولا كثير ... أقول انتفع ولا أقول « سرق » ، تخفيفاً للحكم على قاضى القضاة ! »

ولست في هذا بمن يلقون القول على عواهنه ، بل لأنني استخرجت من كتاب  
« الرد على النحاة » طائفة من الآراء رددتها إلى منبعها الاصيل من آراء شيخ  
المجددين أبي زكريا الفراء .

وعجبت لابن مضاء كيف يفتنع بهذه الآراء دون أن يشير إلى مصدر هذا  
الإلهام ، وحاولت أن أتعرف سر هذا الموقف العجيب المريب ، وأخيراً وضعت  
يدي على « مفتاح السر » ، فرأيت أنه يتمثل في ناحيتين اثنتين ، إحداها شخصية ،  
والأخرى سياسية :

أما الأولى فهي أن ابن مضاء ما هو إلا بشر كسائر البشر أراد أن يظهر بمظهر  
المجددين المبكرين ، فاختلس آراء الفراء دون أن يشير إلى صاحبها خشية أن يرى  
بالتقليد ، في عهد كان فيه التقليد وصمة عار بينهم ، حتى ولو كان تقليداً للذاهب  
الأربعة في الفقه الشرعي ، فما بالك بالنحو ؟ .

وأما الناحية السياسية فهي أن الأمير الذي شمل ابن مضاء برعايته فولاه منصب  
قاضى القضاة في الدولة كلها كان ثائراً على المشرق ، إذن كان ضالماً في هذا مع  
الموحدين ، وقد شهد ذلك العصر ثورة الموحدين على المذاهب الفقهية التي نبتت من  
المشرق ، فبذوها ، وتمسكوا بظاهر الكتاب والسنة فحسب ، وردوا فقه المشرق  
على المشرق .

فليس غريباً إذن - أن يساير ابن مضاء هذه الأجواء ، بل الغريب أن يختلف  
مع هؤلاء ، وعلى رأسهم ولي نعمته راعي هذه السياسة وحامي حماها ، ولهذا أدلى  
بدلوه في الدلاء ، فثار على المشرق أيضاً في زاوية من زواياه العلمية ، وهي زاوية  
النحو ، محققاً بذلك نوعاً من التجديد ، إذ أن الثورة كانت متجهة إلى الفقه وفروعه ،  
فهو بذلك جمع بين الهدفين : هدف المشاركة في الثورة من ناحية ، وهدف التجديد  
الذي يليق بمنصبه الكبير من ناحية أخرى ، ولولا هذا النزوع إلى الظهور بمظهر  
التجديد لكان ميدان الفقه والشرع أنسب له وللمنصب القضاء ، واسكنه حب الظهور .

وليس من اليسير في هذه الأجواء أن تنتظر من ابن مضاء أن يعترف بفضل

أبي ذكرى الفراء، وإلا ضاع منه المجد، وفقد الشهرة، بل أنه يكون حتما موضع اللاتمة لعدم تجاوبه مع ولى النعمة من جهة، كما يكون موضع الزاوية والسخرية من جهة أخرى، حيث يكون قد رد على نحو الشرق بنحو الشرق فلم يأت من مغربه بجديد، فالفراء إلا من الكوفة، وما الكوفة إلا أخت البصرة، وكلتا هاتين من المشرق، ولا يليق - فى نظره - شخصا ولا سياسيا أن يظهر انتفاعه بمذهب الفراء، أو بأى مذهب من الشرق.

ومن هذا وقفت على سر ذلك الموقف العجيب المريب، وأهم ما يعيننى هنا هو إثبات أن أبا ذكرى الفراء قد سبق ابن مضاء إلى إلغاء نظرية العامل بمدة قرون، فكان المؤسس الحقيقى، والرائد الأول لتيسير النحو العربى.

أما إثبات ذلك بالأدلة القاطعة، والحجة الدامغة، فأقتضب الحديث عنه، وأحيلك إليه فى الكتاب ابتداء من (ص ٤٢٣) إلى (ص ٤٣٦).

وأما تيسير النحو العربى وطريقة إصلاحه فقد تناوَلها المؤلف فى (ص ١٩٠ فما بعدها) وذكر فيها طريقين للإصلاح: الإصلاح الكلى، والإصلاح الجزئى، ولنا عودة إليهما فى مقال آخر إن شاء الله.

هذا وليست نظرية إلغاء العامل هى النظرية الوحيدة التى سرقت من هذا الرجل العبقري... بل هناك مسروقات أخرى أشار إليها المؤلف فى مواضعها من الكتاب، مثل سرقة كتاب «الفصيح لثعلب»، من كتاب «البهاء للفراء»، انظر (ص ١٧١)، وكذلك موقف الإمام الطبرى شيخ المفسرين حيث انتفع بآراء الفراء دون أن يشير إليها فى قليل أو كثير، بل لأنه تبناها وادعاها لنفسه فى كثير من الأحيان، انظر (ص ٣٢١) إلى غير هذا وذلك مما سماه المؤلف «سرقات أو هى أشبه».

ولعل السر فى كثرة هذه السرقات وأشباهها يكن فى غموض الرجل وضياح معظم آثاره، واحتجاب ما تبقى من هذه الآثار، كل ذلك شجع بعض العلماء فى القديم أن يسطوا على آراء الفراء فى غفلة الزمان والإنسان، ففسبواها إلى أنفسهم دون.

حبيب ولا رقيب ، وما دروا أن عين التاريخ ساهرة لا تنام ، وأن الله من ورائهم محيط .

ومن الجديد في هذا الكتاب : تكوين نظرية جديدة مؤداها أن أبا زكريا الفراء كان المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية ، بعد أن كان القدماء والمحدثون يزعمون أن الفراء لا يزيد على أنه قطب من أقطاب المدرسة الكوفية ، وقد سلك المؤلف في إثبات هذه النظرية طريقاً منهجياً يعود بها إلى نشأتها الأولى ، بل إلى نشأة المدارس النحوية على الإطلاق ، وتساءل في وعى ودقة بالغة عن المدرسة ما هي ؟ وهل كانت هناك مدارس نحوية ؟ ثم من الذي أسس هذه المدارس ؟ وما خصائص كل مدرسة ؟ ... ثم أجاب عن ذلك بالتفصيل ، وتبع تدرج المدرسة البغدادية ، باحثاً عن جذورها الضاربة ، وخبوطها الناحلة ، منذ كانت مبعثرة هنا وهناك قبل أن تكون مدرسة بالمعنى العلى لهذه الكلمة ... وبعد أن جال جولة واسعة النطاق مع المستشرقين والعلماء العرب أثبت بالحجة الحاجة الناصعة لأول مرة في التاريخ أن أبا زكريا الفراء كان المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية ، انظر ( ص ٣٥٢ فما بعدها من الكتاب ) .

ومن الجديد - وكل ما في الكتاب جديد - أن المؤلف وضع منهجاً لغوياً ينافس أعظم المناهج في العصر الحديث ، كما أنه كتب فصلاً عن تطور المصطلحات النحوية والمفاضلة بينها وربطها بالموسيقى الصوتية ، كان جديداً غاية الجدة لم يسبقه إليه سابق من قبل ( ص ٤٣٦ ) كما أنه بالبحث الدقيق العميق استطاع أن يكشف عن مميزات الفراء ، فأثبت أن الفراء كان أول من نادى بمبدأ الإعجاز اللغوي في القرآن ، وأنه كان أول من وضع الأصول النحوية ، وأنه تفوق بهذا على سيديويه وأستاذه الخليل بن أحمد ، وأنه كان أسبق في هذا من ابن السراج الذي اشتهر في عصرنا بأنه هو واضع الأصول ( ص ٣٠١ ) وأن الفراء كان أول من تنبه إلى التشبيه بمعناه البلاغي ، فكان أسبق من الجاحظ في ذلك ، هذا إلى فائتات فانت المعاجم اللغوية كلها حين الجمع وردت في كتب الفراء ، ولم ترد في كتب اللغة ، تحقق منها المؤلف وأثبت ذلك .

إلى غير هذا وذاك من كل ما هو جديد طريف من القضايا الكثيرة المثيرة .  
 وإن شئت جديداً فوق الجديد فاقراً التحقيقات العديدة (ص ٢٣، ٢٥، ٢٩،  
 ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٦، ١٤٧، ١٥٢ - الخ... الخ) .  
 وإن أردت أروع ما في الجديد فاطلع على التوثيق الفريد في منهجه وفي معالجته،  
 توثيق كتاب « الأيام والليالي »، (ص ٢٠٦) وتوثيق كتاب « معاني القرآن »،  
 (ص ٣١٤) إلى آخر ما هنالك من أبحاث بلغت الذروة في التوثيق المنهجي  
 بعناصره الثلاثة :

العنصر التاريخي، والعنصر الموضوعي بقسميه .

ومما يتصل بالمنهجية الحققة في هذا الكتاب أن المؤلف أخرجه في أعلى نموذج  
 للمناهج البحث الحديث ، ومن بينها المنهج التاريخي في تتبع الفكرة حسب التسلسل  
 الزمني منذ نشأتها الأولى ، ثم في أطوارها المتلاحقة عبر القرون .  
 ومن المنهجية أيضاً أنه أخذ على صاحبه الفراء عدة مآخذ ، ولم يتعصب له  
 بالحق وبالباطل ، كما يفعل بعض الباحثين ، ويعجبني من هذه المآخذ قوله :

« أخذت على الفراء أنه قطع على المدرسة الكوفية طريقها إلى المنهج اللغوي  
 السليم ، فهي وإن لم تكن تفقه كنه هذا المنهج الحديث إلا أنها كانت تسير في طريق  
 أقرب ما يكون إليه ، فجاء الفراء وقطع عليها هذا الطريق ، مؤثراً تحكم البصريين  
 على سلامة الكوفيين ، غلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . »

وربما استطاع الدارس أن يلتمس له عذراً في ذلك بأن قيم الأشياء والمناهج  
 تختلف من زمن إلى زمن ، فما نراه اليوم جيلاً ربما كان في زمان سالف غير جميل ،  
 وقد وجد الفراء في عصره كان يحتم عليه أن يقف في مفترق الطريق بين البصريين  
 الجامعين المسرفين في تحكيم القواعد استجابة لدواعي المجتمع آن ذاك ممن دخلوا في  
 الإسلام من غير العرب ويريدون أن يتعلموا اللغة العربية على ألسنة

بعضهم من اللحن ، ويرتفع بهم من أحط المراتب إلى أعلى المناصب ، وبين الكوفيين  
 الذين تركوا الحبل على الغارب واستسلموا لكل ما سمعوه من العرب مهما خاف



القوانين ، فما يبنونه اليوم من القواعد يهدمونه غدا ولو بشاهد واحد ، فكان حتماً على الفراء ، وقد وهبه الله ما وهب من القدرة أن يقف موقفاً وسطاً بين الفريقين فيجمع بين المنهجين ، ويختار محاسن المذهبين ، فيأخذ من البصريين التقنين ، ويأخذ من الكوفيين استلهاً الروح العربية الخالصة ، واستهداء الحس اللغوي السليم ، ثم يطلع على الدنيا بهذا المذهب الجديد ، فيسميه القدماء : « أمير المؤمنين في النحو » .

ومن الجدة الجادة ما كان من مناقشات حادة حامية الوطيس بين المؤلف وبين كبار المستشرقين على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ومن أمثال المستشرق الروسي « كراتشكوفسكي » ، والمستشرق الألماني « جوتولد فايل » ، و « بركلاند » ، و « يوهان فك » ، ... الخ .

هذا إلى جانب المناقشات الكثيرة الهادئة الهادفة مثل مناقشة « ابن خلكان » ، و « ابن النديم » ، و « السيوطي » ، و « ابن منظور » ، صاحب لسان العرب .. إلى آخر ما هنالك من القدماء العرب .

أما المحدثون فكان على رأسهم فضيلة الشيخ محمد علي النجار - العضو بالجمع اللغوي ، وأحد كبار العلماء في الأزهر ، وكذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتي ، حيث ناقشهما المؤلف في مواطن متعددة وأثبت لهما عدة أخطاء ( انظر ص ٢٤٨ ) و ( ص ٢٧٠ ) وكذلك ( ص ٢٧ و ٣١ ) ومن العلماء الأعلام في العصر الحديث الأستاذ إبراهيم الإبياري ، والدكتور المخزومي ، والأستاذ المرحوم أحمد أمين ... وغيرهم كثير وكثير ممن يضيق بهم الحصر ، ويدل على مواطنهم الفهرس التحليلي بالإضافة إلى فهرس الأعلام .

#### جهود الفراء في الدراسات الدينية :

يبدو أن الفراء نذر نفسه لخدمة الدين ، فكان جل اهتمامه مركزاً في القرآن الكريم ، وما يدور حوله من الدراسات البلاغية والنحوية واللغوية على السواء ، وأكبر كتاب وصل إلينا من آثار الفراء هو كتاب « معاني القرآن » ، ومنتهحدث عنه بالتفصيل ، ومن مؤلفاته في الميدان الديني كتاب « مجاز القرآن » ، وكتاب « لغات القرآن » ، وكتاب « المصادر في القرآن » ، ... الخ .

هذا إلى جانب النزعة الدينية القوية عنده ، تلك النزعة التي جعلته يسبق النحويين واللغويين جميعا ، فيعتمد الحديث النبوى الشريف حجة في النحو واللغة على سواء ، على حين أن النحويين جميعا في ذلك العهد كانوا يردون الحديث ولا يستدلون به في وضع القواعد ، ما عدا الفراء فإنه رأى بنور الإيمان أن الحديث الشريف يستحق أن يعتمد عليه ، وأن يتخذ حجة في النحو واللغة ، وبهذا كان أسبق من جميع النحاة ، كما كان أسبق من ابن خروف الأندلسى ، ذلك الذى ذكره المستشرق الألمانى يوهان فك ، على أنه أول من احتج بالحديث الشريف ، ناسيا أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، قد سبق ابن خروف إلى ذلك بعدة قرون ، حيث توفى الثانى في أوائل القرن السابع الهجرى ( انظر ص ٨٨ و ٥١٣ ) .

ومن مظاهر النزعة الدينية القوية عنده ، أنه كان أول من نادى بمبدأ الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم ، وذلك أن طائفة من المعتزلة وعلى رأسهم إبراهيم النظام ، انكروا الإعجاز اللغوى فى القرآن ، فتصدى لهم الفراء بالرد ، ونادى بأن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق ، وطفق يرد على المعتزلة من جهة ، وعلى رواة الشعر وعلماء الاخبار من جهة أخرى ، أولئك الذين لا يريدون أن يلتزموا إعجاز القرآن فى قوالبه اللغوية ، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية ، وأثبت لهم بما لا يدع مجالا للشك بأن القرآن معجز بلفظه ومعناه ، واعتمد فى إثبات الإعجاز اللفظى على دعامتين قويتين ، هما : موسيقى القواصل ، ونزول القرآن بأفصح اللغات ( انظر ص ٣٠١ - ٣١١ ) ثم انتهج منهج الفراء من جاء بعده من العلماء الذين يعتقدون مبدأ الإعجاز اللفظى إلى جانب الإعجاز المعنوى ، وكان الفراء رائداً فى هذا الميدان ، كما هو رائد فى كثير من الميادين .

ومن الريادة فى الميدان الدينى أن الفراء كان رائد الأشاعرة فى اتخاذ مذهب وسط بين أهل السنة والاعتزال ، وقد رجح الدكتور الانصارى ذلك ، كما وضع ملامح التشابه بين الرجلين والمذهبين ، وأن الفرق بينهما إنما هو الفرق بين عصرين ( انظر ص ٩٤ ) .

### تشيع الفراء :

ومما يتصل بالناحية الدينية عند الفراء جانب العقيدة عنده ، فقد كان الفراء من الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، وكان على صلة وثيقة بتلاميذ الإمام العظيم جعفر الصادق ، رضى الله عنه وأرضاه ، وكأنى أرى ابن قتيبة الذى تأثر بالفراء فى بعض مناهجه يتقمص روحه فيعبر عنها خيراً تعبير حين يرسم منهج الاعتدال فى موقفنا من الإمام على كرم الله وجهه ، فيقول : « والسلامة لك ألا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضته ، ولا تحمل عليه ضغناً بجنائيه غيره ، فإن أنت فعلت فأنت جاهل مفرط فى بغضه ، وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . من غير أن تتجاوز به الموضع الذى وضعه به خيار السلف ، ذلك هو موقف الفراء فى تشيعه واعتداله ، وليس غريباً أن يقف هذا الموقف المعتدل ، فقد رأيناه يتخذ الاعتدال رائده ، ويرتفع بشخصيته القوية على كل تعصب مذهبي مقيت ( انظر ص ٩٦ - ١٠٨ ) .

### معانى القرآن :

ولنعد إلى « معانى القرآن » ، ذلك الكتاب الذى ألمعنا إليه منذ قليل ، وترجع أهمية المعانى إلى قيمته التاريخية حيث أنه أول تفسير نحوى وصل إلينا يمتاز بدراسة القرآن الكريم من حيث التراكيب والإعراب إلى جانب الشرح والتفصيل ، كما أنه اشتمل على أفانين أخرى غير الجانب النحوى ، تلك التى يشترك فيها كثير من المفسرين .

كما ترجع قيمته التاريخية والموضوعية إلى أنه حفظ لنا أول حديث مستفيض عن القراءات والاحتجاج لها ، كما أنه حفظ لنا أول بحث فى ظاهرة الموسيقى القرآنية وتبناها فى رموس الآيات ، هذا إلى جانب ثروة من المصطلحات المبتكرة التى اصطنعها الفراء وتأثر بها الكوفيون والبغداديون من بعده ، إلى غير ذلك من كل طارف وتلبد ، ثم هو بعد هذا وذاك أكبر كتاب وصل إلينا من آثار الفراء ، وتبرز أهمية المعانى فى أنه يمثل مرحلة القمة عند أبى زكريا الفراء ، حيث ألفه وهو يناهز الستين ، وقد أودعه جميع معارفه فكان أشبه ما يكون بدائرة معارف الرجل .

ولهذا لا نستبعد الروايات التاريخية التي أشادت باهتمام الناس وتوافدهم ، بل تواكبهم على مجلس الفراء حين الإملاء في المسجد الجامع حتى عجزوا عن إحصاء هذا الجرم الغفير ، وغاية ما استطاعوه أنهم حصروا عدد القضاة فكانوا ثمانين قاضياً ، كما ذكر ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » .

ولم هنا اقتضب الحديث اقتضاباً عن « معاني القرآن » ، ومن شاء المزيد فعليه بالفصل الممتع في كتاب « أبو زكريا الفراء » ، ص ٢٦٧ - ٣٤٩ .

كما أنني أطوى الحديث عما وعدت به في أوائل المقال من عرض الجانبين ، النحوي واللغوي ، مدخراً ذلك إلى فرصة قادمة إن شاء الله ، علماً تسنح لي أو للمؤلف أو لمن شاء من الزملاء الفضلاء .

#### مأخذ على المؤلف :

... أو بعبارة أدق هي وجهات من النظر اختلف فيها مع المؤلف ، ولا ضير على أيان في هذا الاختلاف ، من ذلك :

أن الكتاب مركز غاية التركيز بحيث يصعب على القارئ المتوسط أن يستوعبه كله ، وإن كان يستمتع به وينفع منه إلى حد كبير ، بل إنني أرى أن بعض الخاصة من العلماء قد يدق عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى بعض المواطنين في هذا الكتاب ... هذا تقديرى ... مجرد تقدير أرجو أن أكون خاطئاً فيه ، ولعل المؤلف يدافع عن نفسه بأن هذا الكتاب رسالة جامعية للدكتوراه ، وكلما اقتدر الكاتب على التركيز ارتفعت قيمة الرسالة العلمية ، غير أن هذا الدافع لا يعفيه - في نظري - من التيسير وهو به جدير وعليه قدير ، فكان في إمكانه بعد المناقشة وقبل الطبع أن يبسط بعض ماركز ، وأن يسهل بعض ما صعب ، ولعله يستدرك ذلك في الطبعة التالية إن شاء الله .

كما أنني آخذ على المؤلف قسوته في بعض المناقشات مثل ما حدث في مناقشة المستشرق الروسي « كرتشكوفسكى » ، وغيره من العلماء .

كما أنني أوافق الأستاذ عبد الحميد حسن عضو المجلس الأعلى في وجهة نظره ضد الدكتور الأنصارى حين أخذ عليه توسعه في ترجمة الكسانى ، أقول هذا مع

تقديرى لحجة المؤلف ، ودفعه المقبول بأن الكسائى شيخ مباشر للفراء ، بل هو أشهر شيوخ الفراء على الإطلاق ، فكان من حقه أن تسلط عليه كل الأضواء لتبين من خلالها مدى تأثيره فى تليذه الفراء .

هذا إلى أننى أوافق الدكتور الأنصاى وأخالف الأستاذ عبد الحميد حسن فى ملاحظة أخرى ، وهى إطالة المؤلف فى موضوع « الفراء والأدب » ، وبالرجوع إلى هذا المبحث تبين لى أنه مطابق لمقتضى الحال لا إسهاب فيه ولا تركيز ، وإنما هو من قبيل المساواة إن صح هذا التعبير .

هذا حكى على المبحث وهو مطبوع ، أما حكم الأستاذ عبد الحميد حسن فكان حكما عليه وهو مخطوط قبل الطبع ، ولعل قلم المؤلف جال فيه بالحذف والتعديل استجابة لتلك الملاحظة ، فجاء على ما نرى من المساواة والمطابقة لمقتضى الحال .

ومهما يكن من شىء فإنها وجهات من النظر يختلف فيها الباحثون حسبما يترأى لهم طبقا لظروفهم ، بل إنه أحيانا يختلف فيها الباحث الواحد مع نفسه إذا ما تغيرت الظروف وتبدلت به الأحوال ، من طور الشباب إلى طور الشيخوخة مثلا .

« وبعد ، فإست أدرى كيف أقدر مدى الجهد الذى بذله المؤلف فى إخراج هذا الكتاب القيم ، فكان مثلا أعلى للدراسة الجادة المتعمقة ، ونموذجا حيا للبحث المنهجى الدقيق ، ومناراً شعاعاً يهتدى به الباحثون مدى القرون ، وقد أهدته الجامعة أثمن ما تهديه لأبنائها كما يقول الدكتور طه حسين ؟ »

## رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للنودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخرّوا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها فعلياً أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطه .

\*\*\* \*\*

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

## من القانون الأساسي لجماعة التقريب

### المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : -

أ - العمل على جمع كلّة أرباب المذاهب الإسلامية و الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

## فهرس

٣	كلمة التحرير
٥	تفسير القرآن الكريم . . . . . الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت
١١	معالم التقريب . . . . . للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى
٢٠	طرائف فى لقاء ابن خلدون وتيمورلنك
٢٤	من ثمرات المعقول والمنقول . . . . . للشاعر الكبير الأستاذ على عبد الواحد وافي
٢٩	فى القصص القرآنى . . . . . لحضرة الأستاذ أحمد الناب
٥٧	[ الثروات الطبيعية والتصنيع ] [ من خلال آيات القرآن الكريم ]
٥٩	تعريف بالقرآن . . . . . للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
٦٩	[ منهج الإسلام فى إصلاح ] [ عقائد الألوهية والربوبية ]
٨١	الدعوة إلى العامة وأسرارها . . . . . لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن الهامى
٨٩	جلال الدين مولى . . . . . للدكتور محمد غنيمى هلال
٩٦	أبو زكريا النراء . . . . . للدكتور أحمد بكى الأنصارى

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالية  
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

جاءى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ

أكتوبر سنة ١٩٦٤ م

رئيس التحرير : محمد محمد الدنف مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩  
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمراً، أو ما يكاد لها



# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ  
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كليلة والنحو

أيها القارئ الكريم : هذه باقة عطرة من الحكم والوصايا في أدب الصبغة ،  
جمعتها لك لتتنسم أريجها في الحين بعد الحين :

• قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

• قال شبيب بن شيبه : إخوان الصفاء خير مكاسب الدنيا ، هم زينة في الرخاء ،  
وعدة في البلاء ، ومعونة على الأعداء .

• وأنشد ابن الأعرابي :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائر

• قيل لبزرجهمر : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال :  
أخي إذا كان صديقاً .

• وقال أكرم بن صيفي : القرابة تحتاج إلى مودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة .

• قال علقمة الطاردي رحمه الله - لما حضرته الوفاة - يوصي ابنه :

يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ،  
وإذا قعدت بك مشونة مانك . اصحب من إذا مددت يدك للخير مدها ، وإن  
رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى منك سيئة سدّها .

• إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفك !

ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك !

- قال أهل التجربة :
- خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك ١ .
- إياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء .
- وقيل لبعض الولاة : كم صديقا لك ؟ فقال لا أدري ؛ الدنيا مقبلة على الناس كلهم أصدقاؤى ، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عني ١ .
- إذا سألت أخاك حاجة فقصاها فاشكر الله تعالى واشكره ، وزن قصر فلا تعاتبه ولا تشكك لأحد ، وكن كالمرء من يطلب المعاذير ، ولا تكن كالمنافق يتلصص العيوب ١ .
- الناس ثلاثة : أحدهم مثله كمثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله كمثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ، ولكن المرء قد يبتلى به ، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع ، فتجب مداراته إلى الخلاص منه .
- قال الإمام على رضى الله عنه : لا تقطع أخاك عن ارتياح ، ولا تهجره دون استعتاب .
- لا تنظر إلى من أوتوا حظوظ الدنيا بعين التعظيم لهم في حظوظ دنياهم ، فإن الدنيا صغيرة عند الله ، صغير ما فيها ، ومتى عظم أهل الدنيا في قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى . وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم ، فإنك إن فعلت ذلك صغرت في أعينهم ثم حرمت ما عندهم . واقطع طمعك عن ما لهم وجاههم ومعونتهم ، فإن الطامع غالبا خائب في المال ، وهو ذليل - لا حالة - في الحال ٢

محمد محمد المديني

# نفسية القرآن الحكيم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني



يقول الله تعالى في سورة الأنعام :

« قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم : أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقيماً فانبهضوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، .

ليس من غرضنا أن نفسر هذه الآيات تفسيراً تفصيلياً نعرض فيه للألفاظ والأسلوب ووجوه البلاغة ، ولكننا نعرضها عرضاً عاماً يتبين منه أنها تضمنت أهدافاً كبرى من الأهداف الأولى للإسلام ، وأن هذه الأهداف هي أسس قوية لبناء مجتمع سليم .

ويرجع كلامنا في هذا إلى نقطتين :

الأولى : بيان حال المجتمع الجاهلي إجمالاً .

الثانية : دراسة موجزة لهذه الوصايا العشر تبين بها قيمتها في الإصلاح ، وغاية الإسلام من تقريرها ، ثم تبين السر في مجيئها ثلاث مجموعات في ثلاث آيات ، والسر فيما ختمت به كل آية منها .

## (١) بيان حال المجتمع الجاهلي إجمالاً :

من المعروف أن مجتمع الجاهلية والشرك كان مجتمعاً متناقضاً لا يصدر عن مبادئ واحدة يراها المنطق السليم ويرى آثارها في كل خلق وعمل .

فبينما كان القوم أهل نزعة تدفنية ورثوها عن آبائهم وعمما قبلهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل ، كما يظهر في اهتمامهم بالحج ومناسكه ، وفي أنهم كانوا يهتمون بمناصب السقاية والسدانة ، ويحفظون لكل بيت بما ورثه في ذلك ، إلى غير هذا مما يصور نزعتهم إلى الدين ؛ فإننا نجد من جانب آخر متحللين يرتكبون الموبقات ، ويأتون الكبائر ، ويقتلون أولادهم من إملاق أو خشية إملاق ، ويدون بناتهم خوف العار ، ويتجرعن الموت على الدماء الحرام فيفسكونها ، وعلى الأموال الحرام فيأكلونها ، ويرتكبون العواش ما ظهر منها وما بطن ... إلى غير ذلك .

وبينما نراهم أهل كرم ونجدة حتى كان الواحد منهم ربما ذبح ناقته التي لا يملك غيرها ليكرم بها ضيفاً نزل عليه لا يعرفه ، وحتى كان أحدهم إذا استصرخ أنجد من استصنرحه دون أن يسأله لماذا استصنرحه ، وعلى من استصنرحه ، ولكنه يخف إليه بسيفه في طرفة عين ، ومع هذا نراهم يستبيحون أن يسلبوا الناس أشياءهم ، وأن يقتلوا المارة ، ويغنموا متاعهم وبضاعتهم ، وأن يفعلوا هذا أحياناً لا لشيء إلا لكي يظهروا شجاعتهم وبطولتهم ، ويتحدثوا بذلك في أشعارهم ، وكلهم في هذه الناحية من أخبار وأشعار :

وهم قوم يغارون على الحرمات ، ومع ذلك ينتهكونها ، فالمرأة العربية كانت موضع شد وجذب : زوجها وأهلها يريدونها حرة عفيفة ، والفتاك والعشاق من حولها يراودونها بالشعر والغزل والمغامرات .

وكانوا مع غيرتهم ربما سمحوا أن تذهب المرأة منهم إلى رجل ذي منزلة في المجتمع فتمكنه من نفسها ، لتشر من هذا التمكين ولداً يشبهه .

ولو ذهبنا نستقصي ألوان التناقض في المجتمع العربي قبل الإسلام لطال بنا الأمر، وإن ذلك المعروف مشهور .

ولذلك كان من منطق الدعوة الإسلامية وقد استعلنت وظهرت بعد السرية والاختفاء ، أن تضع برنامجاً إصلاحياً لهذه الجماعة المنحلة المضطربة المتناقضة ، فجاءت هذه الوصايا ، كبادئ عامة ، وعبر فيها بلفظ « التوصية » ، لأنه لم يكن قد بدأ دور الأحكام التفصيلية بعد ، تلك الأحكام التي تعطي هذه المبادئ عناية تجعل من كل منها قانوناً منسقاً ذا جزئيات ومواد .

أعطى الإسلام هذه المبادئ العامة لهذا المجتمع الطائش النزق المضطرب ، فكان أشبه بالذي يبني صرحاً فيبدأ بأركانه الكبرى وحيطانه وأعدته .

وإذن فتلك الوصايا أسس أعلنها الإسلام ، وقرر أن يقيم عليها صرح المجتمع ، فلنقف قليلاً أمام هذه الأسس موقف المتأملين :

\* \* \*

## ( ٢ ) دراسة موجزة للوصايا العشر :

جرت السورة - في تقرير هذه الوصايا - على عاداتها ، فأمرت الرسول بلفظ « قل » ، على سبيل التلقين له ، لكي يشعروا من أول الأمر بأن هذا بيان إلهي ليس الرسول فيه إلا ناقلاً مبلغاً : « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم » .

وهذه العبارة التي قدمت بها الوصايا فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التي قام عليها الجدل في السورة قد أصبحت واضحة ، لا مفر من قبولها والبناء عليها ، فآله تعالى يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذي يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب « ما حرم ربكم » ، ثم هناك لازم عقلي لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضباً للرب الذي قرره ، مستحقاً لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء ، ولننظر بعد ذلك في الوصايا :

الوصية الأولى : من هذه الوصايا هي قوله تعالى : « أن لا تشركوا به شيئاً » .

وهي الأساس الذي يصلح عليه أمر الناس ، فإن المجتمع الذي يقوم على إثبات الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالي السعيد ، أما المجتمع الذي يشرك بالله أحداً أو يشرك بالله شيئاً ، فإنه مجتمع منحل تسيره المادة الصماء التي لا روح فيها ، ولا صلاح ولا قرار معها .

وقد عبرت الآية الكريمة بعبارة جامعة لنوعين من الشرك ، حيث قالت : « أن لا تشركوا به شيئاً » ، بيان ذلك : أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان : شرك في العقيدة ، وشرك في العمل :

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ، وغير ذلك من التماثيل التي كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتها ولعناتها ، فترعد فرائصهم منها خوفاً وقرَفاً .

ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان في التخبط والعمالة كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً في التاريخ يعتقدونها إلا ذوو الأحلام الضعيفة ، والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم كثيراً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً .

وهذه العقيدة مُودية بصاحبها في الدنيا قبل أن تُودي به في الآخرة ، وحسبنا أن تتصور رجلاً في مجتمع مفكر - ولا سيما في عصرنا الحاضر - وهو يؤمن في قرارة نفسه أن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أي خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال المشرك به تصويراً رائعاً يمثل



معاني الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال ، فيقول في آية أخرى :  
 « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع اضطراب هؤلاء المشركين القدامى ، وما كان في مجتمعهم من شر وفساد .

ولا أظن أنه بقي على ظهر الأرض من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، وإذا كان هناك بقايا من مثل هذه الوثنية الأولى ، فأنها ليست بذات شأن ، ومع ذلك فهي صائرة إلى الانقراض السريع .

لكن هناك نوعاً آخر من الشرك ما يزال باقياً ، وسوف يطول بالإسانية أمدّه ، وهو أشد خطورة من الناحية العملية ، وأكبر ضرراً على المجتمعات من شرك الأوثان والكواكب والأحجار ، ذلك ما سميناه : « بشرك العمل » ، وهو إيثار ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فإنه لا يكفي أن تؤمن النفسُ إيماناً سليماً داخلياً بأن الله هو مالك النواصي والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل ، بل يظهر في الأعمال ، والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ، ولا حياة به ، ولا يجد ما يصدقه ، إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إيثار شيء على الله « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، .

وقد وصف القرآن الكريم المائلين للأهواء ، المتبعين للشهوات ، بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً ، إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين » ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد

إلى الأرض واتبع هواه ، ، ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه  
وكان أمره فرطاً ، ، ، رأيت من اتخذ إلهه هواه أمانت تكون عليه وكلا ؟  
أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، ،  
« بل اتبع الذين ظللوا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله ، » .

وبهذا تبين أن أول وصية من هذه الوصايا العشر ، هي أول أساس في بناء  
المجتمع السليم الذي يقوم على الإدراك الصحيح لأول حقيقة ، وعلى العمل بقضى  
هذا الإدراك في كل شأن من شئون الحياة .

الوصية الثانية : « وبالوالدين إحساناً » ، وقد قرن الله تعالى هذه الوصية  
بالوصية الأولى التي هي توحيدة وعدم الإشراك به ، في هذه الآية وفي غيرها من  
الآيات ، مثل قوله جل شأنه : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين  
إحساناً » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » ، « أن اشكر لى  
ولو الديك » ، وفي ذلك إحياء بعظم هذه الوصية ، وتذنيه إلى أن معنى واحداً يجمعها  
مع الأولى ، هو أن المنعم يجب أن يُشكر : فالوالدان سبب في حياة الولد ، فيجب  
أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله سبحانه وتعالى هو الخالق المنعم ، فيجب أن  
يُشكر ويُفرد بالعبادة والتوجه .

وإن المجتمع لا يمكن أن يصلح إذا بطل هذا المبدأ ، مبدأ الإحسان بالوالدين ،  
لأنه حينئذ يكون مجتمع تنكران ولؤم ، وما أفظع أن ترى أحد الأبناء يتمتع بالجاء  
والمال وملأذ الحياة ، وأبواه فقيران يصارعان الحياة ويجاهدان العيش ، وهذا  
الولد قاس غليظ القلب لا يشعر أو لا يريد أن يشعر بأن لها عليه حقاً ، إن هذا  
لأسوأ أنواع الجحود والتكران .

وينبغي أن يُعلم أن في الحرص على الإحسان بالوالدين توجيهاً إلى الإحسان  
بالأخوة والأقارب ، وذلك أن الولد البار بأبويه يجد لزماً عليه أن يصبر من  
أجلهما على ما عسى أن يلاقيه من تنكر أخوته أو أقاربه له ، وحسبهم إياه . فإن  
الحسد طبيعة في الناس ، وهو في الإخوة والأقارب معروف مشهور ، كما يجد لزماً

عليه أن يحسن إلى هؤلاء المنتسرين له وإن أساءوا إليه ، فإن ذلك يرضى والديه ،  
وبشرح صدرهما ، ولعله أيضا أن يؤدي إلى استلال عوامل البغض : « ادفع بالتي  
هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

الوصية الثالثة : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

ولا شك أن الحياة حق لكل من خلقه الله ، وأن الله تعالى هو الكفيل  
برزق كل من خلق ، فإذا استباح أحد أن يعتدي على ولده فتقتله ، فإنه لا بد  
أن يكون معتل الطبع ، أو مختل العقل ، فإن الولد بضعة من الوالد ، والشأن  
حتى في الحيوان أن يضحي الوالد من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب  
في سبيلهم .

فالمجتمع الذي يبيع قتل الأولاد خوفاً من الفقر أو خوفاً من العار ، لا يمكن  
أن يصلح شأنه ، لأنه حينئذ يكون مجتمعا أفرادة نفعيون ذوو أثره ومادية طاغية ،  
ويكون في الوقت نفسه مجتمعا أفرادة خياليون تطغى عليهم الآوهام ، ويخيفهم  
المستقبل فيروونه قائما مظلما إلى درجة أنهم يظنون أن الله تعالى يخلق خلقا  
ثم لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ثم إلى درجة أن يتخيل المتخيل منهم أن هذه  
الأنثى ستكبر ثم تنجوج ، ثم تزل ، فتصيبه بالعار ، وأى عار أكبر من أن يكون  
مثل هذا التفكير رائده وباعثه وموجه ؟ فهل يرتكب العار المحقق ، توقيا من  
عار متوهم ؟

وما زال في الناس من يقتلون أولادهم بإجهاض الحوامل ، ويقولون : إن  
تكاليف الحياة شاقة ، وإن الأبوين في هذا الزمان لا يستطيعان القيام بشئون  
أولادهما ، ولا يقدران على مطالبهم الكثيرة ، لذلك يستبيحون قتل الأولاد عن  
هذا الطريق ، طريق الإجهاض ، وإنهم لظالمون .

الوصية الرابعة : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

والفواحش هي كل فعل تنكره العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، وقد تعلق  
التحريم فيها بهذا الوصف الذي يشعر بالعلة - كما يقول علماء الأصول - فكأنه

قال : إن كل فعل من الأفعال تستقبه العقول فهو فاحشة يجب أن يبتعد عنها ، ولا شك أن هذا مما تصلح عليه المجتمعات . وتستقر به المثل الفاضلة فيها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك د فواحش ، يجب أن تجتنب ، ود محاسن ، يجب أن تلتزم ؛ هو المجتمع الذى يكون له أهداف ومثل ومقاييس ، أما المجتمع الذى يسوئ بين القبيح والحسن ، ويقوم على الفلسفة الإباحية التى لا تفرق بين ما يفعل وما يترك ، فلكل إنسان فيه أن يفعل ما يشاء غير مقيد ، وتلك هى الفوضى وبوادى الانحلال .

الوصية الخامسة : د ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، .

والقرآن الكريم ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بنه الله ، فلا يحق لأحد أن يهدمه ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانية كلها د أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا .

وفى ذلك تقرير للبدا الأول والأهم الذى تستقر عليه حياة البشر وأمنهم ، فإن الإنسان - كسائر الحيوان - يعتمد على القوة وتنازع البقاء ، فإذا ترك إلى طبيعته ؛ عمد إلى قوته فاتخذها سييلا إلى قضاء مآربه ، وإزاحة كل من حال بينه وبين هذه المآرب من بنى جنسه ، عن طريق سفك دمه ، وفى هذا ما فيه من تفانى هذا النوع وانقراضه ، وفيه كذلك انتشار الخوف بين الناس ، وفساد حياتهم ، واستحالة تعاونهم المثمر بسبب فقدان الثقة ، وفيه إهدار للكرامة الإنسانية ، واستهانة بهذا النوع الذى جعله الله خليفة فى الأرض ، لكن إذا تقرر أن من قتل نفسا بغير حق ؛ كان كمن قتل الناس جميعا ، لأنه اعتدى على النوع كله باعتدائه على فرد منه ، ولأنه فتح باب الضراوة والبغى وهدم ما بنى الله ، فإن الناس حينئذ يشعرون بكرامة هذا النوع شعوراً يبعثهم على التعاون فى الضرب على يد المعتدى ، واعتبار أنفسهم معتدى عليهم ، ومن

واجبهم رد هذا العدوان ، فيوجد التكافل على حفظ الحياة ، والتضامن على إقرار الأمن والسكينة .

وقد نسي الناس في عصرنا الحاضر هذا المبدأ الذي قرره الإسلام باسم الإنسانية كلها : مبدأ التضامن في الضرب على يد المعتدى . فأصبحنا نرى من يعتدون على شعوب بأكملها ، ومن يقتلون الناس حصدا بآلات التدمير والإفناء الشامل ، دون رحمة ولا تورع ، ثم لا يجدون من يحاسبهم على ما فعلوا ، ولو تضامن الناس وجعلوا هذا المبدأ شعارهم ؛ لارتدع الظالمون ، وكف المعتدون .

هذه هي الوصايا الخمس التي تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث ، وكلها تشترك في معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة في نفسها ، متقرررة بذاتها ، ولم يكن ثبوتها وتقرررها إلا تجاوزاً مع الفطرة وحكم الطبيعة : فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة إيماناً عقيدياً وعملياً أم لم يؤمنوا ، وشكر النعمة يقتضى الإحسان بالوالدين طبعاً ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، فلا يسوغ للوالدين أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر أو العار ، والفواحش غش ونكر في ذاتها فيجب أن تجتنب ويبتعد الناس عنها ، والنفوس معصومة ، وهى صروح بناها الله فليس لأحد أن يهدمها ، وليس للإنسانية أن تتهاون في شأنها .

ولاتفاقها كلها في هذا المعنى جاءت في آية واحدة ، وخُصِّمت بعبارة تفيد أن أن هذا مرجعه إلى حكم العقول ، لعلكم تعقلون ، وسبأنى مزيد بيان لمر هذا التذييل وغيره مما ذيلت به الآيات الثلاث .

الوصية السادسة : وهى أول الوصايا في الآية الثانية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالآتي هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

واليتيم عارض يعرض في كل مجتمع ، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى ، وأن تحافظ على صلاحهم في أنفسهم وفي أموالهم ، وذلك لأن الإنسانية مشتركة في العاطفة ، ومن شأن أفرادها أن يتأثروا بما يصيب الآخرين وبما يصير إليه أبناء الذين ماتوا ، لكن الناس قد ينسون هذه العاطفة أحيانا ، طمعا في مال

اليتيم ، فأول ما يدخل على قلوبهم من التغير في ذلك ، إنما يأتي من ناحية المال والطمع فيه ، فاحتاجوا إلى أن يُوصَّوْا بالألا يقربوا هذا المال ، وهي عبارة بليغة ذات تأثير قوى ، فإن النهى عن قرب الشيء أبلغ من النهى عن تناوله ثم استئنت العبارة من يكون من القرب الذى هدفه الإصلاح لهم ، وبذل الوسع في تحقيق ما هو أحسن لملهم ، وهذا يدل على وجوب الاحتراس في النية وفي العمل ، جميعا ، فلا يكفي أن تكون نية الأوصياء على النية حسنة ، ولكن عليهم أيضا أن يسذلوا غاية الوسع ليحققوا لهم في كل تصرف ما هو الأحسن والأمثل والأعود عليهم بالمصلحة ، ومن الواضح أنه لا يقصد بذلك مجرد تنمية أموالهم ولو على حساب تربيتهم الخلقية والعلمية ، فإن ذلك لا يكون هو الأحسن ، إنما الأحسن هو أن يعامل اليتيم كما لو كان ابناً لمن يعامله من الآباء الصالحين ، الواعين ، المخلصين .

ولا شك أن هذا لون من التعاون الاجتماعى لا بد منه في صلاح الناس ، واحتقامة شئونهم .

الوصية السابعة : د وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها . .

وهذه الوصية هي مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

ومثل ذلك كل تعامل ولو لم يوزن البدل فيه أو يضبط بالكيل ، فيجب أن يكون الأساس هو إعطاء الحق ، وأخذ الحق ، أما من يريد أن يأخذ لنفسه كل ما استطاع ، ولا يعطى في مقابل ذلك كل ما عليه أن يعطيه ، فإنه من المطففين الذين يقول الله تعالى فيهم : د ويل للطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . .

والمجتمعات الراشدة هي المجتمعات الواعية التي لا تجد فيها أحداً يغبن عن جهل

أو غفلة ، وهى أيضا المجتمعات الآمنة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه ، أو يعطى أقل مما يجب عليه .

ولذلك قلت إن الحديث عن الكيل والميزان والقسط فهما ، يكن فيه مبدأ القسط فى التعامل عامة ، وفى تبادل المصالح الاجتماعية كلها .

وقد أتبع هذا المبدأ بقاعدة من قواعد الإسلام الميسرة الرافعة للحرَج ، وهى قوله تعالى : « ولا تكلف نفسا إلا وسعها » ، وذلك لأن التبادل التجارى أو المصلحى كائناً ما كان ، لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة والتعادل ، فلا بد من تقبل يسير من الغبن ، فى هذا الجانب أو ذاك ، ومثل هذا يغتفر ويهون أمره . وعلى هذه القاعدة تُخرَّج كثير من المعاملات ، التى أبيضحت مع تضمنها معانى لو نُظر إليها لحرمت ، ومن هذا القبيل الرخص المستثناة دفعا للحرَج فى التعامل .

الوصية الثامنة : « وإذا قلتم فاعدلوا » ، والعدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول ، والعدل فى الحكم ، والعدل فى الشهادة . والعدل فى كل فعل .

ولإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى القول والفعل لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم : ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال ، فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية ، يتحدث نفسه فى شأنها ، ويراوده معنى العدل ، وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقا فى هذا القول فقد جانى العدل ، وقال غير العدل .

والفرض ألا يحدث الإنسان نفسه فى أى قول أو عمل إلا بالعدل ، ومن شأن أحاديث النفس أن تكون بواعث على الفعل ، وبوادر له ، فإذا صلحت أحاديث النفوس ؛ صلحت الأفعال غالبا .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الوصية بعبارة أخرى فى آيتين غير هذه الآية ، إحداهما فى سورة النساء ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، والثانية فى سورة المائدة ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، وقد طلب الله تعالى في هاتين الآيتين إلى المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولم يجعل القوامية ، لهذا غير القوامية ، لذلك ، ولا الشهادة بهذا غير الشهادة بذلك ، ليُعَلِّمنا سر تسميته جل جلاله باسم العدل .

الوصية التاسعة : « وبعهد الله أوفوا » والوفاء أصل من أصول الاجتماع التي يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس ، ويكون بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين الدول والأمم ، والقرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعقود عامة ، فيقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ويقول جل شأنه : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يلوكم الله به ، ولبيدن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون .

وهذه آية جامعة في شأن الوفاء بالعهد : شددت في النهي عن نقض الأيمان بعد تركيدها ، والأيمان هي العهود والمواثيق التي يتخذها الناس بعضهم مع بعض ، وحذرت من الله الذي يعلم ما يفعل الناس ، ويطلع على نواياهم ، ويعرف مقاصدهم ، والذي جعلوه كفيلا عليهم أى ضامنا وشاهدا متكفلا بعقوبة كل من تخذله نفسه بالنقض والنكث ، وصورت الناقض لعهده بامرأة تنقض غزلها بعد قوة ما أتمته وأخرجته قويا متينا ، فتعيده أنكاثا ، ولفتت إلى أسباب النقض غالبا ، وهي شعور الأمة الناقضة الناكثة بقوتها في المادة أو العدد أن تكون أمة هي أربى من أمة ، وهذا أمر نشاهده بأعيننا ، فما تعودت الأمم الضعيفة أن تنقض عهودها مع الأمم القوية ، ولكن الأمم القوية الطاغية بقوتها هي التي تنقض العهود عادة ، بل هي التي تبرمها لتنقضها ، ولا يبعثها على هذا النقض إلا شعورها بقوتها وكبرتها ، فافقه تعالى يحذر من هذا الخلق الدولى ، ويعرف الناس أن القوة والكثرة والنماء في الأمم إنما هي ابتلاء ، أى امتحان واختبار ، كما جرت بذلك سنته



تعالى فى الأفراد ، فما من أمة أعطاه الله القوة والكرّة والهيبة ثم جارت فى حكمها ، ونقضت عهودها ، وتنكرت للعدل ، وطمعت فى غيرها ملبية داعى الجشع ، إلا أخذها الله بظلمها « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة » ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .

وآيتنا فى سورة الأنعام تذكر هذه الوصية بلفظ موجز ، ولا تفصل فى شأنها كما فصلت الآية التى ذكرناها ، وسر ذلك كما قلنا من قبل أن سورة الأنعام تضع الأساس والمبادئ ، ولا تكاد تفصل شيئا إلا ما تستلزم البيئة العربية يومئذ تفصيله ، ومع ذلك فإن هذه العبارة الموجزة التى جاءت بها الوصية فى هذه السورة « وبعهد الله أوفوا » قد وفّت بأصول هذا المبدأ ، حيث ذكرت أن الله عهدا : وأن عهد الله يجب الوفاء به ، وكل عهد يقوم على أساس من الحق والعدل فهو عهد الله ، سواء كان بين فرد وفرد ، أو بين أمة وأمة ، وهذا يشعر بأن عهدك عهوداً غير جدية بأن تنسب إلى الله ، وهى العقود أو العهود القائمة على الظلم أو الباطل أو الفساد ، فمثل هذه العهود غير جدية بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها إذا كانت بين أمة وأمة ، كما يجب أن ينظر فى إصلاحها أو إلغائها إذا كانت بين الأفراد ، وللفقهاء فى العقود تفصيلات ذات صلة بهذا المعنى ، يبينون فيها العقود التى تنعقد والتى لا تنعقد ، والعقود الفاسدة التى تقبل الإصلاح ، وغير ذلك .

وهذا يتبين أن الإسلام دين الوفاء ، وأنه يجعل للوفاء شأناً عظيماً فى المجتمعات الداخلية ، وفى المجتمع الدولى على حد سواء .

وقد انتهت بهذا الوصايا الأربع فى الآية الثانية ، وسنعود إلى حديثها مرة أخرى لتبين السر فى تذييل هذه الآية بقوله تعالى : « لعلكم تذكرون » ، ومنه يتبين السر أيضاً فى جعل الوصايا الأربع مجموعة واحدة فى الآية الثانية ، كما جعلت الوصايا الخمس الأولى مجموعة واحدة فى الآية الأولى .

الوصية العاشرة : « وأن هذا صراطى مستقيماً ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وهذه الوصية الأخيرة هي الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق ، في العقائد والحقائق الأولى . وفيما يأتي بعد ذلك من التشريع والأحكام .

والله تعالى يدرف عباده بأن الصراط المستقيم واحد ، وهو الصراط المنسوب إليه - سواء جعلنا الضمير في قوله تعالى : « وأن هذا صراطي » لله أو للرسول ، فإن صراط الله هو منهجه الذي رسمه وأوحاه إلى الرسول ، وصراط الرسول هو المنهج الذي جاء به من عند الله - أما غير ذلك من المناهج ، فهي سبل مختلفة متفرقة مفرقة ، ولذلك أفرد الصراط المستقيم ، وجمع السبل وعقبها بما يدل على أن التفريق من شأنها ، فقال : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

\*\*\*

هذه هي الوصايا العشر في سورة الأنعام ، التي غنيت بتقرير الأهداف الأولى للإسلام ، وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ، إلى قوله : « لعلكم تتقون » .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم ، إلى ثلاث آيات ، ثم قال : « فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فآدركه الله في الدنيا كانت عتوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه » .

محمد ﷺ

# معالم التقريب

للعلمة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

- ٣ -

من المسائل التي قد يقف بها المتأمل في مناهج الدعوات الإسلامية المعاصرة -- ومنها التقريب -- : مسألة المفاضلة بين الأغراض المحدودة ، وبين الأغراض الضخمة العامة الشاملة . ومنزلة الغرض المحدود - من حيث إجداد الدراسة والتنفيذ وربطه بالواقع وظروفه وفرص النجاح - لا تخفى ، ومنزلة الغرض الشامل الضخم - من حيث الجاذبية ويسر القبول وعظم التأثير في النفوس - واضحة .

ومعظمنا حين يتحرك اهتمامه بدينه ، ينظر إلى الإسلام من على نظرة شاملة يشعر معها بالشجور لقصر أهله والرائاء لخالهم ، ويجد فكره مسوقاً إلى استعراض مشاكل المسلمين كما يتخيلها ، وإلى التماس حلول لها ، وإلى أن يفضى بذلك لمن عساه بسمع ، أو يكتب عنه لمن عساه أن يقرأ . وهو في هذا يقف ، ووقف الطبيب من المرضى مفترضاً أنه طبيب وحيد ، وأن مرضاه وهم قرابة ثلاثمائة مليون لا يمكن أن ينتظروا منه أكثر من أفكار أو نصائح أو صفات مقولة أو مكتوبة ليس عليه منها تبعة ولا عهدة إذا لم تصدق أو تنفع ، وكل منا قد مر في الغالب بمثل هذا الموقف ، وحاول مرة أو أكثر من مرة أن يقوم بدور طبيب الملايين على هذا النحو ، وهو يظن أن مسلي العالم يرتقبون العلاج والإصلاح على يديه ، وقد طاب له الشعور بنشوة الفارق بين ما في وضع الطبيب أو المصلح من كمال ، وما في حال المحتاجين للعلاج والإصلاح من نقص .

ووراء ذلك مع الغيرة على الإسلام ، قدر قليل أو كثير من الرغبة الغريزية في التصدر والقيادة والأهمية ، وقدر قليل أو كثير من الحرص الغريزي على إشباع رغباتنا بأقل ما يمكن من المشقة والجهد والمخاطر وبأكثر ما يمكن من

الأمن والدعة والعافية . ووراءه أيضا عادات فكرية ونفسية عودتنا إليها ظروف حياتنا الحاضرة ، أعانت عليها المطبعة والصحافة في اعتمادها الكلى على الجماهير والكتل ، فإن كل شيء يعرض أو يُعرض له بكيفية أو بأخرى في الصحف وغيرها من أدوات النشر على كل إنسان ، ومع دعوة ضمنية أو صريحة لكل إنسان بأن يرى فيه رأيا معيناً أو غير معين ، وقد ألف قارئ الصحيفة لمجرد أنه يستطيع قراءتها ، أن يعالج بلا احتفال ولا روية أى شيء وهو في مقعده من بيته أو مقهاه ، سواء تعلق بأمور الحرب أو السلام أو شئون السياسة المحلية أو الدولية أو أحوال المجتمع في بلده أو في بلاد الدنيا ، وهو يرى في ذلك اهتماماً بالمسائل العامة يشهد له في بيته باليقظة والثقافة . ومهما يكن من مزايا هذا الاعتياد فلا شك أنه يحى لدى كثير من الناس إحساساً كاذباً بالعلم والخبرة والجدارة . وشعوراً طفلياً بسهولة تغيير أوضاع الحياة ويسر تحويلها وتشكيلها ، وجرأة بلهاء على مناهضة نواميس الله وتحديها ، كما يضعف لدى كثيرين البصيرة والإحساس بالنسب بين الأشياء ، وبالفروق ، وبقيمة الزمن ، والشعور بمعنى الواقع وصلابته وصلة الواقع بالممكن ، وأنه هو الذى يحدد أبعاد الممكن وتكاليف تحقيقه ، كما يجب عنهم الهوة التى تفصل بين الممكن وبين وهم الوهم وخيال الهاذى ، ولذا كان اهتمام أولئك بالمسائل العامة قليل الجدوى عليهم وعلى المسائل العامة التى لا يجذبهم إليها فى الغالب إلا عمومها وبريقها وضخامة شعاراتها وضجيج خلافاتها وغفوض قضاياها .

ومن الخير للإسلام ألا تتناول له الجماهير والكتل بالكيفية التى تتناول بها المسائل العامة ، لأنه لا يمكن أن يسلك ضمن هذه المسائل ، ولا أن يجرى عليه ما يجرى عليها ، فكل منا يحمل دينه معه على الحقيقة لا على المجاز فى أدق خصوصياته ما عاش ، ويحمله معه حين يموت ، وقد أسلنا حياتنا الخاصة : كلها بكل أجزائها فى كل أوقاتها وأحوالها ، وقد أسلنا تبعاً لذلك إليه تعالى حياتنا العامة ، أى علاقاتنا وصلاتنا وروابطنا بالجماعة التى نعيش فيها ، ولا يتصور أن يسلم المسلمون حياتهم العامة لله ويحتفظوا بحياتهم الخاصة لأنفسهم . والإسلام دين نفس معينة ، أى رباط مباشر بينها هى بالذات وبين خالقها سبحانه وتعالى ، وهذا الرباط بالنسبة لنا ليس

مسألة عامة إلا على قدر ما يكون الخبز المعين الذى تأكله ، أو الماء المعين الذى تشربه مسألة عامة . نعم على المسلم أن يصلح إسلامه أو يصفيه كما يصلح خبزه ويصفى ماءه ، فمن هذه النقطة يجب أن يبدأ وإليها ينتهى به المطاف .

إن طريق الدعوة الأعظم هو الإنسان المسلم : حياته وسلوكه ، مواقفه وتصرفاته ، أفعاله وردود أفعاله ، باطنه وظاهره ، غيبه وحضوره ، جده وهزله ، إنه يثبته البينات على وجود الإسلام وصلاحيته للوجود ، إنه الحجة التى لا ينفع معها مراء ولا مكابرة ، إنه قوة الخير الحية يجذب خيرها ما فى غيرها من خير ، إنه الإسلام الحى الحاضر يخاطب بلسان الحال جميع الأحياء الحاضرين إنه إليهم كلمة الإسلام ودعوة الإسلام ورسالة الإسلام ، إنه الحصاة القيمة التى يثرى بها رصيد ديننا وتمتلى خزائنه . وما يمكن أن ينهض دين إذا زوده أهله بخصص معظمها زائف ووثاقه ورخيص .

إن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال أقوى من الدعوة القولية تأثيراً وأبعد أثراً ، والدعوة القولية بدون هذا الخطاب الحى الفعال قليلة الجدوى محدودة النفع ، وهما معاً يتكاملان ويتعاونان ويزيد أحدهما تأثير الآخر ، ويلفغان معاً بالدعوة آفاقاً من النجاح لا يصل إليها أى منهما منفرداً .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن الدعوة القولية هى وحدها التى تقبل الإعداد والتخطيط والتنظيم واتباع المناهج وتعديلها حسب ظروف الزمان والمكان ، ونعنى بالدعوة القولية ما يتصل بالإرشاد والوعظ والتعريف بالعقيدة وأركان الدين وعزائمه ورخصه وفضائله ورجاله وأمجاده ، وأن الدعوة من طريق خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال تستعصى على فكرة الإعداد والتخطيط والتنظيم والمناهج ، لأن زمام هذا النوع من الخطاب فى يد كل مسلم ، يتوقف على سلوكه الشخصى ، ويعتمد على طريقة تناوله لحياته ، ولكن هذا غير صحيح ، فإن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال يقبل الإعداد والدراسة والتخطيط والتنظيم كالدعوة القولية تماماً ، وأى منهج سديد يوجب أن يشمل الإعداد والتنظيم طريقى الدعوة جميعاً ، ولا يعمد بالمراكز الحساسة فى الدعوة القولية إلا لمن يحسنون

خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال . وقد أتقنت الطوائف المسيحية الغربية سيما الكاثوليك تنظيم هذا النوع من الخطاب وبلغت فيه شأراً بعيداً .

ومخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال تحتاج إلى مزيد من شجاعة القلب وقوة التماسك والثبات في وجه المخاطر ، وإلى السكينة والوقار والعفة عما ألف الناس أن يرغبوا فيه ، ويصطرعوا عليه ، وهو يحتاج فوق ذلك كله إلى امتلاء النفس بالأمل في الخير والتصميم على تحقيق نصيبها منه بكل ما في استطاعتها .

ولاشك أن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال في البيئات الإسلامية حاصل باستمرار ، لكنه فيما يبدو لا يحصل بالقدر الكافي ويفتقر إلى التنظيم والمناهج ، ولا يوجد تلازم بينه وبين الدعوة القولية في أية صورة من صورها ، بل الغالب أن تسير الدعوة القولية في طريقها دون أن تعول على هذا الخطاب أو تلتفت إليه . ولا جدال في أن خدمة الدعوة بالكلام مقولاً ومكتوباً ليس فيها كل المشقة والمخاطر التي في مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال ، فبذل الكلام تأييداً وتمجيذاً وترغيباً وترهيباً وحضاً وصدأ ، جهد لا يكلف صاحبه في الأغلب تضحية في أطماعه أو في ماله ، ولا يتمناه تغييراً في عاداته ونسج حياته ، مع أنه يحتذب إليه السمعة ، ويلفت نحوه أنظار الناس ، ويشهد له عندهم بوسع العلم والفضل ، ومع قلة جدوى الكلام في البيئات الإسلامية - اللهم إلا في تحريك ألوان من المشاعر العابرة ، وإثارة أنماط من السلوك السطحي الوقتي الذي ليس وراءه ظائل - فإننا كلنا نعتقد أن للكلام قوة خارقة ، وأن الفصيح الأريب الذكي اللسن الحافظ الواسع الاطلاع قدير على أن يرشد وهو ضال ، ويذكر وقلبه غافل ، ويقوم وعوده معوج ، وينير طريق الناس وطريقه مظلم معتم ، ويحيي الإسلام في النفوس وقد مات لإسلامه ، وكلنا لا يفتن إلى أن الدين لإخلاص لله ، إن فقد عند الناس فليس في مقدور الذكاء والمهارة واللباقة أن تعيده ، وأن تسليط المهارة واللباقة على الدين يمتص مايبته ويخفف عوده . ويضعف جاذبيته ويطرده عطره ، وأنه ما لم يحصل تنوير القلب لا يصل الكلام إلى قلوب الناس مهما جوده صاحبه .

ويدو أن اعتقادنا المبالغ فيه في قوة الكلام وقدرته فرخ على أننا جماعات عاشت أحقاباً على الأمانى فنقدت ثقتها بالحدود المعين المقدور التنفيذ وفقدت استعدادها النفس لبذل الجهد ، وتنافس أفرادها على بذله .

والصوفية إذ يفرقون بين الرجاء باعتباره الثقة فيما عند الله التي تحدث للعامل الجاهد الناشط . وبين الأمانة من حيث هي تصور احتمال النجاة بغير اهتمام بأسبابها ، وترحب بهذا الاحتمال مع عدم الأمانتين إلیه لانعدام دواعي هذا الاطمئنان ، يقيمون تفرقة صحيحة مشاهدة في حياة الأفراد والجماعات ، فإن البشر كأفراد أو كجماع لا يستطيعون أن يقوموا بعمل ما يحتاج إلى جهد ووقت إلا إذا كان لديهم الثقة في إمكان إتمامه على ما يحبون ، وهذا هو الرجاء . أما الأمانة فتشئ بوجود في خيالنا إذا لم يكن لدينا عمل معين ننوي ونعزم على أن ننهض به . وهي مجرد استحسان لأمر ممكن نظرياً وذهنياً ، وهو استحسان لا يتصل بالإرادة ولا يحركها عادة لا إلى الاستعداد والتجهيز ولا إلى العمل والتنفيذ .

وليس منا أحد إلا وقد جاشت نفسه زمناً ما بهذه الأمنيات فتعنى ألا يموت ، أو أن يصبح فإذا حصاء داره درارى وتراها تهر ، أو تمنى أن تكون له كلفة لا ترد ومال لا يعد كما تقول العامة في مصر .

ونحن بين يدي الأمانة نتخلى عن الإرادة وما يتصل بها من عمل ورجاء معقود بالله طى هذا العمل ، ونستسلم استسلاماً تاماً لما ستجىء به الأيام كيفما تجىء .

وفقدان الرجاء يعطل معظم إرادة الإنسان فيعاف ويكره كثيراً مما يحتاج إلى جهد ومثابرة ووقت .

وفقدان الرجاء معناه فقدان أهم وأشرف حافز يحفز إرادة الآدمى ويحركها إلى العمل والمثابرة عليه وتجويده . وقد فقد معظم الناس في بلاد الإسلام لمئات السنين هذا الرجاء فقدأ مرزئاً لطول ما أزم من الخوف بينهم ، وطول ما فقدوا الأمان على المال والنفس والعمل والمكانة والمنزلة والفكر والعلم والفن ، وطول ما بسط عليهم من ظل القلق والرغبة الذى أمات الثقة في أى جهد مخلص يبذل ،

أو قوله حق يقال ، فضمرت الآمال والرجال ، وضمرت الإرادة البشرية ، وضاق أفقها قروناً عدة صفيت خلالها جهود السابقين المتفوقين ، وتحجر ما لم يدركه الضياع من آثارهم كما تحجرت بقايا غابة أصابتها كارثة جيولوجية ، وباتت الأجيال للمسئلة المصابة بذلك الضمور النفسى والعقلى والعاطفى تمعد تلك البقايا ولا تتجرأ ولا تسمح لأحد بأن يتجرأ على تقليدها ، واستغنى الناس بالأمنية عن الرجاء ، واكفؤا فى ظل الإرادة الضامرة المشلولة بالانتظار واعتادوا على الانتظار وعلى الترحيب بالقول الذى يعين عليه انتظاراً غير مصحوب بأى توتر ليس له آخر ولا نهاية : يولد الناس لينتظروا ويموتون وهم ينتظرون ، هاربين دائماً من الرجاء الحصب إلى الامنية الجذباء .

وخلال ذلك وقع الخط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، فاعتقد الناس أن الإسلام بسيط بمعنى أنه سهل لا يتقاضى من المسلم جهداً ولا عزيمة ولا تضحيات ، ووطأ ذلك ووطد لسيادة الكلام والشقشقة فى البيئات الاسلامية ، ولا يتصور عاقل أن الإخلاص لله أمر هين لين ، فكيف يتصور أن يكون الاسلام سهلاً هيناً . إن الاسلام بسيط بمعنى أنه قادر قدرة عجيبة على إبراز ما هو جوهرى ومفيد فى أغراضه ، وعلى استبعاد كل ما يحجب الجوهر من الحواشى والتفصيلات ، فبساطه الاسلام ترجع إلى أدائه لمضمونه ، بل هى قدرته على أداء هذا المضمون أداءً ناصعاً مباشراً ، وهذه البساطة نقيض تلك السهولة الكلامية البدائية التى تكتسح ما هو جوهرى وأساسى وكل ما يعرض خطأها الغافلة ، وتلقى الفوارق بين الجوهر وبين الأشكال والصور والتفاصيل والحواشى . إن الاسلام بسيط من جهة حرصه الشديد على رؤية ما هو جوهرى وما هو مفيد فى الحياة ، مرتسماً بقوة على سلوك المسلم وتصرفاته فى حياته الخاصة والعامة ، وهذا ليس أمراً هيناً ولا سهلاً ، ولا هو يوافق البدائية أو الآلية الكلامية البليدة الكسلانة التى يتناول بها كثير من المسلمين دينهم بفضل تحويل بساطة الاسلام إلى سهولة وخفة وزن ومثونة .



وكان حصل الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، حصل التمييز بين المتدين وبين المستقيم . فلم تعد البيئات الإسلامية تعتبر التدين مرادفاً للاستقامة ملازماً لها غير منفك عنها ، لم يعد يلزم أن يكون المتدين مستقيماً ، أو أن يكون المستقيم متديناً ، ولا نقصد هنا بالمتدين ذلك الذي يتظاهر بالتدين رياءً وقصناً ، وإنما نقصد الإنسان الذي تميل نفسه إلى الأمور الدينية ويشعر برقة وتأثر عند ما يمارسها ، ويجب أن يشارك في أنواع السلوك الديني المشترك ويهيمه الدين فيفرح ويحزن من أجله . والتدين بهذا المعنى استعداد عاطفي غير وثيق الصلة بالاعتقاد على الإرادة وضبط النفس والفطنة . وهي مقومات الاستقامة .

وأحسب أن الاسلام يخسر كثيراً إن هو وقع في الشرك الذي وقعت فيه للمسيحية الغربية ، واكتفى بهذا التدين وفرح بأولئك المتدينين ضعيفي الإرادة والاستقامة ، إنهم كانوا وما زالوا كثرة في بلاد الاسلام ، وهم الآن جمهور عظيم يقبل على الدعوة القولية ، ويجب أن يسمع ويقرأ الكلام في المسائل الدينية ليرضى استعداده العاطفي ، ولا يستفيد مما يسمع أو يقرأ أكثر من هذا الرضاء .

وقد نتج عن طول سيادة الكلام وانفصال الدعوة القولية عن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأعمال والسلوك أن ضعفت قدرة اللغة الاسلامية على التوصيل ، أضعفها كثرة الاستعمال خلال قرون عدة فيما جل وحر ، منفصلة في الغالب عن الحقيقة غير مثلة للواقع ففقدت الكثير من هيبتها ورهبتها وشخانتها الشعورية ، وليسأل أى منا نفسه أية رهبة يشعر بها حين ينطق أو يكتب لفظ « اللهم ، أو يورد في كلامه المقول أو المكتوب مثل عبارة : أشهد الله أو ماشاء الله أو الله أكبر أو يذكر الإيمان أو التوكل أو الحساب أو البعث أو الآخرة ، وأمثال ذلك من كلم وتراكيب اللغة الاسلامية » إنه لا يكاد يحس ما يجب لها من رهبة ، إلا أن يمر به ظرف غير عادي يوقظ للحظات شعوره بالمضمون الخطير لهذه اللغة ، فنحن نستعمل في الدعوة لغة تحوج إلى الاطالة والإطناب واستعمال المترادف أو المتقارب لكي يعوض الإسهاب والإكثار عن ضعف قوة توصيل الألفاظ والتراكيب ، وهو ما يجعل كلامنا في الدينيات وغيرها يبدو في بعض

الاحيان أو أغلبها أجوف كثير الفضول والوضوء إذا قيس بكلام الأولين وما فيه من إحكام واقتصاد ووقار ، وكلما أكثرنا من الكلام زاد ضعف القدرة على التوصليل في اللغة ، وهو ضعف لا يمكن أن يتوقف إلا حين تربط الكلام بالواقع ، والألفاظ بالأفعال ، واللسان بالقلب والجوارح ، أى إلا إذا قل اعتياد الدعوات الإسلامية على الصور البيانية ومدخرات الذاكرة والحافظة ، وزاد اعتمادها على مخاطبة الناس بالحاضر الحى من المواقف والتصرفات والأفعال والسلوك .

إن وراء ميل معظمنا إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة ، والاصلاحات الكلية فضلا عن جاذبيتها بقية من فقدان الرجاء وضمور الإرادة والهرب عن ملاقة الواقع ومعاناته ، إذ الأغراض الضخمة والاصلاحات الكلية شيء لا أستطيع أن اضطلع به أنا أو أنت ، ولا يقوى عليه أفراد المسلمين وإن اشتركوا وتعاونوا وتناهدوا ، فما الذى يدفعنى ويدفعك إلى الاعراض عن الممكن المقذور عليه إلى التماس الضخم الفخم الشامل الكلى إلا أن أكون أنا أو أنت قد فقدنا الرجاء والثقة فى أن نستطيع عمل شئ ذى قيمة ، وأصبحنا نلوذ بأمنية كبرى تقوم بتنفيذها قوة كبرى تكسح كل من يعترض طريقها وما يعترضه ، ويحجب عنا بريق هذه الأمنية ورواؤها وسحرها سوء مصيرنا ومنقلبنا حين نصبح فى يد تلك القوة الكبرى للمكتسحة ، إن أفراد المسلمين لا يستطيعون أن يصلحوا واقعهم مع المحافظة على حريتهم وحقوقهم التى كفلها الاسلام إلا إذا لاقوا واقعهم بأنفسهم ، وعانوه بأشخاصهم منفردين ومشتركين فى إصلاحات جزئية وأغراض معينة محدودة يكون فى استطاعتهم هم التعرف عليها والقيام على تنفيذها وتكرار ذلك مرة ومرات ، يزداد خلالها المسلم تجربة وقوة إرادة ، كما يزداد رجاء وثقة فى نفسه وإخوانه ، وفى رضاه الله سبحانه عنه وعظم .

ولا يستطيع الباحث فى مناهج الدعوات الإسلامية أن يغفل قضية اتجاه الاسلام ، وهل هو يتجه إلى الماضى كما ينمى عليه خصومه أو يتجه إلى الامام نحو المستقبل متخذاً من الماضى قوة تؤيده وتسدد خطاه كما يعتقد المستنيرون من أهله ؟ .

بيننا ولا شك تصور شائع قديم الجذور متشائم النظرة يرى عجلة الزمن تعدو بالناس بعيداً عن نور القرآن ، وأنهم كلما لج بهم البعد عن عهد تلك الإشراقة العظيمة التي نزل فيها القرآن قل حظهم من الهداية والفلاح والخير ، وأن كل جيل من المسلمين لا بد واجد نفسه أقل خيراً من الجيل الذي سبقه وأكثر خيراً ممن يأتون بعده ، وأن الأجيال المتأخرة ومنها الأجيال الحاضرة لم يعد يجوز لهم أن يحاولوا بأنفسهم ولأنفسهم فهم القرآن ، وامترأ الزاد الروحي من مائدته مباشرة ، بل حسبهم ويكفيهم أن يحاولوا فهم الذين فهموا القرآن من السلف الصالح من العلماء ، وهذا التصور المتشائم يعتقد أن الإسلام قد استنفد أفضل أيامه ومر بها من ألف وثلاثمائة سنة ، وأنه بعد أن بلغ أوجه في ذلك الماضي البعيد دخل على مكائده النقص وتدهورت حاله ، وأن دوران الأرض لذي يزيد المسلمين بعداً عن مصدر النور يزيدهم ظلمة ويزيد بهم حال الاسلام تدهوراً ، وأن الخير كله كان في الماضي لدى السلف الصالح ، والشر كله في الحاضر لدى هذا الخلف الضال ، وأن سفينة العالم يوشك أن يبتلعها اليم لكثرة ما عليها من أضرار وأشرار ، والمسلم السعيد الناجي من خرج منها بقلبه قبل أن تفارق روحه جسده .

هذا التصور المتشائم ليس رأى الاسلام ذاته ، وإنما تصور أجيال من المسلمين عانت حياة شقية وحاضراً تعساً بالنسبة لها ، غلب عليه الشر وساد فيه الأشرار ، إذ لا شك أن تقديسنا للماضي طريق نعبر به عن رأينا في الحاضر وحكمنا عليه ، وأتينا في أعماقنا نرفضه رغم أننا نعيش فيه ونمارس في ظله حياتنا . وفي جبهة البشر الاعتراف بالماضي والفخر بالآباء ، ولكن حب الناس لآبائهم وأسلافهم لا يتحول إلى تقديس عنيد شبيه بالتأليه إلا حين يعيشون لمدة طويلة في بيئة مزعجة يشعرون فيها بدوام الخوف والقلق ، ويحسون فيها بهزيمة الخير والمحبة والحق ، وباليأس من إمكان مقاومة الشر والأشرار ، فيتجهون بقلوبهم وخيالهم إلى الماضي ليجدوا فيه ما لا يجدونه في حاضرم من أسباب العزاء وصور الخير والصلاح والفضيلة والحق ، مما يرد عليهم شيئاً من الثقة في الحياة ويعينهم على الاستمرار في حمل عبئها .

إن تقديسنا للماضي يعكس صورة هزيمتنا في الحاضر ، وبأسنا من قدرتنا على التخلص من سيطرة الأشرار في أى مستقبل معقول ، وبأى جهود معقولة ، إنه يسجل تخليتنا عن الاشتغال بمقاومة الشر بغير الرفض الداخلى والعناد النفسى ، وعن محاربته ، لأن الاشتغال الفعلى بمحاربة الشر يشغل أصحابه بفكرة الانتصار وما عسى أن يترتب على الانتصار من نتائج ، أى يشغلهم بالمستقبل ويلفتهم إليه أكثر مما يلفتهم إلى الماضى ، إن الناس يقبضون على ماضيهم بعناد وإصرار وتعصب حين لا ينجح الحاضر فى اكتساب ثقتهم ، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم ، وحين يحسون أن القيم التى يعتقدون أنها ضرورية ولازمة للحياة الحسنة الكريمة غير مصونة ولا محترمة وأن من العسير صيانتها والدفاع عنها .

هذا فيما يبدو هو التفسير الأشبه بالصواب لهذه النظرة المتشائمة التى يعتمد عليها أعداء الاسلام فى اتهامه بالاتجاه إلى الماضى .

نعم إن المسلمين يكبرون عصر النبوة وأجداد الاسلام وأئمتهم وأعلامهم ، وهذا الأكابر طبعى ومعقول ، وهو لا يقتضى تلك النظرة المتشائمة اليائسة ولا يبررها ، والله سبحانه وتعالى لم يبعث محمداً صلوات الله وسلامه عليه وآله من أجل عصر واحد ، ولا لزمان واحد بعينه ، ولا قصر سبحانه رقى النوع الانسانى على جيل بعينه ولا على أمة بعينها ، وإنما بعث تبارك وتعالى رسوله إلى كل إنسان كان ويكون وسيكون فى إنسانية كتب لها مولاهما جل شأنه التطور والترقى حالا بعد حال ، ودرجة فوق درجة ، وشرع سبحانه الاسلام لتتعاقب أجيال المسلمين ويتكاثروا ويتكاثر بهم الخير والبركة فى الدنيا والآخرة ، وليحمل الأول منهم الآخر إلى ما هو أفضل ، وليسوق ماضيهم مستقبلهم أمامهم إلى ما هو أكمل ، وليستجيب الله دعاء المسلمين فيجىء الأولاد خيراً من الآباء ، والأحفاد خيراً من الأولاد إلى آخر الزمان إن شاء الله .

فالاسلام يرى فى المسلم ذريته ، ويرقب فى حاضره مستقبله ومستقبلهم فى ظل مدود من الرجاء والثقة فى الله ،  
• يتبع •

## من ثمرات المعقول والمنقول

للتأمر الكبير الأستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

الناس سبع طبقات :

قال الإمام على - عليه السلام - : الناس سبع طبقات :

فالطبقة الأولى : الفراغة يدعون الناس إلى عبادتهم ؛ أما لأنهم لا يأمرونهم أن يصلوا لهم ولا يصوموا ، ولكنهم يأمرونهم بطاعتهم فيطيعونهم ، فبطاعتهم لهم في معصية الله - جل ثناؤه - قد اتخذوهم أرباباً من دون الله !! .

والطبقة الثانية : جبابرة أكلمهم الربا وبيعهم السحت <sup>(١)</sup> .

والطبقة الثالثة : 'فساق قد تشرّدوا من الدين كما يتشرّد الشارد من الإبل .

والطبقة الرابعة : أصحاب الرياء ليس يعبدون إلا للدينار والدرهم .

والطبقة الخامسة : 'قرء مخادعون يطلبون الدنيا يرى الصالحين .

والطبقة السادسة : فقراء ؛ لأنهم أحدهم أن يشبع شبعة من الطعام ، لا يبالي أحلاها أم حراماً .

والطبقة السابعة : الذين أنى الله - جل وعز - عليهم ، فقال : : وعباد الرحمن

الذين يمشون على الأرض هوناً <sup>(٢)</sup> ، وإذا خاطبهم الجاهلون قلوا سلاماً <sup>(٣)</sup> .

(١) السحت : الحرام .

(٢) هوناً : أى يسكنة ووقار .

(٣) سلاماً : أى سداداً من القول يسلّمون فيه من شرهم .

ثم قال - كرم الله وجهه - : «والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة (١) : إنهم للذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .»

ثم التفت إلى كُثَيْب بن زياد ؛ فقال : يا كَيْل بن زياد ، أظلمهم .  
قال كَيْل : وأين أظلمهم يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : فى أطراف الأرض تجدهم ؛ قد اتخذوا الأرض فراشا ، والمساء طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دنارا (٢) ، باكين العيون ، يقرضون العيش قرضا (٣) ، إن غابوا لم يُفتقدوا (٤) ، وإن شهدوا لم يُعرفوا ، وإن خطبوا لم يُزَوَّجوا ، وإن قالوا لم ينصت لقولهم ، يدفع الله - عز وجل - بهم العاهات والآفات والبلايا عن الناس ، وبهم يسقى الله - عز وجل - العباد الغيث من السماء ، ويُنزل القطر من السحاب ، أولئك عباد الله حقاً .

### وصية جليلة :

قال ابن عباس : ما انتفعت بشيء بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - انتفاعى بكلمات كتبهن إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - قال : كتب إلى : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن المرء يفرح بإدراك ما لم يكن ليفوته ، ويقتم لقصوت ما لم يكن ليدركه ١١ فإذا آتاك الله من الدنيا شيئاً فلا تكثرن به فرحاً ، وإذا منعك منها فلا تكثرن عليه حزناً ١١ وليكن همك لما بعد الموت ، والسلام .

### إلخام يهودى :

جاء رجل من اليهود إلى الإمام على - عليه السلام - فقال : يا أمير المؤمنين ، حتى كان ربنا ؟ .

(١) النسمة : النفس .

(٢) الشعار : الثوب الذى يلى الجسد ، والدثار يكون فوق الشعار .

(٣) يقرضون العيش . . . المراد عدم الركون إلى الدنيا .

(٤) لم يُفتقدوا : لا يسأل عنهم .

فقال له : يا يهودى <sup>(١)</sup> ، لم يكن ربنا - جل وعز - فكان ، وإنما يقال : متى كان ، لشيء لم يكن فكان ، هو كائن بلا كينونة ، كائن لم يزل ، ليس له قبل فهو قبل القبل وقبل الغاية ، انقطعت العايات عنده ، فهو غاية كل غاية .

من معانى الوجه :

من معانى الوجه : أول الشيء وصدره ، كقوله - تعالى - : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار » .

وصف بالمفرد والجمع :

يقول العرب : ثوب سَمَل - بكمل - أى بال ، وثوب أَسْمال : على الجمع . ومن التحويين من جعل أَسْمالاً مفرداً . والصحيح : أنه على التأويل بالجمع : أى أنواع الثوب : أَسْمال ؛ لأن أفعالا لم يثبت فى المفرد ، وإنما هو جمع .

الاحامس :

الاحامس من قریش وكنانة وتجديلة ، ومن تابعهم ؛ سُمُّوا بذلك لتحمسهم فى دينهم . وكانوا يدخلون البُيوت من ظهورها إذا أحرموا فى غير الأشهر الحرم ، فنهاهم الله عن ذلك . كما كانوا يطوفون بالبيت عرايا ، وقد نهاهم لرسول عن ذلك .

كاد :

إذا أدحلت العرب على كاد نفيا كان فيه وجهان :

الأول : حدوث الفعل بعد لآى وإبطاء ، كقوله - تعالى - : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » .

والثانى : زياتها للتوكيد فقط ، وعليه قوله - تعالى - : « إذا أخرج يده لم يكد يراها ، أى لم يرها أصلا عند أكثر المفسرين .

وثانى كاد بمعنى أراد كقول الآفوه الأودى :

فإن تجمّع أوتادٌ وأعمدةٌ وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا  
أى أرادوا .

معاني النفس :

من معاني النفس : الآفة ، تقول : ليس لفلان نفس : أى لا آفة له .  
ومنها : الإرادة ، تقول : نفسى فى كذا . ومنها : العين ، تقول : أصابت فلانا نفس :  
أى عين ، ومنه النفوس - كعبور - وهو الذى يصيب الناس بالنفس : أى بالعين .  
ومنها : العقوبة ، قال - تعالى - : « ويحذركم الله نفسه » أى عقوبته فى بعض الأقوال .  
ومنها : الغيب ، كقوله - تعالى - : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » .

الليل والنهار :

يسمى الليل والنهار : بالجديدين ، والأجدين ، والمملوئين ، والفستيين .  
والرؤفين ، والعصرين ، ويكنى عنهما : بابتى سبات . وإذا أطلق الليل : أريد به  
سواد الليل من الغروب إلى الفجر الثانى . وإذا أطلق اليوم : أرادوا به ياض النهار .  
وإذا قرئوا به من الأفعال ما ليس له استمرار : أرادوا به مطلق الوقت كالحديث :  
« تلك أيام الهرج » ، أى وقته ، والهرج : القتل .

لا تشاور هؤلاء :

كانوا يكرهون أن يشاور الجائع حتى يشبع ، والظمان حتى ينقع . والمضل حتى  
يجد ضالته ، والغضبان حتى يرضى ، والمحزون حتى يفيق .

يسجدون على شق وجوههم :

يسجد اليهود على شق وجوههم ، وصيب ذلك : أنه لما تنشق الجبل فوقهم ،  
قيل لهم : إما أن تسجدوا ، وإما أن يلقى عليكم . فسجدوا على شق ، مخافة سقوطه  
عليهم ، فصار ذلك سنة عندهم إلى اليوم .

تقدير العلم والفن :

قال الرشيد للأصمعى - فى بعض المناسبات - : « إن دولتى لتحسن بك ١١ » .  
وقال الواثق لإسحاق الموصلى : ما غنائى لإسحاق قط ، إلا خيل لى أنه زيد فى ملكى .

لفظ كان :

لفظ كان قد يراد به الحال والاستقبال ، كقوله - تعالى - : « كنتم خير أمة  
أخرجت للناس » ، أى أنتم كذلك .



وقد تقع للباضى كقول الشاعر في رثاء المغيرة بن المهلب :  
ولقد يكون أخدام وذبايح

أى لقد كان .

معنى بيت :

قال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شُمُ الأنوف من الطراز الأول  
الشم : ارتفاع أربة الأنف وورودها ، والشَم : الارتفاع فى كل شىء .  
ويحتمل : أن يكون حسان أراد ما ذكر ؛ لأن ذلك دليل العتق والنجاة عندهم .  
أو أراد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الأمور ورذائلها ،  
وخص الأنف ، لأن الحمية والغضب والأنف - كسبب - يكون فى الأنف ،  
ولم يرد طول أنوفهم ، وهذا أشبه بمراده .

ولم يرد بيباض الوجوه : اللون على الحقيقة ، وإنما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم ،  
وجميل أخلاقهم وأفعالهم ، ومثله : جاء فلان بوجه أبيض ، وبيض فلان وجهى بكذا .  
والطراز الأول : يريد به أن أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم ، وأنهم لم يحدثوا  
بعدهم أخلاقا مذمومة لا تشبه نجارهم وأصولهم .

كفر اليهود :

فى صحيح مسلم : أن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « لو آمن بى عشرة  
من اليهود لم يبق على ظهرها يهودى إلا أسلم » المراد : عشرة من أحبارهم .  
أقول : إنما كان ذلك لأنهم كانوا يقلدون أحبارهم تقليداً أعمى ، وقد كان  
أحبارهم على ضلال مبين !! فلو أن الأحبار آمنوا مثلاً آمن عبد الله بن سلام ،  
وكعب الأحبار ، لاهتدى بقية اليهود ، ولكن كتب عليهم الشقاء !!

أول وارث وموروث فى الإسلام :

قال ابن عبد البر : أول موروث فى الإسلام : عدى بن نضلة ، وأول وارث :  
نعمان بن هدى ، وكان عدى قد هاجر إلى أرض الحبشة ، فات بها ، فورثه  
ابنه نعمان هناك .

حنة ابن حنبل :

لما كان الشافعي بمصر رأى رسول الله - عليه السلام والسلام - في المنام يقول له :  
 بشر أحمد بن حنبل بالجنة على بلوى نصيبه ١١ فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن  
 فلا يجيب ، بل يقول : هو نزل غير مخلوق . فلما أصبح الشافعي : كتب صورة  
 ما رآه في منامه ، وأرسله مع تليذه الربيع إلى أحمد في بغداد ، وحين وصل قصد  
 منزله ، فأذن له بالدخول ، وقال له : هذا كتاب أخيك الشافعي ، فقال له : هل تعلم  
 ما فيه ؟ فقال : لا . ففتح أحمد الكتاب وقرأه فبكى ١١ وقال : ما شاء الله لا حول  
 ولا قوة إلا بالله ١١ وأطلع الربيع على ما فيه ، وكان على أحمد قيصان ، أحدهما على  
 جسده والآخر فوقه ، فنزع الذي على جسده ودفعه إليه ١ فأخذه ورجع إلى الشافعي ،  
 فقال له : ما أجازك ؟ قال : أعطاني القيص الذي على جسده ، فقال الشافعي :  
 أما أما فلا أجمعك فيه ، ولكن اغسله واثنى بمائه ١١ فغسله الربيع وأثاه بالماء  
 فأفاضه على سائر جسده ١ .

حفظ المفصل :

كان يحفظ كتاب « المفصل » ، للزخشرى خلق كثير من الناس . والسرى ذلك :  
 أن الملك المعظم عيسى الأيوبي كانت له رغبة في الأدب ، حتى إنه شرط لكل من  
 حفظ مفصل الزخشرى مائة دينار . وكان المعظم عيسى يلقب مأمون بن أيوب .

دعاء يذهب الفاقة :

ذكر صاحب نفع الطيب : هذا الدعاء الذي نقل عن رسول الله - صلوات الله  
 وسلامه عليه - في المنام ، وقال عنه إنه يذهب الفاقة ، وهو : يا رب ، يا رحيم ،  
 يا رب ، يا رحيم ! الطف بي في قضائك ، ولا قول أمرى أحداً سواك حتى أفاك ١ .

دفاع على عن عثمان :

عن شداد بن أوس قال : لما اشتد الحصار بعثمان يوم الدار ، رأيت علياً  
 خارجاً من منزله معتماً بعمامة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - متقلداً سيفه ،  
 وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار ، فحملوا على  
 الناس حتى فرقوهم ، ثم دخلوا على عثمان ، فقال له علي : السلام عليك يا أمير المؤمنين ،

إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر، ولإني والله، لا أرى القوم إلا قاتليك، فرنا فلنقاتل ١١.

فقال عثمان : أنشد الله رجلاً رأى قه - عز وجل - عليه حقاً، وأقر أن لي عليه حقاً أن يهريق بسببي ملاء محجمة من دم، أو يهريق دمه في ١١.

فأعاد على عليه القول، فأجابه بمثل ما أجابه ١١.

قال شداد : فرأيت علياً خارجاً من الباب وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنا قد بذلنا الجهد ؟ ثم دخل المسجد .

حبنا لأطفالنا :

قال العماد الإصبهاني : جرى يوماً ذكر حب الأطفال بين يدي القاضي الفاضل، فارتجل هذه الأبيات :

طفل كفاء القلب داراً له      كأنما القلب له قالب  
كيوسف الحسن وقلبي له      سجن، وما ثم له صاحب  
وهو بعيني وهو لإنسانها      وهي له من خارج حاجب  
ضاق به ضيق عناقى له      فلم يسع ما قاله العائب  
أقول أبدع من ذلك وأوجز قول القائل .

ولأنما أولادنا بيننا      أكبادنا تمشي على الأرض

أبناء النبوة :

حبس هارون الرشيد موسى الكاظم - رضى الله عنه - في بغداد، ثم أمر بإخراجه وأعطاه ثلاثين ألفاً من الدراهم ١١ فسل الرشيد عن ذلك، فقال : رأيت عيماً يرى النائم عبداً أسود معه حربة، يقول لى : أخرج موسى، وإلا قتلتك ١١.

فقه آل البيت :

أصاب المتوكل العباسي مرض، فنذر إن شفاه الله أن يتصدق بمال كثير . فلما برى سأل العلماء عن مقدار ما يتصدق به، فاختلفوا في ذلك، فقال محمد الباقر : إن نويت الدينار فتصدق بثلاثين ألفاً أو الدرهم فكذلك، فسل عن الدليل، فقال : قوله - تعالى - : ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة، فعديروا وقائع الرسول، فوجدوها ثمانين .

سلسلة الدر :

دخل على بن موسى العلوي مدينة نيسابور ، فتعلق العلماء بلجام بغلته ، وقالوا له : بحق آباءك الطاهرين ، حدثنا حديثاً سمعته من آباءك . فقال : حدثني أبي موسى الكاظم ، قال : حدثني أبي جعفر الصادق ، قال : حدثني أبي الباقر ، قال : حدثني أبي زين العابدين ، قال : حدثني أبي الحسين ، قال : حدثني أبي علي بن أبي طالب ، قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - : لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لبرى من جنونه ! وقد قيل : إنه قرأه على مصروع فأفاق !

شؤم بيت :

أصيب ابن دريد بالفالج ، فكان إذا دخل عليه الداخل ضج وتألم لدخوله ، وإن لم يصل إليه !! ويقول تليذه أبو علي القالي : كنت أقول في نفسي : إن الله - تعالى - عاقبه بقوله في مقصوده - حين ذكر الدهر - :

مارست من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا

لا يؤمن على ضرورة !!

بينما كان أبو الأسود الدؤلي يخاطب معاوية يوماً إذ خرجت منه ضرورة !! فضحك معاوية ! فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، لا تخبر بها أحداً . فلما خرج من عنده دخل عليه عمرو بن العاص ، فأخبره بها ! فلما رآه عمرو ، قال : شرطت بين يدي أمير المؤمنين ؟ فذهب أبو الأسود إلى معاوية ، فقال له : ألم أسألك ألا تخبر بها أحداً ؟ فقال : ما علم بها إلا عمرو ! فقال : إياه كنت أحذر ! ولكن فأنت لا تصلح للخلافة ! فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إذ لم تكن لك أمانة على ضرورة ، فكيف تؤمن على أموال المسلمين ودمائهم ! فضحك معاوية ووصله .

تعبير منامات :

أتى رجل إلى محمد بن سيرين ، فقال له : رأيت كأن ديكاً دخل منزلي ، فلقط حبات شعير كانت فيه . فقال له : إن سرق لك شيء فأخبرني . فما كان إلا أيام

إذ أتى إليه الرجل ، فقال : سرق بساط من سطح منزلي ! فقال ابن سيرين : أخذه للمؤذن ! وكان كذلك .

وقال رجل له : رأيت كأنى أخنق ديكاً ! فقال له : أنت تجلد عُصيرة ، وكان الرجل كذلك . وجلد عصيرة : كناية عن الاستمناء باليد .

وقال له رجل : رأيت كأن ديكاً تصيح بيب لإنسان بهذا البيت :

قد كان من رب هذا البيت ما كان هَيْثُ لصاحبه يا قوم أكفانا  
فقال ابن سيرين : يموت صاحب الدار بعد أربعة وثلاثين يوماً ! وكان كذلك .  
والأربعة والثلاثون عدد حروف الديك بالجلل !

وجاء إليه رجل ، فقال : رأيت كأن ديكاً يقول : الله . الله . الله . فقال له :  
بقى من عمرك ثلاثة أيام . فكان كذلك عمره .

### قلب الأيام :

لما أن يحيى البرمكي وابنه الفضل في السجن ، سمعهما الموكل بهما يوماً يضحكان ضحكاً مفرطاً ! فأعلم الرشيد بذلك ؛ فبعث مسروراً نسياف يستعلم سبب ذلك .  
لجأهما فسألها وقال : يقول لكما أمير المؤمنين ، ما هذا الاستخفاف بغضبي ؟ فازدادا ضحكاً ! ثم انبرى يحيى فقال : اشتبهنا سكباجاً ، فاحتلنا في شراء القدر واللحم والخل وغير ذلك ! فلما فرغنا من طبخها وإحكامها ، جعل الفضل ينزلها فسقط قعر القدر ! فوقع الضحك والتعجب مما كنا فيه ، وما صرنا إليه ! فلما أعلم مسرور الرشيد بذلك ، بكى وأمر لها كل يوم بمائدة ، وأذن لرجل من يأنس به أن يدخل عليهما كل يوم يتغدى معهما ، ويتحدثهما وينصرف ! ولما مات يحيى بلغ الرشيد وفاته ، فقال أمرى قريب من أمره ! فتوفى بعده بخمسة أشهر !

### يستفيد من بكااته :

كان أبو البركات الأنطلي محدث بغداد ، وأحد حفاظ الحنابلة ، وفيه يقول ابن الجوزي : كنت أقرأ عليه الحديث - وهو يبكي - فاستفدت من بكااته أكثر من استفادتي بروايته .

النضر بن الحارث :

أنكر أبان بن عثمان : أن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قتل النضر ابن الحارث في يوم بدر صبرا ، وقال : أصابته جراحة فارقت منها ، وكان شديد العداوة ، فقال : لا أطمع طعاما ولا أشرب شرابا ما دمت في أيديهم ، فات ١١ . ومعنى ارتث - مبنى للجهول - حمل من المعركة رثيثا : أى جريحاً وبه رمق . وقد نقل محمد بن سلام عن أبيه : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقتل أحداً صبراً إلا عقبة بن أبي معيط يوم بدر .

الموت يحل الضغائن :

لما مات أبو الحسن عماد الدين الشافعى الطبرى ببغداد ، حضر دفنه الشريف أبو طالب الزينى ، وقاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى مقدما الطائفة الحنفية ، - وقد كانت بينهما في حال الحياة منافسة شديدة - فوقف أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجله ، فقال ابن الدامغانى :

وما تُغنى النوادبُ والبواكى      وقد أصبحت مثل حديث أمس  
وأنشد الزينى :

عظم النساء فلا يلدن شبيهه      إن النساءَ بمثله عظم  
دعاء داود :

عن أبي الدرداء : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : كان من دعاء داود - عليه السلام - : اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذى ييلقى حبك ! اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى ومن أهلى ، ومن الماء البارد ! . قال : وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا ذكر داود - عليه السلام - يقول : « كآء عبد البشر ، اء . »

رقة الرسول وكرمه :

عن عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب ، قال : زحمت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجله ، فنفختى نفخة بسوط كان فى يده ، وقال : « باسم الله أوجعتى ، اء قال فبت لنفسى . »

لائماً ؛ أقول : أوجعت رسول الله ! وقضيت ليلة كما يعلم الله ! . فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قال : فقلت : والله ، هذا الذي كان منى بالأمس ، وانطلقت وأنا متخوف ! فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ه إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني ، فنفحتك نفحة بالسوط ، وما هي ثمانون نفحة نخذهما . .

#### عمر بن عبد العزيز :

سئل الإمام الباقر - رضي الله عنه - عن عمر بن عبد العزيز - رضوان الله عليه - فقال : أما علمت أن لكل قوم نجيية ، وأن نجيية بني أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

#### دعوة مباركة :

أعطى الرسول - عليه الصلاة والسلام - عروة بن الجعد ، وقيل : ابن أبي الجعد البارق ديناراً ، ليشتري به شاة ، فاشترى شاتين ، فباع إحداهما بدينار ، وجاء بشاة ودينار ، وذكر ما كان من أمره للرسول - عليه الصلاة والسلام - فقال له : « بارك الله في صفقة يمينك ، فكان يخرج بعد ذلك إلى كناسة البصرة ، فيريح الريح العظيم ، حتى صار من أكثر أهل الكوفة مالا ! . ويقول شبيب بن غرقدة : رأيت في دار عروة البارق سبعين فرساً مربوطة للجهاد في سبيل الله ! . وقد روى عروة البارق عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر حديثاً ، وهو أول من قضى بالكوفة ، ولاء عليها الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قبل شريح .

#### بين كعب الأحبار وقومه :

جاء رجل إلى كعب الأحبار من اليمن ، فقال له : إن فلاناً الخبث اليهودي أرسلني إليك برسالة ، فقال له كعب : هاتها ، فقال له الرجل : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيداً شريفاً مطاعاً ، فما الذي أخرجك من دينك إلى أمة محمد ؟ فقال له كعب : أتراك راجعاً إليه ؟ قال : نعم . قال : فإن رجعت إليه ، فخذ بطرف ثوبه لتلايفر منك ، وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالله الذي فلق البحر لموسى ، وأسألك بالله الذي ألقى الألواح إلى موسى فيها علم كل شيء ، ألسنت تجد في كلمات الله - تعالى -

أن أمة محمد ثلاثة أمثلاث : فثلك يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلك يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلك يدخلون الجنة بشفاعة أحد . فإنه سيقول لك : نعم ، فقل له : يقول لك كعب : اجعلنى فى أى هذه الثلاثة شئت ا .

### مناقب أبى حنيفة :

كان أبو حنيفة - رضى الله عنه - إماماً فى القياس ، وقد داوم على صلاة الفجر بوضوء المشاء أربعين سنة ، وكان يبكى فى الفجر حتى يرحمه جيرانه ، وختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعة آلاف مرة ، ولم يفطر منذ ثلاثين سنة ا .

### نجابة أبى حنيفة :

دخل قتادة الكوفة ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : سلوا ما شئتم ا وكان أبو حنيفة حاضراً - وهو يومئذ غلام حدث - فقال : سلوه عن نملة سليمان ؛ أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأخبر ا فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقليل له : كيف عرفت ذلك ؟ فقال من قوله - تعالى - : « قالت نملة ، ولو كانت ذكراً ، لقال : قال نملة ؛ لأن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والأنثى ، فانتقاء للوحدة لا للتأنيث .

### علم الاوزاعى :

كان الاوزاعى فقيه الشام ، كما كان الشعبي فقيه العراق . وقد قيل : إن الاوزاعى أجاب فى سبعين ألف مسألة .

### مسألة فقهية :

لو اصطاد سمكة ، فوجد فى بطنها درة مثقوبة ، فهى لقطة ، وإن كانت غير مثقوبة ، فهى له مع السمكة . ولو اشترى سمكة ، فوجد فى بطنها درة غير مثقوبة فهى له ، وإن كانت مثقوبة فهى للبائع إن أدعاها . والأشبه أن يقال : إن الدرة تكون لمن اصطاد السمكة ، كما فى الكنز الذى يوجد فى الأرض ، فإنه لحى الأرض .

### الإحالة على القدر :

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه - لما بلغه قول الحجاج بعد قتله لسعيد



ابن جبير : الله قتله : لعن الله قوماً باتوا وأقلامهم تجرى بدماء المسلمين وأموالهم ، ويقولون : إنما تجرى بأقلام الله ، وكذبوا : لأن أقلام الله تجرى بالبر والتقوى ، وأقلامهم تجرى بالإثم والعدوان ، فإن كذبوا وزعموا أن الله قد أسر عندهم كتاباً نهم عنه في العلانية ، لقد اغتسوا ربههم واتهموه ، وقالوا عنه قولاً عظيماً .

وقال محمد بن سيرين لرجل : كيف جارك النصراني ؟ فقال : كما شاء الله . فقال له : قل : كما علم الله ، إن الله لا يشاء المعاصي .

وأى عمر - رضى الله عنه - بسارق ، فقال له : ما حملك على ذلك ؟ قال : قضاء الله ، فقطع يده ، وقال : هذه للسرقة ، وجلده وقال : هذه لكذبك على الله . أقول : إن من علل تأخر المسلمين في القرون الوسطى ، جهلهم حقيقة القضاء والقدر ، وعدم معرفتهم معنى التوكل ، فاستحبوا النوم ، وركنوا إلى الخمول ، وتركوا الأسباب ، فركبتهم الأمم الناهضة ، وساطتهم بسوط الفهر ، إلى سوء المصير ، ورحم الله الشاعر القديم حيث يقول :

إذا عَيَّرُوا قالوا مقاديرُ قدَّرت      وما العار إلا ما تَجَرُّ المقادير  
الحسرة على هرم العلماء :

ورد رجل من أهل المغرب على ابن شداد الفقيه الشافعى - وكان الكبير والضعف قد بلغا منه مبلغهما - فقال :

لو يعلم الناس ما فى أنْ تعيش لهم      بكوا لأنك من ثوب الصبا عارى  
ولو أطافوا انتقاصاً من حياتهم      لما فدَّوك بشيء غير أعمار  
يموت الصائد وصيده :

رى رجل ظبياً فأقصده ، فذهب ليأخذه فإذا هو قد أنفذه حتى نجم السهم من جانبه ، وحدث أن عثر الصائد فتلقى بفؤاده طبة السهم ، فإذا هو والظبي ميتان - وأقصده : لم يخطئ مقاتله .

كتائب النعمان :

كان للنعمان ابن المنذر اللخمي خمس كتائب :

١ - الوضائع ، وهم قوم من الفرس ، كان كسرى يضعهم عنده عدة ومددا ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك المناذرة ، فإذا كان رأس الحول ردهم إلى أهلهم وبعث بمنثلهم .

٢ - الشهباء ، وهي كتيبة من أهل بيت الملك من المناذرة ، وكانوا بيض الوجوه ، يسمون الأشاهب .

٣ - الصنائع ، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل .

٤ - الرهائن ، وهم قوم كان يأخذهم من كل قبيلة ، فيكونون رهناً عنده ، ثم يوضع مكانهم مثلهم في رأس الحول .

٥ - دؤكر ، وهي كتيبة ثقيلة تجمع فرساناً وشجعاناً من كل قبيلة .

### التيجان اللين :

حدث الثوري عن أبي عبيدة : قال : ما تتوج معدى قط ، وإنما كانت للتيجان اللين ، قال : فسألته عن قول الأعشى :

مَنْ يَرَى هَوْدَةَ يسجد غير مُسْتَتَب (١) إذا تعمَّم فوق التاج أو وُضعا وهوذة من بنى حنيفة من معد لا من الين . فقال : إنما كانت خرزات نظمن له . وقد كتب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى هودّة كما كتب إلى الملوك .

### ما كان يعجب الرسول :

كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر ، والائرُج ، والحضرة ، وكان في منزله - صلوات الله عليه - حمام أحمر يقال له : وردان .

### أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا :

قيل : أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا : أبو حنيفة في فقهه ، والخليل في أدبه ، والجاحظ في تأليفه ، وأبو تمام في شعره .

وقد ضرب المثل بفقه أبي حنيفة ، كما قال بعض الرُجّاز للأمون :

مأمون يا ذا المن الشريفة والعلم والمنزلة المنيفة

هل لك في أرجوزة ظريفة أظرف من فقه أبي حنيفة

(١) المثب : المستغنى المستغنى .

### نوع من الربا :

باع معاوية أراقي ذهب وفضة بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينهى عن ذلك ، فقال معاوية : أما أنا فلا أرى به بأسا ، فقال أبو الدرداء : من عذيري من معاوية ؟ أخبره عن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يخبرني عن رأيه ، والله لا أساكنك بأرض أبداً .

### الخاتم النبوي :

كان خاتم الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - حلقة فضة عليها فص عقيق ، وسبب اتخاذها : أنه كتب إلى ملك الروم ، فقبل له : إنه لا يقبل إلا كتاباً مكتوماً ، فاتخذته حينئذ . وكان يتختم به في خنصر اليمنى تكريماً لها ، ويجعل فمه إلى الداخل لعدم المباهاة ، ولا يمنع التختم في اليد اليسرى وجعل الفص إلى الخارج ، وإن كان خلاف الأولى . وأول من تختم في يساره معاوية .

ويقول بعض الشعراء في التختم باليمين ، ناعياً على من تختم في اليسرى :  
قالوا تختم في اليمين وإنما مارست ذاك تشبهاً بالصادق  
وتقرباً مني لآل محمد وتباعداً مني لكل منافق  
الماسحين فروجهم بخواتم اسم النبي بهن ، واسم الخالق

### حب الرشيد للعلم :

قال الأصمعي : دخلت على الرشيد - ومجلسه حافل - فقال : يا أصمعي ، ما أغفلك عنا ، وأجفاك لحضرتنا ! فقلت : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك ، فأمرني بالجلوس ، فجلست وسكت عني ، فلما تفرق الناس إلا أقلمهم نهضت للقيام ، فأشار على أن اجلس ، فجلست حتى خلا المجلس ، ولم يبق غيري ومن يدينه من الغلبان . فقال : يا أبا سعيد ، ما معنى قولك : ما لاقتني بلاد بعدك ؟ . قلت : ما أمسكتني يا أمير المؤمنين ، وأنشدت قول الشاعر :

كفّاك كفّ ما تليق درهماً وجوداً وأخرى تقطر السيف دماً

أي ما تمسك درهماً . فقال : هذا أحسن ، وهكذا فكن ، وقسّرنا في الملا ، وعثّلنا في الخلا ، فإنه يصح بالسلطان ألا يكون عالماً ، إما أن أسكت فيعلم الناس .

أنى لا أفهم إذا لم أجب ، ولما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولى أنى لم أفهم .  
قال الأصمى : فملنى أكثر مما علمته .

أول تهمة من نوعها فى الإسلام :

روى النجاشى فى طبقات الشعراء : أن ضائب بن الحارث الشاعر ، كان بذيثا كثير الشر ، وكان صاحب صيد وخيل بالمدينة ، وكان له فرس اسمه « قيار » ، وفيه يقول البيت المشهور :

فن يك أمسى بالمدينة رحله      فإنى وقيار بها لغريب  
وقد كان استعار كلبا من قوم من بنى نهشل ، اسمه « قرحان » ، فحبس الكلب عنده حولا ، ثم جاءوا يطلبون كلهم ، وألحوا عليه حتى أخذوه منه ، فهاجم ، سورى أهم بالكلب فى هذه الآيات :

تجشمتو نحوى وقرحان شقة      تظل بها الوجناء وهى حسير  
فزودتهم كلباً فراحوا كأنما      حبام بتاج المرزبان أمير  
فأمكم لا تتركوها وكلبكم      فإن عقوق الوالدات كبير  
إذا عايفت من آخر الليل دُخنة      يبيت لها فوق السرير هير

فاستعدوا عليه عثمان - رضى الله عنه - فقال له : وبلك ، ما سمعت أحدا رى امرأة من المسلمين بكلب غيرك ، وإنى لأراك لو كنت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأزل الله فيك قرأنا ، ولو كان أحد قبلى قطع لسان شاعر فى هجم لقطعت لسانك ، ثم حبسه فى السجن ، فعرض يوماً المسجونين ، فإذا هو قد أعد حديدة يريد أن يقتال بها عثمان ، فأهانته وركسه فى السجن ، ولم يزل مسجوناً حتى مات . فلما قتل عثمان - رضى الله عنه - وثب عُمَيْر ابنه عليه ، فكسر صلبه أو ضلعه انتقاماً لأبيه .

ويعلق الجاحظ على ذلك فى كتابه « الحيوان » ، بقوله : ولولا أن المعنى الذى رماهم به كان مما يكون ويجوز ويخاف مثله ، لما بلغ منه عثمان ما بلغ .  
وأقول مما لا ريب فيه : أن الشاعر كان مفترياً خبيثاً ، ولكن المعنى الذى

أفصح عنه الجاحظ وجوز وقوعه ، أصبح الآن واقعا ، فقد جدتني الثقة الخبير أن العوانس من بنات الفرنجة يتخذن من الكلاب أخدانا ، وقص على قصة شاهدها بنفسه ، وهى : أنه فى أحد المطارات أرادت فتاة غربية أن تصحب معها كلبها فى الطائرة ، فخلوا دون ذلك ، فأخذت تبكى وتضرع محتجة بأن هذا الكلب زوج لها ، فسمحوا لها بمصاحبتها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

#### بشارة بالرسول :

فى كتاب خير البشر بخير البشر للإمام محمد بن زعفر : أنه كان على باب من أبواب الإسكندرية صورة جل من نحاس ، عليه راكب من نحاس فى هيئة العربى ، متزر ، مرتد ، وعليه عمامة ، وفى رجليه نعلان ، كل ذلك من نحاس .

وكانوا إذا تظالموا يقول المظلوم للظالم : اعطنى حتى قبل أن يخرج هذا ؛ فيأخذ بحق منك شئت أم أبيت .

ولم يزل الصنم على ذلك حتى فتحت مصر ، فغيّبوا الصنم .  
قال ابن المظفر : وفى ذلك إشارة إلى البشارة بنحائم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

#### حب الثناء :

كَلِيفَ النَّاسِ بِالثَّنَاءِ فَلَا يُؤْ  
فَإِذَا سَمِعَتْ مِنْ : لَهَا  
هُوَ يُبْدِى تَوَاضَعًا فَوْقَ كِبَرِهِ  
لِتُطِيلَ الثَّنَاءَ فِيهِ كَمَا يَهْوَى  
كَالْفَتَاةِ الْعُوبِ يُغْرِى بِهَا الدَّلَّ  
تَسْلُ دَحْوَاهُ ، لَيْسَ بِهَا ثُكْلُهُمْ  
وَسَوَاءٌ فِي الشَّرِّ - وَالشَّرِّ مَحْبُوبٌ  
جَدَّ فِيهِمْ مَنْ لَا يَحِبُّ الثَّنَاءَ  
عَنْ مَدِيحِي ، فَقَدْ أَتَى الْإِقْرَاءَ (١)  
وَامْتَنَاعًا يَنْغِي بِهِ الْإِغْرَاءَ  
وَتَشْدُو بِمَدْحِهِ كَيْفَ شَاءَ  
هَوَاهَا ، فَتُظْهِرُ الْبَغْضَاءَ  
أَلْفَوْا الْإِفْكَ وَاسْتَحْبُوا الرَّيَاءَ  
بُ ، وَلَكِنْ فِي الْخَيْرِ لَيْسُوا سَوَاءَ .

(١) لَهَا مِنْ كَذَا : اكْفَ وَأَجِدْ .

# مسئولية الفرد عن عمل غير مقصود

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

لمؤلفه الدكتور علي عبد الواحد وافي



أقر هذا النوع من المسؤولية عدد كبير من شرائع الأمم المتحضرة في مختلف العصور ، وخاصة قدماء العبريين والصينيين واليونان والرومان ، وأقرته الشريعة الإسلامية نفسها ، ولكن يلاحظ أن هذه الشرائع جميعاً لا تأخذ بهذا النوع من المسؤولية إلا في الجرائم الخطيرة ، وخاصة جرائم القتل ، وترى من وراء ذلك إلى إظهار حرصها على احترام الحياة وحماية الأنفس ، وعلى زجر الناس وتخويفهم من عواقب الاستهانة والإهمال في هذه الشؤون ، وحلهم على اتخاذ منتهى الحيلة والحذر في صدها .

\* \* \*

فع أن شريعة اليهود تقر أن الفرد لا يسأل عما يصدر عن غير قصد منه فإنها تخرج عن هذه القاعدة في بعض الجرائم الخطيرة ، فمن ذلك ما تذهب إليه بصدد القتل الخطأ ، وهو ما يحدث عن غير قصد ، ولا ينطوي على شبهة قصد ولا إهمال ، وقد ضرب له سفر التثنية ، مثالا بصديقين ذهبا يحتطبان ، فهوى أحدهما بفأسه على شجرة ليجتثها فأفلتت حديدة الفأس من مقبضها الخشبي وأصاب الآخراً فقتلته (١) ، وذلك أن الشريعة اليهودية توجب على القاتل في مثل هذه الحالة أن يلجأ من فوره إلى بلد حرام ليجتمى به حتى لا يناله أذى من أولياء الدم (٢) . وتصرح نصوص أخرى ورد فيها هذا الحكم أن القاتل إذا لم يلجأ إلى بلد حرام ، أو خرج منه قبل انقضاء مدة معينة ، جاز لأولياء الدم قتله ، ويذهب في هذه الحالة دمه مدرا (٣) ،

(١) إصحاح ١١ ، فقره ٥ من سفر التثنية .

(٢) إصحاح ١١ ، فقرات ١ - ١١ من سفر التثنية .

(٣) إصحاح ٣٠ ، فقرات ٢٢ - ٢٩ من سفر التثنية .

وغنى عن البيان أن القضاء عليه بالبقاء في بلد حرام وإحلال دمه في حالة عدم التجاهه إليه أو في حالة خروجه منه قبل مدة معينة ، ينطويان على عقوبتين صريحتين : إحداهما عقوبة عاجلة بالنفي مدة ما في بلد خاص ؛ وثانيهما عقوبة تهديدية متوقعة في حالة عدم الإذعان للعقوبة الأولى . وفي هذا لإقرار صريح لمسئولية الفرد عن عمل صدر عن غير قصد منه .

\* \* \*

وتقرر الشريعة الصينية القديمة هذه المسئولية في طائفتين من الجرائم : إحداهما انتهاك حرمة الأشياء المقدسة ؛ والآخرى بعض حوادث القتل والجروح ، فتوقع هذه الشريعة عقوبات تتردد بين الإعدام والجلد والنفي ، أو تجمع بين أكثر من نوع منها في جرائم الاعتداء على حرمة الأشياء المقدسة ، سواء أحدث هذا الاعتداء عن قصد أم عن غير قصد ؛ وإن كانت العقوبة في العمل غير المقصود أخف من عقوبة العمل المقصود . وتوقع كذلك عقوبات كثيرة في حوادث القتل والجروح التي تصدر عن غير قصد ، فتوقع عقوبتي الجلد والنفي ( مائة جلدة والنفي إلى مكان يبعد ثلاثة آلاف دلياً ) على الولد الذي يقتل خطأ أحد أبويه أو أجداده ، وعلى العبد الذي يقتل سيده خطأ ؛ وعقوبتي الجلد والحبس ( مائة جلدة وحبس ثلاث سنين مع الأشغال الشاقة ) على الولد الذي يجرح خطأ أحد أبويه ؛ وعقوبة مالية تتمثل في دية تدفع إلى الأسرة المتوردة في جميع جرائم القتل الخطأ التي تقع على غير الآباء والأجداد والاسياد ، ويعلق الشرح الرسمي على المراد المتعلقة بالآباء بقوله : « إن كل ما يحدث من الأولاد نحو آباءهم يجب أن يكون محاطاً بسياج من الإجلال والتبجيل ، ولا يصح أن يكون في ذلك خطأ أو مصادفة » .

\* \* \*

وتعاقب الشرائع اليونانية القديمة على كثير من أنواع القتل الخطأ ، وبخاصة ما كان ناجماً منها عن إهمال ، فقد ورد في قصائد هوميروس أن القتل الخطأ كان يحكم على مقترفه بالقتل أو بالنفي إلى بلد بعيد عن بلده ، وعلى هذا السنن كانت تجري نظم أيننا في عصورها التاريخية ، فالقتل الخطأ كان يؤدي إلى نفي القاتل إلى

بلد بعيد عن بلده لمدة معينة ، ويوجب عليه بعد عودته إلى بلده بعض طقوس دينية للتكفير عن خطيئته ، ويظهر أن الاثنيين كانوا جد حريصين على تطبيق شرائعهم بهذا الصدد ؛ حتى لقد أنشوا محاكم خاصة للفصل في هذا النوع من الجرائم وتوقيع عقوباته .

• • •

وفي جميع مراحل الشريعة الرومانية توجد آثار كثيرة لهذا النوع من المسؤولية فالتقوانين المنسوبة لنوما بومبيليوس ( وهي السابقة لمصورم التاريخية ) وشرائع الألواح الإثني عشرية ( وهي أساس التشريع عند الرومان في عصورم التاريخية ) توجب في القتل الخطأ دية تدفع إلى عصبة القتل ، وتقرر كذلك شريعة الألواح الاثني عشرية أنواعا من الأرش ( وهو التعويض الذي يدفع للاعتداء على ما دون النفس ) تدفع في حالات الاعتداء على أعضاء الجسم ، وفي حالات الجروح بدون تفرقة بين أن يكون ذلك قد حدث عن قصد أو عن غير قصد .

• • •

ومع أن الشريعة الإسلامية تقرر أن الفرد لا يعاقب إلا على ما يحدثه عن قصد وإرادة ، وأنه « قد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكروها عليه » (١) ، فإنها تخرج عن هذه القاعدة بصدد بعض الجرائم الخطيرة وخاصة القتل ، وذلك أنها تعاقب على نوعين من القتل غير المقصود : أحدهما ما يسميه الفقهاء : « بالقتل الخطأ ، والآخر ما يسمونه : « بالقتل الشبيه بالخطأ ، أو الذي هو في معنى الخطأ » (٢) .

أما القتل الخطأ فهو القتل غير المقصود الذي ينجم بطريق مباشر عن عمل مقصود ، كأن يرمى شخص هدفاً أو صيدا فينحرف السهم فيصيب إنسانا فيقتله ، أو كأن يرمى شيئاً يظنه صيدا فإذا هو آدمي ، وهذا النوع من القتل تقع فيه بحسب الشريعة الإسلامية على القاتل مسؤولية خطيرة تتمثل أحيانا في دية وكفارة معا ، وأحيانا في دية فقط حسب التفاصيل الموضحة في كتب الفقه الإسلامي ، والدية

(١) نص الحديث العريف : « رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكروها عليه » .

(٢) جميع ما تذكره في تفاصيل هذين النوعين مأخوذ من مذهب أبي حنيفة .



عوض مالى محدد المقدار يسلم إلى أهل القتل ، ويجب مبدئياً على القاتل ، ولكن تحتمله عنه فى معظم الاحوال ، عاقبته ، التى تتألف من أقربائه من ناحية الذكور ، وأما الكفارة فيحتملها دائماً القاتل وحده ، وهى تتمثل فى تحرير رقبة مؤمنة ، أى عتق رقيق مؤمن ، أو صيام شهرين متتابعين عند عدم ملكية الرقيق ، وعدم القدرة المالية على شرائه ، ويحرم القاتل كذلك فى معظم أنواع القتل الخطأ من ميراث القتل ، ومن وصيته إن كان مستحقاً لأحدهما ، كما يحرم من ذلك مرتكب القتل عمداً ، والأصل فى ذلك قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ؛ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليهما حكيمًا ، وفى قوله تعالى : « توبة من الله ، إشارة إلى أن القتل الخطأ جرم يوجب على مقترفه التوبة ، وقد علل الفقهاء هذه الأحكام بما لا يدع مجالاً للشك فى أنهم ينظرون إلى القتل الخطأ نظرهم إلى جرم يستأهل العقاب ، وإليك مثالا ما يقوله ملك العلماء الكسانى فى كتابه « بدائع الصنائع » فى تبرير الكفارة الواجبة فى هذا القتل : « لأن فعل الخطأ جناية ، فلا بد لها من التكفير والتوبة ، فجعل تحرير العبد فى القتل الخطأ بمنزلة التوبة الحقيقية فى غيره من الجنايات ... ، ويقول فى تبرير حرمان القاتل من ميراث القتل ووصيته إن كان مستحقاً لأحدهما : « لأنه وجد القتل مباشرة بدون حق ... ولأن قتل الخطأ جناية جائز المؤاخذه عليها ... » (١) ، وإليك مثالا آخر ما يذكره صاحب كتاب « الهداية » فى تبرير الجزاءات المترتبة على القتل الخطأ إذ يقول : « إن القتل الخطأ فى نفسه لا يعرى عن الإثم من حيث ترك العزيمة والمبالغة فى التثبت فى حالة الرىء إذ شرع الكفارة يؤذن باعتبار هذا المعنى ، ويحرم من الميراث لأن فيه إثمًا ، فيصبح تعليق الحرمان به ، » (٢) .

(١) البدائع : الجزء السابع ص ٢٥٢ .

(٢) انظر كتاب الهداية وكتاب الميدانى على الهدورى فى باب القتل الخطأ .

وأما القتل الشبيه بالخطأ فله ثلاثة أنواع :

أحدها : ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من جميع الوجوه ، وهو الذى ينشأ فى صورة مباشرة عن عمل لم يحدث عن قصد : كأن ينقلب النائم على إنسان فيقتله ، أو يسقط إنسان من مسطح على قاعد فيميته ، أو يسير فى الطريق راكب دابة فتجتمع فتطأ إنساناً فتقتله ، أو تختل عجلة القيادة أو « الفرامل » ، فى السيارة فتتحرف فتصدم إنساناً فيلقى حتفه . وعلى هذا النوع ترتب جميع النتائج المترتبة على القتل الخطأ من وجوب الدية والكفارة وحرمان القاتل من ميراث المقتول ومن وصيته إن كان مستحقاً لأحدهما .

وثانيها : ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من بعض الوجوه ، وهو القتل غير المقصود الذى ينجم فى صورة غير مباشرة عن عمل غير مشروع : كأن يخفر شخص برأى فى الطريق العام فيتردى فيها شخص فيهلك ، وهذا النوع تجب فيه الدية فقط دون الكفارة ، ويسمى هذا النوع كذلك القتل بالنسب .

وثالثها : أن يهلك شخص نتيجة لعمل جماعى إيجابى غير مقصود به الإيذاء ، أو نتيجة لعمل جماعى سلبى يتمثل فى تقصير الجماعة فى أداء بعض الواجبات ، ومثال الهلاك الناشئ عن عمل جماعى إيجابى غير مقصود به الإيذاء أن يموت شخص فى الزحام نتيجة لضغط الجماهير عليه ، فقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين إلى وجوب ديته على جميع من حضر <sup>(١)</sup> ، ومثال الهلاك الناشئ عن عمل سلبى يتمثل فى تقصير الجماعة فى أداء بعض واجباتها أن يموت إنسان جوعاً فى بلد إسلامى ، فقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين على رأسها العلامة ابن حزم إلى مسئولية هذا البلد عما نجم عن تقصيرهم فى شئون التكافل الاجتماعى ، فيؤدى أهل هذا البلد جميعاً الدية متضامين إلى أسرته كأنهم شركاء فى موته .

(١) انظر صحيح البخارى فى باب « إذا مات أحد فى الزحام » وانظر كذلك ما ذكره السندى فى تليقه على الحديث الوارد فى هذا الباب ، وهو الخاص بموت الجبان ( والد حذيفة بن اليمان ) يوم غزوة أحد . ويرى القافى وجوب ديته على من يدعى عليه ولى الدم ويعلم أنه هو الذى تسبب فى موته .

# تعريف بالقرآن

للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بربري

- ٣ -

فن ناحية هذه المباحث ، ليست في مهدها في عالم المسلمين ، يشهد بذلك كثير من المؤلفات العربية التي يرجع إليها المؤلف نفسه في هذا الصدد ، لا المؤلفات الخاصة في الإملاء والصوتيات والتلاوات القرآنية فحسب ، بل أيضا التفسيرات وكتب فقه اللغة ومصطلح الحديث والفقه ، وكلها تزخر بهذا البحث .

ومن ناحية أخرى : هذه التلاوات الخاصة في هذا الحيز الواسع بعيداً عن أن يلاحظها ضغط من جانب السلفية ، الأرثوذكسية ، بل تمتاز بطابع قدسي ، وهي ما تزال تدرس في المذاهب السنية ، لا بوصفها قرآناً ، بل بوصفها أحاديث آحاد .

وعلى الرغم من هذه الشواهد فإن صورة التاريخ الكهنوتي المسيحي التي لا شك أن المبشر الانجليزي أكثر ألفة لها يبدو أنها ألحت على الكاتب إلى حد أنها انتقلت معه تقريباً بكاملها ، فجري بها قلبه في المحيط الإسلامي ، فالمؤلف يحاول في الواقع أن يقيم بالقياس إلى النص القرآني شيئاً من التطور يشبه في كثير من مظاهره تطور نص الإنجيل ، فيبدأ بتفرقة في نصوص القرآن تثير الدهشة بين قطع قعبدية ، كدبت على الراجح عند نزول الوحي ، وبين قطع أخرى ليست كذلك ( ص ٦ ) ويؤكد - مناقضاً نفسه على كل حال - أن التنزيل عند وفاة النبي لم يكن جمع ( قارن بين ص ٥ وس ٧ ) ثم ينسك - لاعباً بالألفاظ - الصفة الرسمية تجمع أبي بكر ( قارن بين ص ٦ ، ص ٢١٢ ) ويرجح أخيراً أنه حين قرار عثمان كانت هناك خلافات كثيرة بين مجموعات العواصم الرئيسية المختلفة ( ص ٨ ) ويكتب : أن

مسلى الكوفة حينذاك كانوا منقسمين إلى طائفتين ، قبل بعضهم النص الجديد الذى أرسله عثمان ، ولكن الأغلبية أيدت نص ابن ممدود ( ص ٨ ، ٩ ) وكذلك يقدم لنا نص عثمان لا على أنه واحد من جملة نصوص متعارضة بحسب ( ص ٩ - ٢٣ ) بل على أنه نص جديد يعارض المجموعات القديمة والتلاوة على عهد الرسول ، ولأنه إنما فرض نفسه فى النهاية لا لامتيازات ذاتية داخلية ، بل بفضل نفوذ مدينة الرسول ( ص ٨ ) .

هذا النهج فى عرض تاريخ النص القرآنى يحتوى ضلالات خطيرة ، وتطلب توضيحا شافيا بضع الأمور فى نصابها .

فلنذكر أولا : بأن مجموع عثمانى ليس له صفة القدم بحسب ، بل إن الوحدة بينه وبين مجموع أبى بكر تامة <sup>(١)</sup> ، وأن الدراسات المسيحية الحديثة لتقر تلك النتيجة ، يقرر د شوالى ، ما يلى : « لقد أقننا فيما سبق الدليل على أن نسختى زيد متفقتان ، وأن مصحف عثمان ليس إلا نسخة من مجموع حفصة ، ولا تنفى من ناحية أخرى أن جميع مواد هذا الأخير لا يرجع تاريخها إلى الخليفة الأول بحسب ، بل يرجع بتمام النص إلى الرسول ، والحق أن كل التلاوات مكتوبة أو شفوية سواء فى أنها تنتمى إلى مصدر واحد ، بل يمكن أن تكون بعض التلاوات المختلفة عن النص العثمانى أسبق تاريخيا ، مما هو ثابت فى مجموع عثمان ، على أن هذا وذاك يجب أن يتصل بعهد ما من حياة الرسول ، ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك الأسبقية النسبية لا يمكن أن تكون معيار ترجيح ، فإن النص الأتم صحة ليس ضرورة الأكثر قدما . بل عساه أن يكون الذى نال لمسة اليد الأخيرة ، وأن تعبير « الحرف الأول » ، فى مصطلح الصحابة مطبقا على التلاوة خارج النص ، لا تعنى التلاوة على عهد الرسول عامة ، بل تعنى التلاوة الأقدم فى ذلك العهد . . . يعنى : الملقاة - المنسوخة - وكذلك ينهار الأساس الذى أرادوا أن يقيموا عليه قيمة هذا النوع من التلاوات ، ولنغض النظر عن تلك الاختلافات التاريخية ، فإن أهم شرط

جوهرى لتأسيس صحة نص وإنما هو التأكد من أنه في صورته المكتوبة قد حققه ووافق عليه بما فيه الكفاية المؤلف أو مثله ، والذي حدث على وجه الدقة هو أن بعض التلاوات التي لم تتوافر لها جملة هذه الشروط أيام الجمع ، فلم تقبل في المجموع الرسمي أو المصحف العام .

أكثر من هذا زيادة على انهيار الأساس الذي لا علاج له فيما يتعلق بتلك التلاوات أضيف صنف جديد في نقلها اللاحق ، فإن ناشر كتاب المصاحف نفسه بصرح بأنه أدهشه هذا اللبس الذي يحيط بالتلاوات غير العثمانية من ثلاث وجهات :

(١) من حيث قدمها فقد يشبه لنا أحياناً أن ثم وضعاً لاحقاً أريد به الاتصال بذى سلطان قديم كيما يستفاد من نفوذ اسمه ( ص ١٥ ) .

(٢) من حيث تحديد مصدرها فثم أحوال يبدو التخليط في نسبتها إلى مصادرها ( المرجع نفسه ) .

(٣) من حيث تعيين صورتها ، فليست الصعوبة في أن ثم تلاوات متعددة منسوبة إلى قارئ واحد ، ولا يدري أيها الصحيحة <sup>(١)</sup> فحسب ، بل ثم أحوال تبدو التلاوة فيها مستحيلة لغة ( ص ١٦ ) ،

فوق هذا يعترف مستشرقنا أن التلاوات غير العثمانية قلما تنسب إلى أصحابها بوصف كونها مكتوبة في مصاحفهم ، بل في الغالب بوصف كونها سمعت منهم تلاوة شفوية ( ص ٢٤ ) ولكن مع هذا حينما يجمعها فخرية كاملة في أن يضمها جميعا تحت عنوان « مجموع » ، بل أنه لا يكتفى بجمعها - ليكبر من حجمها ويزيد من قيمتها التعارضية - مضافا إليها التلاوات التي لا تختلف عن المجموعة الرسمية ، ولكنه يضيف أيضا لحساب هذا المؤلف أو ذاك تلاوات تنتمي لا إلى القارئ نفسه بل إلى أحد تلاميذه فقط .

ولكن بعد كل هذا ثم تتألف تلك التلاوات غير الرسمية وما قيمتها ؟  
نلاحظ أولا أنها لا تنصب على كل السور ، ولا على أية سورة بتمامها ، فإذا نظرنا في طبيعتها أمكن أن نميز منها أنواعا مختلفة .

(١) تلا المجموع المزعوم لابن مسعود ، في هذا ان - إحقاق .

ففي طائفة أولى ، يتضح الاهتمام : إما بشرح كلمة مفهومة ضمنا نحو : وإسماعيل يقولان ٢-١٢٧ ، ، وفادته للملائكة يا زكريا ٣-٣٩ ، ، إلى قوله فقال يا قوم ١١، ٢٥ ، وإما بتكرار كلمة سبق ذكرها نحو : عن قتال ، وعلى الصلاة ، وآمن المؤمنون ٢-١٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٥ ، وإما لبسط المعنى نفسه بإضافة عبارة ثبوتية نحو : فضلا من ربكم في مواسم الحج فابتغوا حينئذ ( ٢ ، ١٩٨ ) والمصر ونوائب الدهر .. سي خسر وإنه لفيه إلى آخر العمر ( ١٠٣ - ٢ ، ١ ) ويلاحظ بوضوح في كل هذا أنه عمل محض يبعد عن صفاء الأسلوب القرآني مرهقا النص بإسهاب أحيانا لا يكاد يحتمل .

وفي طائفة ثانية تتلخص التلاوة في أن يستبدل بكلمة كلمة أخرى ، إما مرادفة نحو : يكمل : يتم ، ويوفه : يؤده ، دره : نمله ، الصوف : العهن .

وإما كلمة أخرى ذات معنى مختلف ، إلا أن الكلمتين تتكاملان وكل منهما تتضمن الأخرى على التبادل مثلا : الحج والعمرة للبيت ، بدل : الحج والعمرة لله ( ٢ - ١٩٦ ) .

وفي طائفة ثالثة تتلخص المسألة في مجرد القلب ، نحو : في ظلل من الغمام والملائكة : والملائكة في ظلل من الغمام ( ٢ - ٢١٠ ) .

بما تعملون بصير : بصير بما تعملون ( ٣ - ١٥٦ ) .

على قلب كل : على كل قلب ( ٤٠ - ٣٥ ) .

وفي النادر يعتمد إلى إهمال كلمة : نحو : بما آمستم ، بمثل ما آمستم ( ٢ - ١٣٧ ) .

إلا الساعة أن تأتهم : إلا الساعة تأتهم ( ٤٧ - ١٨ ) .

وفيا يتعلق بالطوائف الثلاث الأخيرة ، ودون تعرض القيمة الأدبية المتقابلة في مختلف القراءات ، يمكن القول مبدئيا أنه ممكن أن تكون إزاء تلاوات حقيقية مختلفة كلها مقبولة على شرط إثبات أصلها التاريخي ، على أنك مع هذا مغري أن تفترض في بعض عبارات القراءات غير الرسمية شيئا من التوفيق الطارئ على النص فيما بعد ، في حين أن النص الرسمي يمتاز بأنه يمضي قدما ، بغض النظر عن وجهات

النظر الخاصة، سواء أكانت من النوع الديني نحو: بمثل ما آمنتم، يأتهم الله في ظلل، أم من النوع السياسي، نحو: من المهاجرين والأنصار والذين (٩ - ١٠٠) وليس والأنصار الذين كما كان يعتقد عمر، أم من النوع اللغوي، نحو: أن هذان لساحران، أم من أى نوع آخر، ولما نرى أن هم أصحاب الرسول الوحيد حين أثبتوا نص القرآن إنما كان انطباق كل قطعة انطباقا أميناً حرفياً على النص الذى أملاه الرسول وتلى عليه وأقره لإقراره نهائياً، فهذه الموضوعية التامة المطلقة بأقية أبد الدهر شرفاً لهم

ومع هذا فالثرثرة ما تنفك تبدى وتعيد فى مسألة ابن مسعود وغيره من أصحاب المجموعات كأن شيئاً كهذا يمكن أن ينال من إجماع الصحابة على المصحف العثماني، والحقيقة أن أحداً منهم لم ينازع فى صحة المصحف الرسمى، إلا أن ثم قراءات أخر يؤكد أصحابها أن الرسول أجازها دون أن يقدموا دليلاً موضوعياً على تلك الإجازة وهم قد أصروا على الاحتفاظ بها لا كساوية للمصحف الرسمى المجمع عليه أو قائمة مقامه ولكن لتبقى معه... فكذلك نرى أبا موسى مثلاً يوصى ذويه أن يحتفظوا بمجموعه ويكلموه من المصحف العثماني<sup>(١)</sup>، وحين جاء الغاضبون إلى ابن مسعود فإنه لم يرد على أن يقول لهم أن كل التلاوات الموصى بها المجازة كلها صحيحة<sup>(٢)</sup>، وهذا الغضب - إذا كان ثم غضب - له سبب مزدوج: فهذا الصحابي الجليل الذى هو من السابقين الأولين يحرم أن يكون عضواً فى لجنة الجمع، ثم يلزم فيما بعد أن يسلم بمجموعه ليعدم، ولكن رد الفعل التلقائي لم يقاوم التفكير طويلاً، فابن مسعود كان غائباً يؤدى عمله الرسمى فى العراق منذ أمد بعيد قبل الجمع، ولم يكن معقولاً أن عملاً عاجلاً كهذا يجب أن يقف انتظار حضوره الذى لم يكن له ميعاد، فى حين أن كثيراً غيره من الصحابة يملكون كما يملك وأكثر مما يملك بمجموعات دقيقة أجازها الرسول، أما نسخته التى ضمنها بعض الدروس الخاصة أو التلاوات التى لم يقم عليها إجماع، فلقد كان حفظها كخط غيرها من مثيلاتها<sup>(٣)</sup> بمعنى أن تفقد الطابع الإلزامى المحقق وتبقى موضع ثقة محدودة تحت المسؤولية الشخصية، وإذا كان لإعدام

(١) داود: ص ٣٥ . (٢) المرجع نفسه: ص ١٨ .

(٣) ينظر فيما مضى مسألة عمر ص ٢٩، ومسألة حفصة ص ٢٢ هامش ١ .

تلك النسخ الخاصة له مظهر عنيف حينذاك إذ لم يكن شاب القرآن أية شائبة ، فهو يكشف إلى أى حد كان الخليفة صائب النظر بعيدة <sup>(١)</sup> ، فإن المسلمين مدينون لهذا العمل الإلهامى بوحدة كتابهم المقدس و ثباته . . فليضعف إليه فيما بعد ما يراد من القواعد والعلامات الخارجية ( التى اخترعها أبو السعود الدولى وأتباعه نصر ابن عاصم ويحيى بن يعمر والحسن البصرى والخليل بن أحمد ) فإن الجسم مع هذا باق أبداً ثابت يتحدى حدثان الزمن .

إن بقاء بعض الحروف الزائدة والكلمات المشتبكة فى نسخ القرآن مخطوطة ومطبوعة حسب قواعد الإملاء العتيقة التى احتفظ بها فى الكتابة القرآنية لشهادة بليغة على تلك الأمانة التقية التى انتقل بها ذلك الأثر الخالد من جيل إلى جيل حتى انتهى إلينا .

### الباب الثالث :

#### كيف بلغت رسالة الإسلام للعالم :

كل الناس تعرف فى الجملة ما ذا تكون رسالة القرآن التى تسمى الإسلام ، ولكنهم يعرفونها معرفة كثيراً ما تغلو فى الاعتماد على حد ظاهرى . أنها ذلك الإصلاح الدينى الاجتماعى الخلقى الذى ما أن ولد على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر فى بداية القرن السابع من التاريخ الميلادى حتى مضى قدماً متتصراً نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وها هو ذا فى زمن جد قصير نسبياً ، يسود على نصف العالم المعروف حينذاك . حدث لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وهو ما يتفك يسترعى انتباه الإنسانية ويستثير استطلاع مؤرخى السنن والأديان ، وعشاً يحاولون أن يجدوا له نظيراً فى التاريخ القديم ، موازين بينه وبين فتح الاسكندر الأكبر أحياناً ، الذى كان انتشاره سريعاً حقاً ، ولكنه لم يحدث أى تغيير ، لا فى تفكير الأمم ولا فى عاداتها ، ولأول فسمة من الإسلام ولى ولم يبق وراءه

(١) على أنه لم يتم به هذا العمل من تلقاء نفسه دون مشورة الأمة : ففى خطاب انتهت دراسة أصعاب المصاحف إلى الاعتراف بصحته ، حيث يدافع خلف الخليفة عن هوى سلفه بجمه ، يصرح على أن هذا الإجراء العنيف إنما اتخذ بائناً جميع الصعابة الحاضرين ، ويضيف الإمام : لو أن عثمان لم يتمه لأتمته أنا ( داود ص ١٢ و ٢٢ ) .



أى أثر، وأنتا لن نذهب إلى حد القول بأن عمل الاسكندر لم يكن إلا لغوا مطلقا، فلقد رصع في الأقل طريق الشرق بسلسلة من المدن الجميلة التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية، هذا صحيح وليس أقل منه صحة أن هذا العمل لم يتعد حدود المدن، فإن كتلة الشعوب أو الفلاحين الذين قيل بحق أن من لم يفتح قلوبهم لم يفتح شيئا، قد احتفظوا بطوائفهم الخاصة: اللغة والعادات والنظام السياسى والاقتصادى كما هى لم تمس، بل كان الأمر كذلك فى المدن نفسها، فإن «الهيلينية» مثله فى الجهاز الإدارى لم تتعمق إلا عند قلة من الطبقة المتوسطة «البرجوازية»، أفنح فى حاجة إلى القول بأن المستعمرين اليونانيين لم يلبثوا أن أعطوا بأيديهم واستسلموا لفاتحين جدد، فما لبثت تلك المدن أن أفلست تدريجيا تحت الامبراطورية الرومانية... وكما تكون لك فكرة عن هذا الطابع العرضى لتلك العمارة غير المتناسقة يكفى أن تذكر بعض التواريخ المعروفة، فعلم أن بعد نحو عشرين سنة من موت الاسكندر تقطعت امبراطوريته إلى ثلاث ممالك سنة ٣٠١ قبل الميلاد، ثم تمت على التدرج عملية تقطيع يمكن رسمها هكذا: بعد خمسين سنة أخذ البرثيون آسيا العليا (سنة ٢٥٠). وبعد ستين سنة تسقط آسيا الصغرى تحت السيطرة الرومانية (سنة ١٩٠). ثم نحو خمسين سنة وترى فلسطين تكون دولة يهودية مستقلة (١٤٤ - ٦٤). وفى نحو التاريخ نفسه تجد الدولة الام نفسها (اليونان سنة ١٦٤، ومقدونيا سنة ١٤٢) تنحدر لإقليما رومانيا، وإذا بقيت الملكية المصرية أطول مدة بعيدا فلم تقع تحت نير رومية إلا سنة ٣١، فإن انهيارها السياسى كان قد بدأ بعد الثلاثة البطالسة الأولى سنة ٢٢١، ولكن المشكلة الحقيقية ليست هنا، فنحن إذا نحنا جانبا المظهر المادى للدينية، ودخلنا فى حيز الفكر، فإن مما لا شك فيه أن الفاتح المقدونى بدل أن يتمل معه التصورات اليونانية تبنى فى بساطة تامة الأفكار الشائعة فى البلاد المفتوحة وتسل إلى آلهتها... وورثته مثله لم يتطوروا فى هذه السيل، وبصفة عامة فى العهدين اليونانى والرومانى نجد الأفكار الفلسفية والدينية - وكانت جد مزدهرة حينذاك فى الشرق وبخاصة فى الاسكندرية - ليست صادرات هيلينية، بل نجدها فى جوهرها دعوات شرقية استخدمت اللغة اليونانية لتنتقل إلى أوربا باسم الأفلاطونية الجديدة

والمسيحية ، بحيث يكون من حقنا هنا أن نقول أن الشرق هو الذى فتح فاتحيه . . ثم جاء الإسلام أخير فتغير ما بين يوم وليلة ، لا الواجهة السياسية والاقتصادية في كبريات المدن هذه المرة ، بل الروح الإنسانى في أعماق أعماقه عند الشعوب كلها ، فاللغة والفكر والقانون والأمانى والعرف وتصور الخلق والخالق كل أولئك تحول دفعة واحدة .

وهذا الفتح الروحى لم يستول على النفوس التى خايرها بطريقة صالحة لدوام البقاء فحسب ، ولكنه يمنح إلى الكسب الجديد حيثما ترك يعرض نفسه فى أى مكان ببساطته وصفائه الأولين ، وتلك مشاهدة لا يساوقها إلا نشوزا ذلك الرأى الشائع من أن الإسلام لم يعم إلا بعد السلاح .

أفليس نفوذه الفعال فى أيامنا هذه دليلاً يقع تحت الحس على أنه يعمل بقوة باطنية وصلة خاصة بالطبيعة البشرية وحقائق الأشياء ؟ نعم إن القوى المناوئة فى زمن مضى بما أفعمت من كره . وما عمدت إليه من وسائل العنف فى اضطهاد الدعوة الناشئة وإرهاقها قد اضطرتها إلى أن تقاوم لتضع حداً لذلك الظلم الذى كان قد استمر زمناً جداً كاف ، وما أن أعلنت المقاومة حتى قامت القوى المعادية من كل جانب تأتلف ضد هذا النظام الجديد الذى يريد أن يقوم مقامها . . وتتوالى الضربات إثر الضربات ، ويكون لزاماً أن ينقضى زمان قبل أن يستقر السلام . . وإذا نظرنا فى الأمور كما هى فلن يسمح لنا شيء أن نرى فى تلك المأساة العامل الجوهري أو العمدى فى انتشار رسالة الإسلام ، فإن السنين العشر الأولى للدعوة المحمدية ترىنا أنه على الرغم من كل العقبات كان مجرد عرض الدعوة يكسب مؤمنين جديداً كل يوم ، كما يشهدنا كذلك بأية شجاعة وعظمة احتمل الرسول وأتباعه لا سخرية مواطنهم وإهاناتهم فحسب ، بل العزل والمنع من أى اتصال بالشعب ، وأحياناً التعذيب والمثلات فى أشنع صورها ( ١٦ - ١٠٦ و ٢٩ - ١٠ ) مما اضطّر كثيراً من المسلمين الأولين - ومنهم بعض الأشراف كعثمان ، وبنت أبى سفيان أم حبيبة إلى أن ييجئوا عن ملجأ ( ١٦ - ١١٠ ) عند ملك الحبشة ، ولكن مضرب المثل العجيب فى ذلك العهد ، والذي يدل على الأمر الإيجازى إلى أبعد حد لتلك

الدعوة السلبية إنما هو أهل يثرب التي سميت بعد المدينة .. فقبل أن يروا وجه الرسول أو يسمعوا صوته بزمن طويل ، بل لمجرد سماع الدعوة القرآنية عن طريق حجاجهم استقبلها عرب المدينة بما شاء الله من حفاوة ، حتى لم يبق أسرة ليس فيها كثير من المؤمنين ، أكثر من هذا فإن العداوة المضطربة بينهم منذ ربع قرن<sup>(١)</sup> خمدت فجأة كأن ريحاً إلهية أتت عليها (٨ - ٦٣) فانقلبوا من أعداء الداء إلى أخوة أشقاء (٣ - ١٠٣) وفي نفس الوقت فإن النظم الإسلامية التي ما كان يمكن أن تراول علانية في مكة بدأت تباشر جماعة وفي وضوح النهار ( وكذلك أقام أبو إمامة صلاة الجمعة قبل الهجرة بسنة ) في هذه المدينة الحفية المضيفة ، وعمما قريب سيستقبل هناك المؤمنون كلهم تقريبا بعد أن تركوا بيوتهم وأموالهم ( ٨٩ - ٨ ) واضطهدوا كثيراً أو قليلاً بمكة .

وحق الآن كان كل شيء يمر في سلام ووقار من ناحية المسلمين في الأقل ، فلا شيء يدل على أن القوم سيحتكون إلى القوة ، وبعد أن اطمأن الرسول على مصير أصحابه ووصولهم سالمين ، وعلى الرغم من الخطر الذي يهدد شخصه لم يتعجل للحاق بهم ، فلم يكن يريد أن يغادر مركز أداء واجبه دون إذن صريح من الوحي ، معتقداً أنه يجب عليه أن يمد بقاءه ، وأن يوالى دعوته في البلد الذي ولد فيه حيث بقى وحده مع صديقين : أبي بكر وعلي .

وفي ليلة المؤامرة المدبرة على حياته تلقى وحيًا ، الأمر الإلهي بالرحلة .. بل أنه في الساعة التي بدأ فيها تنفيذ المؤامرة الدينية غادر المدينة سراً بصحبة أبي بكر أحد الصحابين ، ووكّل إلى الآخر مهمة تفتية آثاره .. وبعد النجاة الإعجازية أما كان واجبه أن يفكر في الانتقام من أعدائه أولئك الذين أرادوا قتله ؟ كلا ، وإذا تتبعنا مراحل نشاطه في السنة الأولى من الهجرة ، وجزء كبير من الثانية فإننا نجد جهوده - على العكس - متوفرة على الأعمال القدسية والبنائية : بناء المسجد ، تنظيم أحكام الصوم ، وضع نظام الآذان للصلاة ، التنظيم الداخلي السلي للجمعة ؛ فكل شيء حتى هذه اللحظة كان يدل على أن المسلمين سيولون ظهورهم ، حتى في

الصلاة ، نحو وطنهم القديم ، في ذلك الحين في نحو منتصف السنة الثانية بدأوا يتعرضون للقوافل التجارية لمضطهديهم ليذهبوا للقائهم فيما بعد .

من أين هذا التحول وهذا التغير المبالغ للوضع ؟ إنه ليستحيل علينا - وآراء المستشرقين غير المتحيزة متفقة في هذا الصدد - أن ننسب ذلك إلى الحالة النفسية الشخصية للرسول ، فإن الأعمال الحربية ليست في الواقع من طبعه ولا ذوقه ، بل على النقيض ، فإن حله وعفوه عن أعدائه كانا في الغالب مدعاة عتب القرآن عليه ( ٨ - ٦٥ و ٩ - ٨٠ / ١١٣ ) ولقد حفظت الآثار عنه مجموعة كبيرة من مآثر العفو عن جرائم ارتكبت ضد شخصه وأشخاص أتباعه (١) ، يريد بعضهم أن يعلل هذا الاتجاه الجديد بضغط شعبه عليه ، فالروح الحربي خصيصته الجوهرية . . ولكن العلماء الذين تعمقوا في دراسة الغريزة العربية لا يستطيعون أن يوافقوا على هذا الفرض ، فهم قد بينوا على العكس إلى أي حد يمتقت العرب ، حتى أعراب البادية ، إهراق الدم (٢) ، إنهم يؤكدون لنا أن البدو لا يسعون إلى الحرب ، بيد أنها حين تفرض نفسها يقبلونها ولا يقبلون المذلة والعار ، حتى في الإغارة التي كانوا يشنونها بعضهم على بعض كانت القبائل البدوية تنفي إلى أبعد حد بتجنب الأحداث الدامية ، إذن لا في نفسية الشعب ولا في نفسية رئيسه يمكن أن نجد تعليلا مرضيا لهذا التحول الجديد ، فلا بد أن يكون قد حدث شيء في وقت ما ترتب عليه رد الفعل هذا . . والواقع أن القرآن يعرض علينا مشاهد تبلغ الغاية في الإثارة ، لقد رأينا في لهجرة كيف أن الرسول يتأخر بعد إخراج أصحابه كيلا يرحل إلا في آخر لحظة ، ومن هنا يمكن أن نستوحي أنه لم يترك وراءه شيئا يهتم له ، كذلك يمكن أن يستوحي

(١) مثلا عفوه عن المبعوث القرشي الذي جاء ليقتاله بعد بدر ، والمرأة اليهودية التي حاولت سبه في خيبر ، وذلك الذي تهجم في وحشية على ابنته الكبرى زينب أثناء الهجرة وهي حامل فأسقطت ، ومعلوم كيف كان حلمه على أصحاب الإفك الذين رموا زوجته البراء عائشة . أما سلوكه السلمي الكريم في أثناء فتح مكة وبعد الفتح فما يشير العجب حقاً . ( انظر ج . ب سانت هيلير . محمد والقرآن ص ١٢٥ - ١٣٠ ) .

(٢) لامانس : عهد الإسلام ص ٢٤٧ .

فلا أمل في إيمان جديد بتلك المدينة المعاندة ، ولكن الواقع أن الأمر لم يكن كذلك فالقرآن يسمنا تلك الصيحات المتأزمة المنبعثة من المسلمين الذين لم يعد لهم سند رجالا ونساء وأطفالا بمكة يتعذبون ، إنهم آمنوا فهم يستغيثون الله من ظلم القوم الكافرين ( ٤ - ٧٥ ) ذلك أنه على عدم تجديد الدعوة ما تنفك البذور القديمة - موعظة وقودة - مخصصة ، وبقدر ما يخفق الإيمان قويا يشتد العنف والتعذيب لحقته في غير تأثم ، وتسقط الضحايا دون دفاع .

ما هذا ؟ .. الآن المهاجرين والذين آوهم يستمعون الآن في ملجأ أمين بحرية كاملة في الإيمان وإقامة الشعائر يكون من حقهم أن يتوقعوا في أنانيتهم ، وأن يظلوا غير مكترئين لمصير إخوانهم ، أي يمكن - عقلا ودون تحيز - أن يحال بين الحقيقة والفضيلة وبين حقهما في العون ، وأن تترك الاستبدادية ، تتسلح ضدهما ؟ على كل حال هذا العون المادى مطلوب عدلا لم يباشره المسلمون بسهولة في الأقل بالصورة الحربية ، هنا أيضا يكفي أن يرجع إلى مصدر وثائقنا الثمين ، ذلك المصدر الذى ترتفع الآن صحته وأمانته التاريخية عن مستوى أى شك عند أى عالم كان ، أعنى القرآن لتبين التردد والتراجع اللذين أبداهما الأحرار أمام المشروع العسكرى الذى كانت غايته تحرير الأسرى ، لا لولايات الحرب ( ٢ - ١٦ ) وغريزة حب البقاء فحسب ( ٤ - ٧٧ / ٧٨ ) بل لظروف أخرى جد عسيرة كانت تجعل النضال فيما ترى أعينهم مستحيلا تقريبا .. أفندفع على غير استعداد لمواجهة عدو هو في طريقه إلينا ، وهو أكثر منا عددا وعدة ( ٣ - ١٣ ) أو لا يحسن أن نكتفى ببعض الإجراءات الانتقامية <sup>(١)</sup> غير المباشرة بحيث نشعر قريشا مقدرتنا على الرد ، ونحملهم على أن يحسنوا معاملة إخواننا .. وأنه لاولى أن نعترض غير التجارة القرشية بدل الصدام بجيشها المحارب ( ٨ - ٧ ) كذلك كانوا يتدبرون في

(١) معلوم أن المسلمين المهاجرين تركوا أملاكهم وأموالهم بين أيدي مضطهديهم.

( ٢٢ - ٤٠ ) أفلا يكون لهم حق التمويض الجزئى من تجارة هؤلاء ؟ .

فهذا ما يسميه « سائلكير » بثبات النهب ( مصادر القرآن ص ٢٤٦ ) .

المسكر الإسلامي ، لكن الواجب يلقي أوامره ، وتندق ساعة التضحية الكبرى ،  
فلقد أراد الله أن يحسم المعركة بين الحق والباطل ( الآيات السابقة نفسها ) .

فليس على المسلم إذن إلا أن يسلم لأمر الله حتى ، يحى من حى عن بيته ،  
ويهلك من هلك عن بيته ، ( السورة السابقة الذكر ٤٢ ) أولئك من أجل مثاليتهم  
وهؤلاء من أجل أصنامهم ( ٤ - ٧٦ ) تلك كانت الظروف التي انطلقت منها شرارة  
الصراع الأول بعد السلاح ، فظالمنا كانت الاضطهادات شخصية حين كان المسلمون  
بمكة كان لزاماً عليهم ألا يردوا أى رد عنيف ، وأن يحتملوا جراحهم في شجاعة  
( ٤ - ٧٧ ) أما الآن وقد أخذ عنف الوثنيين يأخذ صفة العموم ، وينقلب صراعا  
حربياً حاسماً لا لبس فيه ( ٢ - ٢١٧ ) فإن المؤمنين أخيراً بعد عشر سنين قد  
أذن لهم ( ٢٢ - ٢٩ ) ثم فرض<sup>(١)</sup> عليهم ( ٢ - ٢١٦ ) أن يؤازروا إخوانهم  
الذين ليس لهم حماية ( ٤ - ٧٥ )

(١) ثم تحول هذا الإذن إلى إلزام في ظروف سيئة جداً ، فلما ندرى كيف يؤكد  
سان كلير أن القانون القرآني عدل بنسبة نجاح جيوش محمد : ص ٢٧٩ ، ثم يقع في أخطاء  
أخرى في الباب نفسه : أولاً حين يعكس معنى الآية ( ٢١٧ - ٢ ) التي تمنع كل اعتداء  
أثناء الأشهر الحرم ص ٢٧٦ ، ثانياً : بعد وسائل السكبت التي اتخذت ضد الارهابيين  
( سورة ه آية ٣٣ ) شكلاً جديداً للحرب معبراً عن مرحلة ثالثة في هذا التطور ص ٢٧٧ .

# في القصص القرآني

للمؤلف: الأستاذ أحمد السائب

وكيل كلية دار العلوم

— ٤ —

٢١ — والاصل الذي أقامه خصوم القرآن لعلمهم بنالون من قدسيته وصحة قصصه وواقعيته أنهم قاسوا قصص القرآن بالقصص الذي يكتبه المعاصرون ، وبخاصة القصص التاريخي الذي يعتمد في مادته على أحداث التاريخ ، وقالوا إن الكاتب الذي يكتب قصة تاريخية لا يلتزم وقائع التاريخ وأحداثه ، وإنما يزيد وابتكر ويخترع ويغير ويبدل ، لأن هذا الكاتب يملك هذه الحرية الأدبية التي هي حق لكل فنان موهوب ، فكذلك القرآن حين يقص لا يلتزم واقع التاريخ ، وإنما يخرج عليه بالزيادة والابتكار والتغيير والتبديل نزولا على هذه الحرية الأدبية ، فهو كذلك عندهم يخالف الواقع في مادة الأخبار ، ويغير فيها وابتكر ويزيد ، ثم يقرر غير الواقع على أنه واقع ، فهو عندهم مفتر كذاب ، ثم يزيد فيجاري الناس فيما يعتقدونه ولو كان كذبا لعلمهم يميلون معه ، ثم لا يتورعون بعد ذلك أن يقولوا : إن القرآن من صنع محمد . . . كل ذلك وهم يعترفون أو يعرفون أن التاريخ الذي يريدون تحكيمه في قصص القرآن غير وثيق ، وأن ما بقي منه إنما هو أنباء مغلطة وخرافات وأساطير لا يمكن أن تثبت لنقد أو تعد علما يرجع إليه في بيان القيم الواقعية لقصص القرآن الكريم ، كما أسلفنا القول في ذلك ونؤكد ههنا من جديد .

٢٢ — من الدعاوى الخاطئة الجاهلة أن القرآن الكريم يقول ما لم يحصل ، وما لم يحصل ، قال ذلك خصوم القرآن وساقوا لذلك قوله تعالى حكاية لأقوال اليهود في شأن عيسى عليه السلام : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (١) .

ثم عقبوا على هذه الآية بقولهم : « وليس من شك في أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ، ومن أجل ذلك قتلوه ، فهم لم يقولوا هذا القول - رسول الله - وإنما أنطقهم به القرآن ، وهنا نجدهم يقولون بأن اليهود قتلوا عيسى خلافاً لنص القرآن الكريم الذي يقول : « وما قتلوه وما صلبوه ، ثم يدعون على القرآن بالكذب على اليهود وإنطاقهم بما لم ينطقوا به .

وهذا الذي قالوه جهل وضلال ، فإن كلمة - رسول الله - إما أنها من قول الله تعالى تعظيماً لعيسى وتزيهاً له عما نسبوه إليه من أنهم قتلوه ومن غير ذلك ، وإما أنها من قول اليهود أنفسهم مخزية بعيسى الذي عصوه وشاقوه ، وهذا التفسير يدهى جداً لا يعوزه فكر عبقرى ليصل إليه ، ومن عجب أن ينقلوا عن الكشف عبارة في صدد هذه الآية ظناً منهم أنها تثبت ما يدعون ، ونحن ننقل هنا عبارة الكشف بنصها : « فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام ، أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر بن الساحرة ، والفاعل بن الفاعلة ، فكيف قالوا : إنما قتلنا المسيح بن مريم رسول الله ؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء كقول فوعون - إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون - ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفماً لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله ،<sup>(١)</sup> وكلام الكشف صريح في أن الله يضع من عنده تعالى لفظ - رسول الله - تعظيماً لعيسى وتزيهاً له عما نسبوه إليه من سوء ، وكأن أولئك فهموا أن الله يضع ذلك على ألسنة اليهود ، وهذا فساد في الذوق ، وخطأ في فهم أساليب اللغة ، فوق ما في ذلك من ضلال مبين .

والقرآن هند هؤلاء الخصوم يتقول ما لن يحدث ، وهو بذلك عديم يخالف الواقع التاريخي ويخرج على مقرراته ، ومن ذلك عديم قوله في قصة عيسى في آخر سورة المائدة وصفا لموقف في الآخرة : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول



ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ،<sup>(١)</sup> هتبعوا على هذه الآيات بقولهم : « فهذا القول ، وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد ، بل لعله لن يحدث . »

فأما أن الإنسان يتحكم فيما سيحدث في الآخرة ، وفيما يكون بين الله ورسوله عيسى ، فذلك اجترأ ضال غير معقول ما دنا مسلمين مصدقين بكتاب الله ، وهذا المعنى مجال القول فيه ذو سعة ، وأما أن القرآن يعبر عما سيقع بالفظ الماضي استيقانا لحصوله ، فهو مذهب في الكلام بليغ ، كقوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ،<sup>(٢)</sup> وفي معرض الحديث عن أعداء الله في الآخرة يقول الله تعالى : « وقالوا للجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ،<sup>(٣)</sup> على معنى سوف يقولون للجلودهم ، إذ الأمر لا يعدو أن يكون استحضاراً لما يقع في المستقبل ، كما قد يكون أحياناً استحضاراً للماضي فيعبر عنه بصيغة الفعل المضارع .

٢٣ — وإذا كان القرآن الكريم لا يلتزم في قصصه المقومات التاريخية ، فليس من الإنصاف أن نأخذ عليه إهماله ذكر الزمان أو المكان أو حتى الأشخاص ، ذلك أن القرآن - كما قلنا - يقصد توجّهاً إلى مواطن العبرة والعظة ، وقد كنا في غنى عن ذكر هذه الملاحظة وأشباهاها ، لولا أنهم يوردونها شاهداً على خروج القرآن على واقع التاريخ ، ولكنهم يوردونها مقترنة بما سبق أن ادعوا به على القرآن القول بما لم يكن وبما لن يكون ، وكذلك الشأن في عدم استقصاء القصة في القرآن ، وفي عمده إلى التكرار حسب المقامات ، فذلك دأبه أو منهجه كما قدمنا في المقال الثاني من هذه الفصول .

ثم يقولون إن القرآن لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها ، وإنما كان يخالف في هذا الترتيب ويجاوزه <sup>(١)</sup> ، يذكرون ذلك شاهداً على عدم التزام القرآن واقع التاريخ ، ويقرونه بما ادعوا على كتاب الله من تقول وافتراء ، وقد قلنا من قبل إنه لا ضير على القرآن في ذلك ، فهو لم يأخذ نفسه بمدرسية التاريخ ، ولكننا نؤكد هنا أيضاً أن كل ما ذكر من أنباء متصلة بالأمم والرسل حقائق واقعية لا شك فيها .

ثم يقولون من شواهد مخالفة القرآن أنه عديم يناقض نفسه ، فهو يسند بعض الأحداث لآناس بأعيانهم في موطن ، ثم يسند نفس الأحداث لغير هؤلاء الأشخاص في موطن آخر ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عظيم ، إذ نزاه في سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عظيم ، وكذلك قصة إبراهيم في سورة هود أن البشري بالغلام كانت لامرأته ، بينما كانت البشري لإبراهيم نفسه في سورة الحجر وفي سورة الذاريات .

أما عن آيات فرعون وقومه :

- ١ - فن المعقول جداً أن يرى موسى بالسحر كل من فرعون وقومه في موطن واحد ، والقرآن الكريم روى كلام فرعون في موضع وكلام قومه في موضع آخر .
- ٢ - على أن الرازي في تفسيره <sup>(٢)</sup> أورد هذه الشبهة ثم قال : وجوابها من وجهين :  
الاول : لا يمتنع أنه قاله هو وقالوه هم فحكى الله تعالى قوله ثم وقولهم هنا - أقول وهذا الوجه من الرازي هو ما سميناه نحن بالتكامل بين القصص المتكررة في القرآن .

(١) راجع أمثلة ذلك في قصة لوط في الحجر / ٦١ - ٧٣ ، وفي هود / ٧٧ - ٨٣ . لتري ترتيب كل قصة للأحداث حسب مقتضى الحال ، وهو أمر متفق تماماً مع منهج القرآن الكريم في قصصه كما ذكر في المقال الثاني .

(٢) جزء ٥ ص ٣٩٦ .

الثاني : لعل فرعون قاله ابتداء فتلقفه الملائكة فقالوه لغيره أو قالوه عنه لتسائر الناس .

وأما عن بشري إبراهيم فقد ذكر الله تعالى في سورة الحجر أن البشري كانت لإبراهيم ، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ، <sup>(١)</sup> ، وفي سورة هود كانت البشري لاسرأة إبراهيم : « وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » ، <sup>(٢)</sup> .

١ - وهنا نقول أيضا : إن التكامل بين القصص المتكررة في القرآن يفسر هذه الظاهرة فإن البشري كانت لها جميعاً ، وقد حكى القرآن في سورة إبراهيم بشري إبراهيم ، وفي سورة هود بشري امرأته ، فلا تناقض بين الآيتين .

٢ - على أن آيات هود تفيد ذلك : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .. فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط .. » يقول الرازي في تفسيره : « وحصل السرور بسبب مجيء البشري - أي لإبراهيم - بحصول الولد » ، <sup>(٣)</sup> .

٣ - ومع ذلك - وإن كنا لا نحتاج بالتوراة للقرآن أو عليه - فما بال هؤلاء - وقد حكوا التوراة في قصص القرآن - ينصرفون في هذه المسألة عن التوراة ، وفيها أن البشري كانت لها معاً ( سفر التكوين ١٨ ص ٢٦ س ٥ ) .

٢٤ - ويقولون إن القرآن - في تناقضه - ينطق الشخص الواحد ، في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة ، ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار ، فقد نودي في سورة النمل بقوله : « فلما جاءها نودي أن بورك لمن في النار ومن حولها ، وفي سورة القصص : « فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » ، وفي سورة طه : « فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إني بالوادي المقدس طوى » .

ولا نجدنا في حاجة إلى تكرار ما قلناه في مثل هذه الآيات من أن هذه

(١) الحجر / ٥٣ . (٢) هود / ٧١ . (٣) وراجع الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦ .

الأقوال قلت جميعاً في هذا الموقف ، إلا أن الله قد فرقها بين مرات القصص بحسب مقتضى الأحوال .

وأقول أيضاً : ما كنا في حاجة إلى تتبع ما قالوه واستقصائه ، لولا أنهم أوردوا هذه الدعاوى في ظل ما سموه حرية القصص القرآني ، وعدم التزامه واقع التاريخ ، وتظليل هذا الكلام بظل الكذب والتناقض ، وعلى ذلك فحرية القرآن عندهم هي هذه الحرية الفنية التي تجعلهم يمسكون القول عما فيها من تاريخ .

٢٥ - وما يورده المعارضون بدعوى التناقض أن فرعون عابد في قوله تعالى على لسان قومه : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك » <sup>(١)</sup> ، ومعبود في قوله : « أنا ربكم الأعلى » <sup>(٢)</sup> ، « ما علمت لكم من إله غيري » <sup>(٣)</sup> .

١ - مع أن الواقع أن فرعون كان عابداً للشمس معبوداً للشعب <sup>(٤)</sup> .

٢ - على أن الرازي في تفسيره <sup>(٥)</sup> قد أجاب عن هذه الشبهة بما يقرب من هذا ، إذ قال ما خلاصته : إن فرعون قد اتخذ أصناماً على صورة الكواكب يعبدها ، ثم طلب من الشعب عبادتها أيضاً .

والقرآن عند المعارضين يخلط ، فيقرر أن مريم أخت هارون أخى موسى مع بعد ما بين موسى ومريم أم المسيح <sup>(٦)</sup> ، وبخاصة ما ورد في القرآن من أن مريم ابنة عمران ، فلا شك عند المعارضين أن محمداً في قرآنه توهم أن مريم أخت هارون التي كانت أيضاً ابنة عمران ، هي نفس مريم التي صارت أم المسيح بعد ذلك بنحو ألف سنة وخمسمائة وسبعين سنة ، وهذا خطأ عظيم ، فيما زعم المعارضون .

نقول : وهذا الاعتراض مدفوع بوجوه :

١ - ليس ما يمنع مطلقاً أن يكون لمريم أم المسيح أخ يدعى هارون ، وأب يدعى عمران ، فهذا مألوف في الحياة ، إذ كثيراً ما تتحد أسماء الناس وأسماء آبائهم .

(١) الأهراف / ١٢٧ . (٢) النزاعات / ٢٤ . (٣) القصص / ٣٨ .

(٤) راجع قصة المختارة ج ٢ ص ١٥٥ - ١٦٣ . (٥) ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٦) سانت كلير : تنوير الأفهام في مصادر الإسلام .

ولا سيما أنهم لا يعرفون اسم أبي مريم عليها السلام معرفة جازمة ، فلا غرابة إذا جهلوا أن أباها يسمى هارون .

٢ - وللرازي في تفسير هذه الآية <sup>(١)</sup> اتجاه آخر فيقول : وأما هارون ففيه أربعة أقوال ، الرابع ، كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعُتيرت به ، وهذا أقرب لوجهين :

الأول : أن الأصل في الكلام الحقيقة ، وإنما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها أخ يسمى بهارون .

الثاني : أنها أضيفت إليه ، ووصف أبوها بالصلاح ، وحينئذ يكون التوبيخ أشد ، لأنه من كانت حال أبويه وأخيه هذه الحال يكون صدور الذنب عنه أخف ، ونص الآية : يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، <sup>(٢)</sup>.

٣ - على أن ما ذكر في القرآن من شئون مريم إنما ذكر على أنه كان في حياة زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، <sup>(٣)</sup> ، وفي السور الأخرى يذكر القرآن لإسرائيل وبنيه موسى ومسايرهم <sup>(٤)</sup> .

فهما ، إذا ، في نص القرآن الكريم عنصران متباعدان .

وهكذا نجد هؤلاء المبشرين ومن يلوذون بهم يدعون على كتاب الله دعاوى تافهة يلبسون بها على الناس ، ويدلون بها على جهل على وضلال ديني ، وفساد خلقي ، وسننظر فيما بعد ذلك ؟

(١) ج ٥ ص ٢٨٨ . (٢) مريم / ٢٨ . (٣) آل عمران / ٣٧ .

(٤) الأعراف / ١١٦ - ١٢٨ .

# قال شيخنا

للسيد الطائف الفاضل الأستاذ أحمد محمد بري

قال شيخنا :

تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها تستهل  
وعتاق الطير تغدو بطانا تتخطاهو فما يستقل

ليس براعة استهلال أن تستهل الذئاب وتضحك الضباع فرحا بجثث القتلى :  
قتل هذيل التي تغدو سباع الطير عليها خماسا ، فلا تلبث أن تصبح بطانا من اللحم  
والشحم ، فهي تتخطى الجثث ، ويكاد املاؤها يعوقها أن تطير فتناقل إلى الأرض  
وما تستقل ، على أن الشعر ليس استهلالا في واقع الامر ، بل هو ختام القصيدة ،  
والقصة قصة الشعب ، الذي دون سلع ، وقتيله الذي لم يطل دمه .

قلت : تضحك الضبع : تعبير قرأته منذ أيام في قصة لأحد كبار كتاب فرنسا  
اسمها « حرب النار » ، ذلك بأن المكاتب الكبير يحدثنا عن بني آدم ، وكيف كانوا  
يعيشون منذ نحو مائة ألف سنة . . أيام لم يكونوا بعد قد عرفوا كيف يستنبطون  
النار إذا هي خدت ، فكانوا مضطرين إلى استبقائها حية . . يقدونها آفاه الليل  
وأطراف النهار لا يفترون ولا يغفلون لحظة ، فهم لو فقدوها لم يكن من اليسير  
أن يفتدوها ، ويأبى الحظ العاثر العشيرة التي يحدثنا عنها كاتبنا الكبير إلا أن تنعاف  
نارها أثر معركة كانت بينها وبين عشيرة أخرى معادية .

قال : بحسبك أن تقول « بينها وبين عشيرة أخرى ، فإن « الأخروية » ، تتضمن  
العداء ضرورة ما دام الحديث عن الإنسان القديم الذي كان يعمر الأرض منذ نحو  
مائة ألف سنة ، ولما ذا مائة ألف ؟ إنه منذ أقل من عشرة آلاف سنة لم يكن  
يعرف « العشيرة الصديق » ، فكل جماعة غير ذويه عدو مبين مادام الدم الذي يجري

فى عروقها ليس دم فصيلته - أعنى الفصيلة بمعناها اللغوى لا بمعناها الاصطلاحى الحديث - فالأجنبى ليس به حاجة إلى صفة أخرى كما يكون عدوا ، أفلا تلح هذا فى لغتنا العربية ، أفليس « العدو » من : ع د و . أنه كل من عداك ، أو عدا العشيرة التى أنت منها .

قلت : أعرف أن عدا يعدو عدوا : أسرع فى مشيته ، وأن اعتدى عليه يعتدى اعتداء : نال منه أو تعدى عليه أو ظله ، قال تعالى وكرر القول : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

قال : أوليست تعدى أخت عدا ؟ إنك لتعلم ، أو عسى ألا تعلم ، فلست أدرى ، إن الماديات فى اللغة أسبق وضعا من المعنويات ، فأنت تقول : عدا عليه أى جرى نحوه ، بيد أنه لا يجرى نحوه إلا ليقته أو يأسره أو ينال منه نيزاً أباً ما كان ، ثم أجد اللفظ يكتسب سماته المميزة ، ومعانيه أو طلاله المختلفة التى تعرفها الآن ، فأنت تعدو الآن دون أن تعدو - إن صح هذا التعبير - أعنى تعتدى وأنت قاعد أو جالس أو نائم ، أليس الشتم والسب عدواناً ؟ بلى وإنه لعدوان مبین تستطيع أن تنال به الواحد والعشرة والآلاف بل الإنسانية كلها وأنت مضطجع ناعم البال ، إن « العدو » و « العدا » كليهما صيغة مبالغة من « ع د و » ، ولكنك تعرف الفارق الكبير بينهما ، فالأول يعتدى على غيره ، فى حين أن الثانى لا يريد على أن يعدو عدواً شديداً أو كثيراً ، أى يجرى ما شاء الله أن يجرى أو يضرب فى الأرض دون أن يلحق الناس أو غير الناس منه أذى ، أفتحسب هذه المعانى والتفريعات المتباينة كان اللفظ يتضمنها جميعاً حين وضع أول ما وضع ؟ .

قلت : ولم لا إن كان الإنسان علم البيان توقيفا كما يرى ذلك بعض فقهاء اللغة ، لا أعنى اللغة العربية وحدها ، بل سائر اللغات ، فهى نظرية عامة فى فقه اللغات الحضارية .

قال : تستطيع أن تثرثر فى هذا الموضوع كما تثرثر فقهاء اللغة قديماً وحديثاً ، وأحسبهم ما زالوا يثرثرون ، ولن تنتهى المناقشة أبد الآبدين ودهر الدهارين ،

أنسيت مسألة البيضة والدجاجة أيتهما أسبق وجوداً ؟ إنه لا سبيل إلى معرفة البدايات ، وأحسبني في هذا الصدد مقتنعاً أتم الاقتناع بقوله تعالى : « ما أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، ولست أرتاب في أنه جل شأنه كذلك لم يشهدهم خلق الدجاجة والبيضة ولا خلق اللغة ، إنه لطريف حقاً ذلك البهانة الأوربي الذي قال : إن اختراع اللغة يستلزم أداة ضرورية هي اللغة نفسها . . أجل فليست نظرية التوقيف ، أو بعبارة أخرى لإلهام الله الإنسان اليان مجرد ورع ديني كما يحلو لبعضهم أن يقول ، ولكنها شيء تضطر إليه بعض العقول اضطراراً لا اختيار لها فيه ما دامت اللغة هي الأداة الضرورية لاختراع اللغة ، ولكن فقه اللغة شغلنا عن موضوعنا الذي كنا فعالمه ، أفلم تكن نقص على قصص العشييرة التي خدعت ناراها ؟ .

قلت : نعم فبعد أن حسب رئيس العشييرة على أصابع يديه ورجليه حساب المحاربين الذين قدّم فرغ لحديث النار التي انطفأت ، فإذا تراهم قاعلين ؟ أفيحيون حياتهم كلها لادفء ولا انضاج طعام ؟ وأدهى من ذلك وأمر أن الذئاب والكلاب الوحشية والضباع والنور والفهود وسائر الضواري ستجرو عليهم . فليس غير النار ما يصدّها عنهم إذا أردف الليل عجزاه ونام بكلّكله ، إذن لا بد مما ليس منه بد تخوم وبعثة ، أو « سرية » تبحث عن النار في مظانها المختلطة ، ويتشاور القوم فيما بينهم ويقرّ قرارهم على أن « ابن الفهد » خير من يحمل تلك التبعة التي ندب لها ، واختار اثنين يصحبانه في تلك الرحلة ، بيد أن « ابن الثور » يغضب ويريد أن ينقض على ابن الفهد ليثّل به ، ولكن هذا ليس أقل منه شجاعة ولا قوة عضل . . ويقوم شيخ حكيم مبينا للبلأ أن العشييرة فقدت كثيراً من محاربيها الأشداء ، وأن « ابن الفهد » و « ابن الثور » كليهما لازم بقاؤه لخير الجماعة ، فليذهب كل منهما في وجه عسى أن يوفق فيكسب النار . . ويعلن الرئيس أن « جاملا » بنت أخته أجل فتيات العشييرة ستكون حظ الذي يحب بالنار ، وكذلك يولي ابن الثور وأخواه وكلهم ذو بأس شديد وجهة ، وابن الفهد واللذان اختارهما وجهة أخرى .

قال : واضح أنهم كانوا ينسبون إلى جد أعلى حيوان غير ناطق .



قلت : وأحياناً إلى الشجر ، أفلسنا في أزمان الطوطمة ، وما الطوطم ، إلا حيوان أو شجرة إليه أو إليها ينتهى نسب القبيلة ، فهو أبوها الأعلى المشترك بينها وبين الحيوان أو الشجر الذى لم يتطور كما تطورت الناس ، وما دمنا في باب النسب والتطور فهانحن أولاء نرى أن الطوطمة ، هى الجدة العليا لنظرية التطور التى ذهب بفنارها دارون ، ولامارك ، ولكن الطوطم ، ليس قصاره أنه أبو القبيلة ، فهو أيضاً معبودها المقدس أو إلهها المعبود ، ومن هنا تحريم بعض صنوف الحيوان أن يذبح ويؤكل حتى بعد أن تنوسيت ألوهيته وعبادته ، فلا يتردد المؤرخون الوضعيون في أن تحريم لحم الخنزير في التوراة أثر من آثار الطوطمة التى سبقت الديانة الإسرائيلية .

قال : مهلا ، فثم تخليط وارتيباك ، وما شئت من متناقضات إن مؤرخيك ، هؤلاء الوضعيين ليقصون علينا كذلك أن الطوطمة هى الأصل في استئناس بعض الحيوان والنبات الوحشى ، فلقد كان من السنن الموروثة أن الطفل أو الشاب يشرب من دم جده هذا الحيوان أو يأكل من لحمه أو يطعم ثمر الشجر إن كان طوطمه شجراً ، ومن أجل هذا جرى العرف على أن يربي صغار الحيوان ويزرع الشجر ، ليذبح ذاك ويؤخذ ثمر هذا فيما بعد ، أفلا تراهم نارة يردون استئناس الحيوان وذبحه بوصف كونه جداً يجب أكله أو شرب دمه ، وتارة أخرى يردون منع ذبحه وأكله إلى تلك القداسة الأهلية أو الإلهية .

ثم هم يفرقون بين الصنم ، وبين الطوطم ، من حيث أن هذا ليس ذا قوى سحرية كذاك .. على أن ثم أصناماً تعبد لذاتها ، فهى فيما يرون آلهة أو تتقمصها الأرواح التى تملك الضر والنفع ، وثم أصنام أو سمها إن شئت أو ثانا لا تتقمصها أرواح ، وإنما هى تماثيل أو رموز للآلهة ، فالصنف الأول هو ما يسمى « فيتيش » ، والثانى « إيدول » ، أما عندنا فى اللغة العربية فلا نعرفه ، بل يحذرك صاحب القاموس عن الوثن معرفاً بإياه بأنه الصنم ، وعن الصنم معرفاً بإياه بأنه الوثن ، على أن لأصحاب الملل والنحل عندنا إصلاحات لا تتفق وأصل الوضع اللغوى .. والظاهر أن الوثنية أعم وأكثر شمولاً من الطوطمية التى عسى أن تكون خاصة

بعض العشائر والقبائل ، أجل . فنحن نحب الآن في عصرنا هذا قبائل بدائية إفريقية وغير إفريقية وثنية لا تعرف شيئاً عن الطوطمة قل أو كثر ، فأما القبائل أو العشائر ذوات الطواطم فإنها لا تعطى طواطمها اختصاصات إلهية ، بل حدها قرب الدم التي تجمعها. والحيوان أو النبات الطوطم ، تلك هي الحال في أيامنا هذه .. ولكن مؤرخي الأديان رأوا الشعوب القديمة كالإغريق والمصريين عبدت الحيوان فاستنتجوا أن تلك العبادة مردها أصلاً إلى الطوطمة التي ما تزال قائمة حتى أيامنا هذه ، فهي إذن سنة إنسانية ، أو طور عام لا تخلو جماعة آدمية من أن تكون مرت به ، ثم تجاوزته أو لزمته فلم تبرحه كبعض سكان أمريكا الشمالية الأصليين ، إن المسألة لا تمدو أن تكون احتمالاً رجحوه ، ومن يدري فعسى أن يقلب شأن شؤونا فلا يلبث الراجح أن ينقلب مرجوحاً ، ويتبين مثلاً أن المصريين الأقدمين عبدوا دأبيس ، دون أن يرموا بطور الطوطمة ، وأن دزيس ، إله آلهة الإغريق كان يحلوه أن يزين أحياناً برأس نسر دون أن يكون لذلك علاقة بطوطمة سابقة .

قلت : إن دراسة التاريخ القديم تقوم على الحدس ، أو الألمعية التي تجعل صاحبها يظن بك الظن ، كان قد رأى وقد سمعاً ، أفلم يقل درينان ، نفسه أنه وأضرابه صناع مصنع ما ينفك يقام لهدم ثم يعاد بناؤه من جديد .

قال : حذار من تحريف الكلم عن مواضعه ، أو استعمال الألفاظ المهمة ، أو التي اكتسبت لوناً جديداً يضاف إلى ألوانها القديمة ، إلا أن العين لم تتألفه بعد فهي ما تزال تحطه أو تزوغ عنه ، ولقد أصبح للكلمة حدس ، عندنا في العربية بعد أن ترجمت بها كلمة دبرجسون ، الفرنسية مدلول اصطلاحى فلسفى ، فهي تعنى ما يسميه أبو حامد الغزالي رضى الله عنه عين البصيرة ، نعم فإن برجسون يحدثك عن معلومات أو سمها إن شئت دفيوضات ، باطنية تستمد من الداخل استمداداً ثابتاً يقينياً أدق وأصفى مما يستنبطه العقل عن طريق القياس المنطقي ، أفليس ذلك هو الإلهام ؟ ولكنك تعلم طبعاً أن الوضعيين يتسمون لهذه المعارف الحيوانية ، وكيف تريد على أن يتذوقوا شيئاً يتطلب تذوقه حاسة خاصة هم قد حرموها ،

فلا أقل من أن يفكروا ، بيد أن الفيلسوف العبرى الفرنسى ساطانا لم يستطيعوا أن ينقصوه شيئاً ، ولقد فعلوا لو استطاعوا .

قلت : تريدون : ولو استطاعوا لفعلوا .

قال : ما كنت لآبى لو أنك رددتني إلى الصواب ، وحسبى أن أقول لك :  
خذا جنب هرثى أو قفاها فإنما كلا جانبي هرثى من طريق  
أجل : فإن ، وقد فعلوا لو استطاعوا ، تساوى : ، ولو استطاعوا فعلوا ،  
أو لقد فعلوا ، .

وقد سامنى ما جرت الحرب بيننا بنى عمنا لو كان أمراً موافياً  
قلت : فلقد ظلمت دهرأ أحسب أنه يأسف ، وأنه قد ساء ما جرت الحزب  
بينهم ، ولكنى تألفتها فيما بعد وفهمت أنه يريد : لو كان الأمر يسيراً لسامنى  
ما جرت الحرب بيننا ، ولكنه ليس يسيراً ، فلم يسوئنى ما حدث بيننا جراء ذلك  
الأمر العظيم .

هذا ، ولقد أرانا نفع فيما يؤخذ علينا من أننا نستطرد . نحن المشايخ - من  
الموضوع الذى يشغلنا إلى مسألة نحوية أو لغوية ، وبالله لقد صدق الذى قال :  
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رصه

على أن المشايخ فى فرنسا يفعلون فعلتنا ، إلا أنهم هناك لا يؤاخذون بما فعلوا .  
قال : فن ترى يؤاخذنا بما نفعل ، أما والله لو آخذنى غير جاهل بتلك اللغة  
الشريفة التى نتحدث بها ، إذن والله لسمعت ونظرت فى مسلكى وغيرت إن اقتضعت  
بأن الصواب فى التعبير ، ولكن الذى أضيّق به هو أنى أنسيت فيم كنا قبل  
المسألة النحوية ؟ .

قلت : كنا فى الوثنية والطوپمة .

قال : ليت قليلاً فى اللغة ، لم لا تكون تلك الطوپمة هى التيمة العربية .  
فلست تدرى فى اللغات القديمة أيتها أخذت من الأخرى ، أفليست التائم أو التيم  
- جمع تيمة - هى ذلك الحرر المرقط أو المنقش ، لم لا تكون تلك صوراً أو تماثيل

لهذا الحيوان أو الجسد القبلي الأعلى ؟ وماذا لو قلنا تيممة وتيم أو تماثم بدل طوطم وعطوطم ؟ أم تراني أخرف ، وعنى أن تكون الأمة العربية من تلك الأمم التي لم تمر بطور الطوطم .

قلت : فأصحاب تاريخ الأديان الوضعي يرونه - كما أسلفنا - طوراً لازماً ، أفلم تقرأوا الفلسفة الوضعية وتاريخ الأديان والأطوار التي مرت بها الفكرة الدينية ، أفليس الدين ظاهرة اجتماعية كغيرها من الظواهر بدأت بسيطة ثم أخذت تتعقد مع مرور الزمن .

قال : فهم على النقيض يرونها بدأت معقدة ثم انتهت إلى بساطة التوحيد .

قلت : يحضرني لهذه المناسبة ما قرأته للأستاذ « بيير ريم » ، في كتابه « التاريخ العام للأديان » ، فهو يروى عن « ديلافوس » ، أن في أفريقية الغربية ديناً سامياً - من السمو لا السامية - يحجبه عن أعين الغربيين ما تراكم عليه من الوثنيات حجياً غير مستحکم ، يمكن أن تلبح خلاله هذا الدين القويم ، فالسكان هناك يؤمنون بالله واحد خلق كل شيء ، خلق الكون كله بجميع ما يحتويه من ماديات ومعنويات ، والجدير بالملاحظة حقاً أن القوم على بدائيتهم يفرقون بين المادى والمعنوى ، ولا يصدق على أذهانهم أن الخلق عمل ينصب لا على ما يقع عليه الحس فحسب ، بل على المجردات أيضاً ، والخالق نفسه فيما يرون روح مجرد ، بيد أنهم من حيث العبارة يخلطون بينه وبين السماء ، وإذا كانوا لا يتجهون بالعبادة أو الدعاء إلى هذا الإله الأحد خالق كل شيء ، فذلك يعنى أن نظرهم إليه تشبه نظرة الإغريق القدامى إلى « القدر » ، على أن مما يزيد في عناء الباحث ويجعل مهمته متعسرة أو متعذرة ذلك الطابع السرى الذى يميز الجماعات الدينية هناك .

قال : حسبك من القلادة ما أحاط بالعتق ، فليس خفياً أن التوحيد هو الأصل عند تلك الجماعات البدائية التي لم تثبت بعد أن طال عليها الأمد أو زمن الفترة إن استسلمت إلى التعدد والوثنية والطوطمية أو ما شاء الشيطان من سبل الضلال . . إن الانحراف عن جادة الصواب أمر سهل وقوعه يسير تصوره ، فهؤلاء قوم أرسل الله إليهم رسولا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهو

ما ينفك يرشدهم حتى إذا انتقل إلى بارئته علقوا ذكراه ، وبدأوا يقصدونه قداسة  
شبه لإلهية ثم لإلهية ، وعسى أن تكون له ذرية يتناولها التقديس كذلك ، ولا  
تلبث الصور والتماثيل أو الأوثان والأصنام أن تتخذ أماكنها في المعابد أو الهياكل ..  
على أن أصل الهداية مهما يقدم به العهد فهو لا بد واجد متنفسا أو متسربا إلى نفوس  
ذوى الأبواب ، إن هذا التوحيد الإفريقى أو الاسترالى لا بد منته إلى رسالة قديمة ،  
فلست تزعم بطبيعة الحال أن القوم أعملوا عقولهم فوصلوا إليه ، كلا فهم قد أعملوها  
إلا أنهم وصلوا بها إلى التعدد والوثنية ، أو ما تسميه الطوطمية ، وأسميه « التيمية »  
أفليس عندنا « بنو أسد » و « بنو كلب » و « نعلب » و « أنمار » أو لم يكن لهم  
جميعاً « تماثيل » ، نيطت عليهم أيام الطفولة حفظتهم من تحوایل الحدثان :

بلادها نيطت على تماثلي وأول أرض مس جسمى تراها

هذا ولا يفوتك أن ذلك التوحيد توحيد « السود » فى العالم القديم « والحر »  
فما اصطلاح على تسميته العالم الجديد .

قد انتفى أن يكون مرده إلى عقول العقلاء وحكمة الحكاء من « الهوتفتوت »  
وأشباه « الهوتفتوت » ، وإنه لمتنف كذلك أن ترده إلى الإسلام أو النصرانية  
أو اليهودية ، فليس بين معتنقى تلك الأديان وبين أولئك المتخلفين أسباب متصلة  
أو كانت متصلة فيما يعلم أصحاب التاريخ ، فليس ثم إلا احتمال واحد يفرض نفسه  
فرضاً بالضرورة . . . ذلك أنه يفتى إلى وحى قديم أوحى الله به سبحانه وتعالى إلى  
من أوحى من رسله الذين قال فيهم مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين : « منهم من  
قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » أجل ، فإنه « جل وعلا » لم يؤثر قوماً  
على قوم ، أو لونا على لون ، بل اتصل بخلقهم جميعاً عن طريق رسله مذ كان على  
الأرض آدميون ، أو أناس مكلفون : « لما عرضنا الأمانة على السموات والأرض  
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً »  
أفلم يحدثنا القرآن الكريم عن إرسال آدم ونوح وإبراهيم وعن قرون بينهم كثير ؟ .

قلت : إذن فما دلالة أنه سبحانه وتعالى فضل بنى إسرائيل على العالمين ؟  
أفليس مؤداه أنه آثرهم بنعمة التوحيد فى حين أن غيرهم من الناس مترد فى حماة التعدد ؟ .

قال : واضح أنه تفضيل محدود زماناً ومكاناً وموضوعاً ، فلقد كان التوحيد ولم يكن لإسرائيل بعد .. ثم أن بني إسرائيل كفروا بنعمة الله عليهم ، وجحدوا ميثاقه الذي واثقهم به ، بل أنهم قارفوا الوثنية ورسولهم بين ظهرانيهم ، أفلم يتخذوا عجلاً جسداً له خوار وقالوا هذا إلهكم وإله موسى ؟ إن أصحاب التاريخ الوضعي الذين تبدى ويعبد في ذكرهم ليقررون أن التوحيد ظل مزروع الأركان في بني إسرائيل قروناً طويلة ، فلم يستقر استقراره الأخير إلا نحو سنة خمسمائة قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام .

ولكن كيف تسللنا من « حرب النار » ، والبعثين اللتين خرجتا تبحيان عنها إلى بني إسرائيل ، ماذا كان مصير ابن الفهد وصاحبيه ، وابن العجل أو الثور وأخويه ، و « جاملا » أو « جاميلا » التي تبدى من خلال حروف اسمها جميلة من كان صاحبها ابن الفهد أو ابن الثور ؟ أفلم ينته بك فواصل الفرنسي إلى مستقر تلك الأنبياء ؟ .

قلت : بل انتهى إلى أن ابن الفهد استطاع أن يكسب موقعة النار بعد عشاء أى عشاء ، وأهوال أى أهوال ، على أنه وفق توفيقاً لم يكن يخطر له على بال ، فلقد تكشف له سر استخراج النار من شجرتها ، وإن كان احتفظ به لنفسه ، فلم يشأ أن يطلع عليه العشيرة التي عاد إليها يحمل النار حية مشتعلة ، بيد أنه لم يباغ قريباً من الحي حتى ظهر له ابن الثور وأخواه يريدانه ، باسم القوة ، التي ما كانوا يعرفوا قانوناً غيرها ألا ينزل لهم عن كسبه هذا العظيم .. أن ابن الثور ليتخط لعابه على بنت أخت رئيس العشيرة ، فهي الثمن أو جائزة الفوز لمن يدفء العشيرة ، ويسعد في إنضاج طعامها وحفظها أن تتخطفها السباع جراء غياب هذا الحيوان النافع الضار .. فلقد كان القوم حينذاك « استحيائيين » ، بلغة الاصطلاح ، أعنى أنهم يصفون الحياة على النار والحجر والشجر وسائر صنوف الجماد ، فكل شيء عندهم حتى حتى الأموات الذين ما ينفكون يزورونهم في الأحلام ، ذلك بأنهم ما كانوا ليفرقوا بين الرؤيا في النوم وبين الرأي ، رأى العين في اليقظة ، ولكن ابن الفهد كان شجاعاً باسلاً لا يعنيه أن يلاقى ابن الثور يوماً أو يقظة ، فلم يتردد في أن ينازله وأخويه ويقتلهم جميعاً ، والظاهر أن « جاميلا » كان يسرها أن ينتهى الأمر هذه

النهاية السعيدة .. ولكن المؤلف يحرص على أن يبين لنا أنها ما كانت لتحتج أن تكشف عن حقيقة عواطفها لو أن الدبرة كانت على ابن الفهد ، والنصر حليف ابن الثور ، فهى تعرف القانون ، قانون حق الأقوى ، وتصدق فى طاعته مهما تكن العواقب فهى راضية على كل حال .. إنها إنسانية موهلة فى القدم ، فتلك أحداث وقعت ، أو كان من الممكن أن تقع فيما خيل إلى المؤلف منذ مائة ألف سنة .

قال : فنحن إذن ، فيما قبل التاريخ الذى لا تتجاوز فيما تحسبون وتقرخون سبعة الآلاف سنة الأخيرة .

قلت : ولكن الآثار والحفريات وعلم طبقات الأرض تخبرنا كثيرا من أخبار القرون الأولى .

قال : فتلك علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى .. كذلك أجاب موسى عليه السلام حين سأله فرعون : « فما بال القرون الأولى ، ولست أكتملك أنى أشك ، لا فيما وراء الآلاف السبعة فحسب ، بل فى محتواها .. أفلا ترانا نختلف فى الوقائع والأحداث التى نراها رأى العين ، فما بالك بما أتى عليه كره الغداة ومر العشى ما شاء الله أن يأتيا ؟ »

قلت : تلك نظرية فى التاريخ لها أنصارها الجادون الدارسون ، ولكن الذى يشغلنا من حيث الدين هو : أنى الحق أن الإنسان الأول بدأ يُعبدُ آلهته ، ولم ينته إلى فكرة التوحيد أو يهتد إليها إلا بعد أن أتى عليه حين من الدهر طال أو قصر ؟ .

قال : ملاك الأمر كله آية الحدثان ، أعنى قوله تعالى : « ولذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، إنها لأوسع وأخطر من أن نعرض لها بعد أن كل ذهنى عاقبة « حرب النار ، وكانبك ذلك الفرنسى الذى أبى ألا تشغل به أكثر حديثنا ، فألى فرصة أخرى نفرغ فيها لمبادئ التوحيد والوحدة التى هى أصل كل شىء ، وهل كانت الكثرة إلا منها وإليها ؟ »

# منهج الإسلام

## في إصلاح عقائد الألوهية والربوبية

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بس سوبلم ط

من كبار علماء الأزهر

— ٢ —

• النوع السادس ، من أنواع الأساليب التي قرر بها القرآن عقائد التوحيد والتنزيه ، الأساليب التي تقرر أن الله تعالى حي قيوم ، لا تأخذه غفلة عن تدبير أمور الكائنات وتصريف شئونها ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يشوده حفظهما وهو العلي العظيم ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تقرر أن الله جل جلاله هو الحي الدائم الحياة ، الذي لا يلحقه فناء ولا عدم ، القيوم الدائم القيام بتدبير أمور الكائنات وحفظها ، وإمدادها بما به قوامها وحياتها ، فلا حياة لحي إلا وهي مستمدة منه تعالى ، ولا قوام لشيء في الوجود إلا به عز شأنه ، ولا تأخذه غفلة عن تدبير شئون خلقه ، ومراقبته لكل ما يجري في الكائنات ، ولا يعتريه سبحانه عجز ولا قصور ، ولا يعظم عليه أمر السموات والأرض ، ولا يشق عليه حفظهما على عظمهما وتعدد عوالمهما ، فهو قيوم السموات والأرض الذي لا قوام لهما إلا به ، وهو العلي العظيم الذي يتضاءل كل عظيم بجانب عظمتة ، بل لا عظيم غيره ولا كبير سواه .

• النوع السابع ، الأساليب التي تقرر أن الله تعالى هو القادر المقتدر ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، والإبداع والتقدير ، كقوله تعالى في سورة المسائدة : « والله ملك



السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير ، وفي سورة الكهف : « وكان الله على كل شيء مقتدرا » ، وفي سورة لقمان : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ، وفي سورة فاطر : « وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليا قديرا » ، وفي سورة الأنعام : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء » ، وفي سورة الفرقان : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ، وفي سورة القمر : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة ، التي تقرر أن الله جل جلاله قادر مقتدر ، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، وأنه تعالى متفرد بالخلق والإيجاد والتقدير ، خلق هذه العوالم التي لا تحيط بها العقول والأفهام ، وقدر كل شيء خلقه تقديراً معلوماً ، ودبر أمره تدبيراً حكماً ، وكون عناصر الكائنات من مقادير مقدرة بموازين دقيقة محكمة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : « وكل شيء عنده بمقدار » ، وفي سورة الحجر : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » .

وجعل لكل عالم من العوالم الكونية ناموساً لا يتعداه ، ووضع له من السنن الكونية ما يحفظ عليه بقاء نوعه إلى الأجل المكتوب له ، وممكن للضعيف منها أن يعيش بجانب القوى ، بما هيأ له من وسائل الحياة والبقاء ، وجعل للجميع نظاماً عاماً يربط بينها برابط وثيق ، وينظم روابط التعاون بين العوالم العلوية والعوالم السفلية ، لجميع العوالم الكونية قائمة على سنن معينة وأنظمة محكمة ، وجارية على أحسن الوجوه وأكملها ، وأبدع النظم وأعدلها ، ومشمولة بالعتاية الإلهية والرعاية الربانية ، لا فرق في ذلك بين العوالم العلوية والعوالم السفلية ، ولا بين الصغير منها والكبير ، ولا بين العاقل منها وغير العاقل ، كما يشير إلى ذلك قول الله عز وجل في سورة الأنعام : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون » ، وإن نظرة واحدة في أنظمة حياة الحيوانات في البر والبحر ، لتدل دلالة قاطعة على أن عين العتاية الربانية تلحظ برعايتها كل شيء في هذا الوجود ، فتبارك الله رب العالمين .

« النوع الثامن ، الأساليب التي تقرر تفرده تعالى بالملك والملكوت ، والتدبير والتصريف ، والعزة والجبروت ، كقوله تعالى في سورة المائدة : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ، وفي سورة يس : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ، وفي سورة السجدة : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، إلى غير ذلك من الآيات التي تقرر أن الله تعالى هو مالك الملك وحده ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، وله الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآب ، كما قال سبحانه في سورة الأعراف : « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ، وفي سورة آل عمران : « والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ، وفي سورة النور : « والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » .

فكل الكائنات في قبضة قدرته ، وحادثة بخلقها وتقديره ، وسائرة بتدبيره وتصريفه ، وخاضعة لسلطانه وقهره ، كما قال جل جلاله في سورة الأنعام : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ، وفي سورة الزمر : « سبحانه هو الله الواحد القهار ، قهر الحياة بالموت ، والصحة بالمرض ، والعز بالذل ، والغنى بالفقر ، والشباب بالشيخوخة ، والفرح بالحزن ، والرخاء بالشدة ، والغنى بالطغيان بالبطش والانتقام ، والغفلة والبطر بالشدائد والنذر ، وهكذا قهر كل شيء في هذا الوجود بضده ، إظهاراً لقدرته وحكمته ، وتعريفاً بجلاله وعظمته ، وإعلاماً بسلطانه وهيمنته ، فسبحانه هو الله الواحد القهار .

« النوع التاسع ، الأساليب التي تقرر أن الله تعالى عليم خبير ، كقوله تعالى في سورة الأنعام : « وهو الله في السموات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وفيها أيضاً : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ، وفي سورة يونس : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أضغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

وفي سورة لقمان : « إن الله عليم خبير ، إلى غير ذلك من الآيات التي تقرر أن الله تعالى عالم بجميع المعلومات ، محيط بكل ما يجري في الكائنات ، مطلع على هواجس الخواطر وخفايا السرائر ، خبير بمطويات النفوس ومكنونات القلوب ، فلا تخفى على الله خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، كما قال عز وجل في سورة الطلاق : « وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وفي سورة الجن : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » .

« النوع العاشر ، الأساليب التي تقرر أن الله تعالى سميع بصير ، كقوله تعالى في سورة الإسراء : « إنه هو السميع البصير » ، وفي سورة لقمان : « إن الله سميع بصير » ، وقوله تعالى في سورة طه خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام : « قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » ، وفي سورة المجادلة خطاباً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » ، إلى غير ذلك من الآيات التي تقرر أن الله تعالى سميع بصير ، لا يعزب عن سمعه مسموع ، ولا يغيب عن بصره مرئ ، ولا يمنع سمعه بُعد ، ولا يحجب رؤيته ظلام ، بل يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء ، ويرى كل ذرة في الأرض والسماء .

« النوع الحادى عشر ، الأساليب التي تقرر عموم إرادته تعالى ومشيته ، كقوله تعالى في سورة يس : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ، وفي سورة التكويد : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ، وفي سورة آل عمران : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتقرن من تشاء ، وتنزل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » ، وفي سورة هود : « إن ربك فعال لما يريد » .

فالله جل جلاله مرید لكل حادث ، مدبر لكل كائن ، له الإرادة العامة والمشیئة النافذة ، وهو الفعال لما يريد ، فلا يخرج عن إرادته لعتة ناظر ، ولا يتبدل عن مشيئته لمحة خاطر ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، أراد سبحانه

وجود هذه المخلوقات ، وقدر لوجودها الحدود والاقوات ، فوجدت في أوقاتها كما أراد في أزله ، وجاءت في حدودها كما سبق في علمه ، فكل الكائنات حادثة بقدرته ، وواقعة بإرادته ومشيئته ، ومحكومة بتدبيره وهيمته ، يقدر الأمور بعلمه وحكمته ، ويصدرها بإرادته وقدرته ، ويصرفها بتدبيره ومشيئته ، لا معارض لإرادته ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، كما قال جل جلاله في سورة فاطر : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » ، وفي سورة الرعد : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وفيها أيضاً : « والله يحكم لامعقب لحكمه » .

• النوع الثاني عشر ، الأساليب التي تقرر عقيدة القضاء والقدر ، كقوله تعالى في سورة الحديد : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » ، وفي سورة التوبة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وفي سورة آل عمران : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » ، وفيها أيضاً : « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » ، وفي سورة النمل : « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن جميع الكائنات جارية بقضاء الله وقدرته ، وأن كل ما يجري في الكون من حركة وسكون ، ووجود وعدم ، وخير وشر ، فإنما هو جار على قدر سابق قضاء الله وقدره ، وأن ما قدره الله لا بد أن يقع كما قدره ، فالله جل جلاله قدر جميع الكائنات قبل وقوعها ، وحدد الأزمنة والأمكنة التي ستقع فيها ، والأحوال والكيفيات التي ستوجد عليها ، والأسباب الظاهرة والخفية التي يرتبط بها وقوعها ، وقدر ذلك كله على وفق علمه تعالى وإرادته ، فكل الكائنات معلومة لله قبل وقوعها ، ومقدرة منه تعالى على وفق علمه وإرادته ، وقد جاءت السنة النبوية أيضاً بعقيدة القدر ووجوب الإيمان به ، كما جاء فيما رواه مسلم وغيره ، من قوله صلى الله عليه وسلم في بيان حقيقة الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . وفيما رواه الترمذي : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم

أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وفيما رواه الترمذى وغيره . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وطويت الصحف .

فالقدر ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف ، والإيمان به واجب ، كما قال النووي في شرح صحيح مسلم :

هذا والعلباء في تفسير القضاء والقدر أقوال كثيرة ، أظهرها فيما نرى أنهما بمعنى واحد ، وهو تحديد الأشياء بحدودها التي ستوجد عليها ، وهذا هو الذي يرشد إليه الاختصار على لفظ القدر ، في حديثي مسلم والترمذى وغيرهما ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد ومسلم وابن ماجه : « وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

فإن قال قائل : كيف نوفق بين ما تضمنته عقيدة القدر ، من أن أفعال العباد مقدره ومكتوبة عليهم ، وأن ما قدره الله لا بد أن يقع كما قدره ، وبين مسئوليتهم عن هذه الأفعال واستحقاقهم للمجازاة عليها ، مع أنه لا مفر من القضاء المحتوم ، ولا مهرب من القدر المكتوب ، ولا تكليف ولا مسئولية إلا مع الإرادة والاختيار ، قلنا يجاب عن ذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أن القدر الخاص بأفعال العباد وسلوكهم ، ليس مبنيًا ابتداءً على إجبار الله للإنسان على فعل ما كتبه عليه وقدره ، حتى يكون منافياً لمسئوليته عن أعماله ومجازاته عليها ، وإنما هو مبني على سابق علم الله بما سيكون من سلوك الإنسان وعمله بإرادته واختياره ، فالقدر تابع في التعقل لعلم الله بما سيكون عليه الإنسان في سلوكه الاختياري ، فأفعال العباد صادرة عنهم بإرادتهم واختيارهم وإن كانت مكتوبة ومقدرة عليهم ، فلا منافاة بين عقيدة القدر ومسئوليتهم عنها ، ومجازاتهم عليها .

الوجه الثاني : أن كل إنسان يعلم بالبداية أن أفعاله لا تصدر عنه بطريق الجبر والإكراه ، ولا بقصد تنفيذ ما قدره الله عليه لأنه لا يعمل قبل أن يفعله ، وإنما

تصدر عنه بإرادته واختياره ، وبذافع البواعث التي تبعته على فعلها ، والنيات التي لصاحبها وتحدد مقاصدها ، فالذي يفعل الخير يفعله باختياره طاعة لله لا تنفيذاً لما قدره الله عليه ، وكان في استطاعته بحسب ما يعرف من نفسه أن يترك هذا الخير الذي فعله ، ولكنه آثر طاعة الله تعالى على طاعة الهوى والشيطان ، والذي يفعل الشر يفعله باختياره طاعة للهوى والشيطان لا تنفيذاً لما قدره الله عليه ، وكان يستطيع بحسب ما يعرف من نفسه أن يمتنع الشر الذي فعله ، ولكنه آثر طاعة الهوى والشيطان على طاعة الله تعالى ، فهذا الاختيار الذي يعرفه كل إنسان من نفسه في أفعاله ، وهذه البواعث النفسية التي تبعته عليها ، وهذه النيات القلبية التي لصاحبها وتحدد مقاصدها ، هي مناط التكليف والمسئولية والجزاء ، وهي التي تجعل أفعال العباد كسباً اختيارياً لهم ، فلا منافاة إذاً بين عقيدة القدر ومبدأ المسئولية والجزاء .

الوجه الثالث : أن نسالك في ذلك مسلك الأخذ بما نعلم ، ونفوض الأمر إلى الله تعالى فيما لا نعلم ، فنؤمن بعقيدة القضاء والقدر ، ونؤمن كذلك بمبدأ المسئولية والجزاء ، لأننا نعلم ثبوتهما بالكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف ، ونفوض الأمر فيما لا نعلمه من التوفيق بينهما إلى علم الله بذلك ، وإيماننا بحكمته تعالى في أفعاله وعدله في قضائه ، ولا يخفى ما في هذا الوجه من الاحتياط في الاعتقاد والسلامة من الزلل ، ومناسبته للعامة وقربه من أفهامهم .

وما تقدم تنضج لنا الحقائق الآتية :

الحقيقة الأولى : أنه لا يصح لأحد أن يحتج بالقدر على عصيانه وسوء سلوكه ، لأنه يعلم أن القدر محجوب عنه لا علم له به ، ويعلم أن الله تعالى بين له طريق الخير وأمره باتباعه ، وبين له طريق الشر ونهاه عن سلوكه ، ويعرف من نفسه أنه كان يستطيع أن يسلك طريق الخير ويمتنع طريق الشر ، وأن تدوله عن طريق الخير إلى طريق الشر كان بإرادته واختياره ، فاحتجازه مع ذلك بالقضاء والقدر ، إنما هو احتجاج باطل لا يخليه من المسئولية عن أعماله واستحقاقه للجزاء عليها .

الحقيقة الثانية : أنه لا يجوز لنا أن نتعلق بالقدر ابتداء في الشئون التي تدخل تحت علمنا وقدرتنا ، فلا يجوز لنا أن نحيل الأمر على القدر في العودة عن السعي والعمل ، والتواكل في تحصيل مطالبنا وحاجاتنا ، ولا أن نتعلل به في إهماله

وتقصيرنا في تدبير أمورنا وتصريف شئوننا ، وتفریطنا في دفع أسباب الشر عن أنفسنا وأوطاننا ، بل يجب علينا أن نبذل كل ما نستطيع من سعى وعمل ، وجهاد وكفاح ، وما نملك من علم وفكر ، وقدرة وتدبير ، وأن نستمد من الله العون والتأييد في سعيينا وكفاحنا، والهداية والتوفيق لأرشد الأمور في تفكيرنا وتدبيرنا، ونفوض الأمر فيما وراء ذلك إلى سنن الله تعالى في ترتيب المسببات على أسبابها ، وصيرورة الأمور ورجوعها في النهاية إلى قضاء الله تعالى وقدره ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الشورى : « ألا إلى الله تصير الأمور » .

الحقيقة الثالثة : أن الذي يحال على تصاريف القدر ابتداء ، هو ما لا يدخل تحت علينا وقدرتنا من الأسباب والسنن الإلهية المحجوبة عنا، فهذه الأسباب والسنن هي التي نعتصم في تدبيرها بالقدر ابتداء وانتهاء ، وندع أمورها تجري في مجاريها التي رسمها لها القدر ، ونفوض الأمر فيها إلى الله يدبرها بحكمته ويصرفها بمشيئته ، والخلاصة أن ما يدخل في دائرة علينا وقدرتنا وتدبيرنا ، فإن الأمر في تدبيره وتصريفه يرجع إلينا ابتداء ، وإلى تصاريف القدر انتهاء ، وأن ما لا يدخل في دائرة علينا وقدرتنا وتدبيرنا ، فإن الأمر فيه يرجع إلى تصاريف القدر ابتداء وانتهاء .

• النوع الثالث عشر ، الأساليب التي تعرف الناس بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وتوجه عقولهم وأفهامهم إلى مدلولاتها التي تصعد بالأرواح إلى مشاهدة جمال الله وكمال ذاته وصفاته ، ومطالعة هيمنته تعالى وعظمته وجلاله ، وتملأ القلوب بالرجاء في فضله ورحمته ، والخوف من عقابه وبطشه ، وتصل بروعة معانيها إلى أعماق النفوس ، وتثير فيها كوامن الشوق والحنين إلى التعرف إلى الله في الرخاء والشدة ، وتبعثها على الإقبال على طاعة الله والفرار من عصيانه ، كقوله تعالى في سورة الحشر : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، إلى غير ذلك مما جاء في كثير من فواتح السور وفواصل الآيات .

فذكر أسماء الله الحسنى بالسنة صادقة وقلوب مخلصه ، يذهب الغفلة عن القلوب  
ويملأها بالسكينة والطمأنينة ، كما قال تعالى في سورة الرعد : « ألا بذكر الله تطمئن  
القلوب » . وهو يشفي أمراض النفوس ، كما قيل :

إذا مرضنا تدأويننا بذكركو ونلبي الذكر أحياناً فنفتكس

ويقوى صلواتها بالله عز وجل ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة البقرة :  
« فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » ، وقوله صلى الله عليه وسلم فيها  
رواه البخاري ومسلم : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه  
حيث ذكرني » .

ودعاء الله بها في مواقف الجهاد والكفاح ، ومواقع الشدائد والمحن ، ومواطن  
الندم والتوبة ، ومشاهد العظة والعبرة ، يقوى المزائم ، ويثبت القلوب ، ويستنزل  
السكينة على النفوس ، ويقبها شرور الفلق والاضطراب ، ويدفع عنها اليأس  
والقنوط ، ويهون عليها وقع الشدائد والمحن ، ويفتح لها أبواب الرجاء في تحقيق  
الآمال وتفريج الكرب ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : « والله  
الاسماء الحسنى فادعوه بها » .

فالذي يسمى ويعمل ، ويكذب ويكافح ، إذا ذكر الله تعالى في سعيه وكفاحه ،  
واستحضر في نفسه أنه القادر المقتدر ، الذي لا يمجزه شيء في الأرض ولا في  
السماء ، فإن ذلك يبعث في نفسه القوة والعزم ، والصبر والجلد ، ويملأ قلبه بالرجاء  
في مدد الله وعونه وتوفيقه ، وتيسير أسباب النجاح في سعيه وعمله ، ووسائل  
التأييد والنصر في جهاده وكفاحه .

والذي زلت به شدة ومحنة ، إذا ذكر الله في شدته ومحنته ، واستحضر في  
نفسه أنه الكريم المنان ، القادر على تفريج الشدائد والكرب ، وتذكر ألطافه الخفية  
في قضائه وقدره ، فإن ذلك ينقي عنه الضيق والاضطراب مما قضاه الله وقدره ،  
ويعصمه من الملح والجزع ، ويحمّله على جميل الصبر والرضا ، ويهون عليه وقع  
الشدّة وأثر المحنة ، ويدفع عنه اليأس والقنوط ، ويملأ نفسه بالرجاء في كشف  
الغمة وتفريج الكربة .



والذى غلبه الهوى وزلت به القدم ، إذا تذكر أن الله عفو غفور ، تواب رحيم ، يقبل توبة التائبين ، ويغفر ذنوب المستغفرين ، فإن ذلك يفتح له باب التوبة والرجوع إلى ربه ، ويملا قلبه بالأمل في فضل الله وكرمه ، والرجاء في عفوهِ ورحمته ، وقبول توبته وغفران ذنبه .

والذى حدثته نفسه بالإقدام على فعل المعصية ، فتذكر أن الله رقيب عليه في سره وجهره ، وأنه المهيمن العزيز الجبار ، قوى البطش شديد العقاب ، فإن ذلك يحمله على كف نفسه عن فعل المعصية التى حدثته نفسه بالإقدام عليها ، وهكذا الشأن فى ذكر ما يناسب من أسماء الله الحسنى لكل موقف من مواقف الحياة وشئوننا .

أما غفلة الإنسان عن ذكر الله فى سلوكه وشئون حياته ، فإنها تميم قلبه ، وتُدَمِّى نفسه ، وتوجب قطيعته عن الله عز وجل ، وحرمانه من مدده الغيبي ، والطفاه الخفية ، وتنمى فى نفسه نوازع الضلال والانحراف ، وإذا نزلت به شدة وعحنة ، استحوذت عليه هواجس الشر وخواطر السوء ، واستبدت به الضيق والاضطراب ، وأوصد اليأس فى وجهه أبواب الأمل والرجاء ، وسد عليه منافذ التفكير السليم والتدبير السديد ، وكان أمره إفراطاً فى الغى والضلال ، وسوء التفكير وفساد التدبير ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : « ولا تقطع عن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

وبعد ، فهذه صورة إجمالية لمنهج القرآن فى تقرير عقائد الألوهية والربوبية ، وهو المنهج الذى يجعل مجال الفكر والنظر فى دلائل التوحيد والتنزيه مهلاً ميسراً ، وطريق الوصول إلى معرفة الله قريباً معبداً ، ويصل بالناظر فيه إلى مرتبة اليقين القلبى والذوق الوجدانى ، بخلاف منهج الفلسفة الجدلية المعقدة ، فإنها لا تصل بالناظر فيها إلى مرتبة الطمأنينة واليقين ، إذ قلما يعرف قضاياها ذوقاً واقتناعاً ، وإن عرفها صناعة وجدلاً ، بل كثيراً ما تحجب عنه نور الحقائق الفطرية ، وتكدر عليه صفو المعارف الوجدانية ، وتملا نفسه بتأويلات وتشكيكات لا تقنى من الحق شيئاً ، فقد رأينا كيف قرر القرآن هذه العقائد تقريراً محكماً ، وخلصها من شوائب الوثنية والشرك ، ونقى عنها تحريف المضللين وتأويل الجاهلين ، وكيف جلاها

للعقول والأفهام في روعة الحق وجلال الصدق ، وجاء بها في أساليب قوية رائعة ، تعطف بها القلوب النافرة ، وتلين لها العريكة المتعصية ، وتنقاد إليها النفوس الشاردة ، وتكشف عن القلوب غمة الشك وظلة الجهل ، وتصعد بها في مراتب الإيمان إلى مرتبة الإذعان النفسى واليقين القلبى ، وتصل بالعقول في درجات المعرفة إلى درجة الرسوخ العلى والذوق الوجدانى ، وتكشف للتائبين عن المجاهل التى فيها يتيمون ، وتبين لهم السَّنن<sup>(١)</sup> اللاحب الذى به يهتدون ، وتغمر بفيض قراها<sup>(٢)</sup> كل سار يعشو<sup>(٣)</sup> إلى ضوء نورها ، وتملأ قلبه بالتوحيد النقى الخالص ، الذى يطهر قلبه ويركز نفسه ، ويرفع شأنه ويعلى مكانته ، ويحرر عقله وفكره من رِق الأوهام والخرافات ، ويجعله إنساناً كاملاً فى إنسانيته ، وعزيراً كريماً فى نفسه ، وعبداً خالص العبودية لربه ، لا يتجه بدعائه وعبادته إلا لخالق الأرض والسموات ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لله الواحد القهار .

فن عرف للحق قدره وقداسته ، وحكم عقله وفكره وخيمه فى هذه الدلائل الصاعدة بالحق ، والآيات البينات الناطقة بالصدق ، ووجد فيها إقناعاً لعقله وطمأنينة لقلبه ، وفى قراها غذاء لروحه وسكناً لنفسه ، فقد هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ومن ركب رأسه واستبد به الهوى والغرور ، واستحوذت عليه العصبية الطاغية والتقليد الأعمى ، واتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وضاعت عليه رحاب هذه الدلائل والآيات ، فلم يجد فيها إقناعاً لعقله وسعة لفكره وانشراحاً لصدره ، فلا وسعته أرض بأوديتها وآفاقها ، ولا رحبته سماء بأجرامها وأنلاكها ، فأنه جل جلاله يقول فى سورة الأنعام : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، وهذا صراط ربك مستقيماً ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ، وفى سورة الجاثية : « أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، »

(١) الطريق البين الواضح المالم . (٢) القرى : ما يقدم للضيف .

(٣) عشا النار وإليها : رآها ليلاً فقصدها .

## ندوة في الأزهر عن التقريب بين المذاهب الإسلامية

دعفت مجلة « المصور » المصرية ، إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية دعوة حارة في ثلاثة أعداد منها بدأت بالعدد ٢١٠٠ ، إذ كتب الكاتب المعروف الأستاذ أحمد بهاء الدين أحد رئيسي تحريرها مقالا ضافيا عرض فيه لآثار تعدد المذاهب الإسلامية في مختلف بلاد المسلمين ، وما يقع بين الطوائف من خلافات ومشكلات تؤدي إلى التقاطع والتخاصم ، وإلى الاشتغال بما لا جدوى فيه من المجادلات . وبالرغم من أن مقاله قد اشتمل على بعض ما لا نقره عليه ، فإنه كان مقالا يتجه اتجاها طيبا نحو جمع كلبة المسلمين ، والعمل على تصفية الخلافات بينهم أو وقفها مع التفرغ لما تصلح عليه الأمة الإسلامية من وحدة واتلاف ، وقد جاء في هذا المقال ما يأتي :

إن الذين « تشيعوا » على بن أبي طالب ، كانوا يشايعونونه لأنهم يعتقدون أنه أصلح المسلمين للخلافة أولا ، ولأنه ابن عم النبي ثانيا ، وكانوا يعتبرونه معاوية معتديا على حق علي في الخلافة ، ثم جاءت خدعة التحكيم ، وقبول علي لنتيجته ، ثم استشهاد علي يد قاتله بالمسجد ، فأضافت كل هذه الظروف سببا عاطفيا ونفسيا قويا : فهذا بطل الإسلام وابن عم النبي والخليفة العادل يعزل ويقتل على مرأى ومسمع من المسلمين ، يضاف إلى ذلك أنه باستيلاء الأمويين على السلطة ظهرت الأسر الملكية لأول مرة في الإسلام بترفها ودهائها وتوارثها العرش ، ومن هذا كله تولدت تلك الطاقة الشيعية الهائلة ، وبقيت الطائفة بتقاليدها العظيمة في العراق حتى الآن .

والشيعية فضل على تاريخ الإسلام ، إنهم دعوا دعوة تقدمية تقول إن باب الاجتهاد ما زال مفتوحا ، ما دام هذا الاجتهاد متفقا مع القرآن والسنة ، وما يقضى به العقل السليم .

والشيعة تختلف عن السنة في أنها تؤمن بالإمامة . وتعتقد في اثني عشر إماما متسلسلين من نسل علي بن أبي طالب ، كما أنهم يختلفون مع السنة في الاعتراف بهذا المصدر أو ذاك من رواة الأحاديث النبوية المعتمدة .

وبعد ذلك توجد خلاقات طفيفة فيما أعتقد : كاعتراف الشيعة بزواج المتعة ، أى الزواج المؤقت ، وعدم اعتراف السنة به ، وكاشتراط الشيعة ألا يتم الطلاق إلا بحضور اثنين من الشهود لعلهما يفلحان في إقناع الزوجين بالعدول عن الطلاق ، وكاعتقادهم أن « الطلاق بالثلاثة ، لا يساوى إلا طلاق واحدة ، وكلها اتجاهات - دون الحكم لها أو عليها - لها دوافع اجتماعية ، معقولة تقبل المناقشة .

والزيدية : وهى أحد المذاهب الكبيرة فى الدين حاليا ، نشأت منبثقة عن الشيعة ، فهى تنسب إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان زيد هو أول أحفاد علي فى حمل السلاح ضد بني أمية ، وقد ظل يحارب حتى مات مستشهدا .

ورغم أن الزيدية تعد من فرق الشيعة ، إلا أنها فى الواقع مذهب وسط بين السنة والشيعة ، فالزيديون يؤمنون بالإمامة ، ولكنهم يعترفون بأنه من الصعب أن يقال إن الإمام يجب أن يكون أفضل الناس جميعا ، فلا بأس عندهم من أن يعين إمام آخر ، يسمونه الإمام المفضل ، إذا كان فى اختياره مصلحة سياسية عامة للمسلمين ، كذلك فهم يميزون الثورة على « إمام الجور ، أى الحاكم الظالم ، وخلعه من منصبه .

والمذهب السننى مذهب حديث نسبيا ، وهو مذهب اتجه إلى المرونة والتسامح واليسر ، كرد فعل آخر لتشدد المعتزلة الذى ذهب بهم إلى حدد التعصب والمغالاة ، وهم فى مسألة الحكم يعتقدون أن الحاكم لا يجب أن يكون من سلالة معينة ولا من جنس معين ، والمذهب السننى يشمل المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة . . . وهى المذاهب المنتشرة فى العراق أيضا وفى سوريا والأردن ومصر والسودان .

وفي تاريخ متأخر ، تفرع المذهب الوهابي السائد حالياً في المملكة السعودية ، عن المذهب السني . . وتميز المذهب الجديد بمحاربته للبدع مثل زيارة الأضرحة ، وزيارة المقابر ، وإقامة الأذكار .

وقد عرفت معظم المذاهب الإسلامية الموجودة حالياً ، صوراً من التطرف والانحراف على يد بعض المنادين بها ، ولكن معظم هذه الصور المتطرفة والمنحرفة اندثرت وانقرضت باندثار عللها وأسبابها ، وأخذت كلها تميل إلى الاعتدال والتسامح والعقل ، أي أخذت تميل إلى جوهر الإسلام الحقيقي ، ولكن خلافاتها القديمة التي طالما خضبتها بالدماء في بعض العصور بقيت موجودة وإن كانت ساكنة جامدة ، موجودة تظهر أحياناً كعنصر محرك وراء كثير من عوامل التفرقة بين أبناء الدين الواحد ، والشعب الواحد ، والقطر الواحد . .

وكالعادة في كل زمان ومكان ، نجد أن كثيراً من المصالح « الدنيوية » ، طبقية أو اقطاعية أو عشائرية ، تتحصن وراء هذه الخلافات وتعمل على تعميقها ، لكي تبقى هذه المصالح لأصحابها ، حتى أصبح هناك فريقان : جمهور هو الأغلبية ، وهو أبناء هذه الطوائف الطيبون ، وقلة يحترفون الاتجار بالطائفية ، ويحترفون استغلال المشاعر الطائفية ، تحقيقاً لمصالحهم الخاصة . . .

وبعد . . . فإني لا أعرف بالضبط إلى من أتوجه بالخطاب في هذا المقال .

هل أتوجه به إلى نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف المهندس أحمد الشرباصي ، أو إلى الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر ، أو إلى الأستاذ أحمد حسن الباقوري . مدير جامعة الأزهر . . أو إليهم جميعاً وإلى كل القادة الدينيين المستنيرين ، في كل البلاد العربية ، من شتى المذاهب الإسلامية ؟ .

لا بد من مجهود شجاع يبذل للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، تمهيداً لتوحيدها على المدى الطويل .

فالخلافات الأساسية بينها يمكن بالتأكيد حلها بالتفسير المستنير السليم للدين . . أما الخلافات الفرعية ، فلم يعد مقبولا أن يختلف المسلمون حول أحكام مثل :

« هل يسير المشيعون في الجنازة خلف جثمان الميت أم أمامه ، وهل يتم الوضوء بترتيب معين أم بغير ترتيب .... وهل .... وهل ... »

ومثل هذا الجهد يحتاج أولاً أن تأتي أكثر من مبادرة من أكثر من جهة .  
ويحتاج ثانياً إلى أن يتم بحثه في جو هادئ بعيد عن ضجة الدعاية واستغلال السياسة .  
ويحتاج ثالثاً إلى زمن وصبر طويلين .

\* \* \*

٢ — وقد بعث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني رئيس تحرير مجلة رسالة الإسلام إلى الأستاذ بهاء الدين إثر قراءته لهذا المقال بالكتاب الآتي نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين رئيس التحرير - مجلة المصور

سلام الله عليكم ورحمته ، أما بعد : فقد قرأت باهتمام مقالكم المنشور بالعدد ٢١٠٠ الصادر من مجلة المصور في ٦ من رمضان سنة ١٣٨٤ هـ ( ٨ من يناير سنة ١٩٦٥ م ) بعنوان « السنة والشيعة والزيدية » .

ولا شك أن الموضوع الذي طرقتوه موضوع خطير في حياة الأمة الإسلامية عامة ، والشعوب العربية خاصة ، فإنه لم يعد هناك مجال لبقاء التناحر القائم على العصبية المذهبية المنتسبة إلى الدين في ظاهرها ، والتي يبرأ الدين منها ، وينهى الله ورسوله عنها ، والتي هي في الحقيقة ميراث ثقيل ورثته الأمة الإسلامية عن عبود اشتجرت فيها بعض الخلافات النظرية ، والمعارف الكلامية ، في قضايا ليست من أصول الدين ، ولا مما هو ركن في إيمان المؤمنين .

وربما كان للعوامل التي ذكرتموها في مقالكم أثر في خلق هذه الخلافات أو في تركيبتها ، ثم تطاول العهد عليها فأصبحت في أذهان العامة وبعض الخاصة أموراً جدية بالاهتمام ، ومجالات يختصم فيها أهل الإسلام ، ولكن الكارثة الكبرى هي أن المستعمرين المقتصبين لثغرات البلاد الإسلامية اتخذوا من هذه الخلافات الموروثة أسباباً سهلة ميسرة لما قاموا به من التفريق والتقطيع وضرب الأمة بعضها

بعض ، وكان من سياستهم ودهائهم أن يورثوا نيران العداوة بين أرباب المذاهب المختلفة في كل شعب إسلامي وعربي ، وأن يعملوا بكل حيلة على أن تبقى هذه النيران مضطربة متوهجة حينما كانت مذاهب إسلامية ، حتى تظل لهم السيطرة والقيادة ، ويضمنوا اتجاه جميع رجال المذاهب إليهم ، شاكين أو مستنصرين .

وكان من آثار ذلك أن تفلت الأمة الإسلامية عن الركب العالمي الحضارى ، وقد كانت من قبل في مقدمته ، وأن تمكن أعداؤها والظالمون في خيانتها من مراقبتها وأحكامها وسلطانها ، وجعلوا يوجهونها في غفلة أهلها كما يشاءون ، شعبا ، وطائفة طائفة ، مستعنيين بهؤلاء على هؤلاء ضارين بعضهم ببعض ، مما حقق عليهم سنة الله في المنفرقين المتنازعين ، وهى المصير إلى الضعف والذل والاستعمار والاستعباد .

والذى أريد أن أقوله لسيادتكم هو أن هناك جماعة من أهل العلم والفكر ، ومن مختلف أبناء المذاهب الإسلامية قاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به من تبصير الأمة الإسلامية والعربية في مختلف الشعوب والطوائف ، بعواقب هذا التفرق الخطير ، ووجوب التخلص من مآسيه الصادرة عن العصبيات الجاحمة ، والعداوات الطائشة التى لا مبرر لها .

ألفت هذه الجماعة منذ قرابة عشرين عاما فى القاهرة باسم « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » .

وجمعت صفوة من قادة العلم والدين ، كان فى مقدمتهم المغفور لهم : الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، والأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، والأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، والأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، وكلهم قد تولى منصب مشيخة الأزهر ، وكان معروفا بالعلم والتقوى والقيادة الفكرية ، وهم فى مقدمة من يمثلون مذاهب السنة الأربعة المعروفة .

كما كان فى مقدمتهم المغفور لهم : الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الشيعى العراقى ، والشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوى الشيعى اللبنانى ، وكلاهما عالم غزير العلم ، لإمام مقدم فى وطنه ، له جهاده وتوجيهه وأعماله العظيمة .

كما كان منهم السيد محمد حسين آقا بروجردي زعيم الشيعة الإمامية بآيران ، وكان مركزه الديني في مدينة « قم » الشهيرة بعلانياتها وتلاميذها ، كشجرة النخف في العراق ، والأزهر في مصر .

وكان أول من دُعا إلى هذه الفكرة ، وإلى تأليف هذه الجماعة عالم من علماء الشيعة الإمامية بآيران - ما زال قائماً إلى الآن في مصر يحمل لواءها - هو سماحة الأستاذ محمد تقى القمى ، أطال الله حياته .

وقد اعتنق هذه الفكرة مئات الألوف في مختلف البلاد الإسلامية ، فانتسبوا إلى جماعتها ، واتصلوا بدارها في القاهرة ، ومجلتها « رسالة الإسلام » ، التي تصدر بانتظام منذ خمسة عشر عاماً ، وتعالج دعوة التقريب على مستوى عال ، وفي إنصاف وهدوء وبعد عن التحمس أو التعصب .

ولقد أسست هذه الجماعة مقراً لها بمدينة القاهرة يعرف بدار التقريب بين المذاهب الإسلامية ( وهو الفيلا رقم ١٩ شارع أحمد حشمت بالزمالك ) وهذه الدار هي المركز الرئيسي للجماعة ، وبها مكتبتها التي تحوى كتب المذاهب الإسلامية ، ويرجع إليها المشتغلون بالفقه الإسلامى الذى يمثلها ، قارئين أو مستعيرين ، وهي تمتد الهيئات العلمية بكثير من كتبها .

وهي قائمة بطبع الكتب العلمية في مختلف المذاهب الإسلامية بنفسها وبمعمونة وزارة الأوقاف ، وقد كان لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر ، فضل كبير في إخراج كتاب من كتبها هو كتاب « المختصر النافع في فقه الشيعة الإمامية » ، يوم كان وزيراً للأوقاف المصرية ، وقد أدى هذا الكتاب خدمة كبرى لأهل العلم في مصر ومختلف بلاد العالم الإسلامى ، وأصبح مرجعاً للباحثين وأساتذة الجامعات وطلابها ، كما قامت بطبع موسوعة كبرى من موسوعات تفسير القرآن الكريم ، وهي الكتاب المعروف بمجمع البيان لعلوم القرآن الذى ألّفه إمام من أئمة الشيعة الجعفرية الإمامية ، هو الإمام الطبرسى ، ونهج فيه نهجاً تحقيقياً عابداً ، والذى أشار بطبعه هو فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ



عبد المجيد سليم شيخ الأزهر يوم ذاك ، والذي كتب مقدمته العلمية القوية ، هو المحفور له شيخ الجامع الأزهر السابق الشيخ محمود شلتوت .

إلى غير ذلك من الكتب والرسائل والبحوث .

وتجمع « دار التقريب » بين سجلاتها ومخطوطاتها كثيرا من الرسائل العلمية التي دارت بين أقطابها من أئمة الشيعة والسنة مما أدى فعلا إلى أن خفت حدة الخلاف بين المسلمين ، وأصبح الشيعة في العراق ، وإيران ، وسوريا ، ولبنان ، وغيرها يشعرون بأنهم إخوة في الإسلام والعلم لزملائهم من السنة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى علماء الزيدية الذين لم من يمثلهم في جماعة التقريب ، وجماعة التقريب في بلادهم وبين علمائهم مقام محمود .

وكان من أثر هذا التقارب أن الأزهر قرر دراسة المذهب الشيعي الإمامي والزيدى في أكبر كلية من كلياته وهي كلية الشريعة ، وأن قانون إصلاح الأزهر الجديد أقره على ذلك ، وما زالت كلية الشريعة تطبق مناهجه ، كما أن جامعة إيران أدخلت دراسة فقه السنة في كلية المعقول والمنقول بها ، وذلك استجابة لسمى جماعة التقريب .

وهاهى ذى مجلة «رسالة الإسلام» التي تصدرها جماعة التقريب منذ خمسة عشر عاما ، تقوم بالسفارة بين أرباب المذاهب الإسلامية في مختلف الشعوب ، ولها مراكزها التوجيهية الإسلامية في نفوس قارئها ، وهى ترسل أيضا إلى مختلف المراكز العلمية في أوروبا وأمريكا ، وتبادل العلوم والمعارف مع المؤسسات العلمية المختلفة ، ويسرنا أن نبعث إلى سيادتكم بعض أعدادها ، لتروا بأنفسكم جهودها ، وتدركوا أهمية رسالتها .

\* \* \*

ويتلخص منهج هذه الجماعة فيما يأتى :

١ - أن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية لاتريد المساس بالفقه الإسلامى ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض ، بل هى على التقيض من ذلك ، ترى في هذه

الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين ، لأنه دليل على خصوبة في التفكير ، وسعة في الأفق ، واستيفاء وحسن تقدير للمصالح التي أنزل الله شريعته لكفالتها وصونها ، وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي ؛ إنما هو في دائرة خدمته وتنميته وتبسيط نوره الوهاج على شئون الحياة الإسلامية المتطورة ، وبحث المشكلات التي جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها .

٢ - ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها .

٣ - وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يعملون لبعض المعارف والآراء التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنازع بالألقاب ، ونسيان ما جمع الله عليه القلوب وألف به بين المسلمين ، وترى أن أعداء الإسلام والطامعين في استعمار بلاده وإذلال أهله ، يتخذون من هذه الخلافات أبواباً يلجئون منها إلى مقاصدهم الباغية ، ويعملون كل ما في استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ، ثم يضربوهم جميعاً .

٤ - وتؤمن بإيماناً عميقاً بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذي علم ورأي في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية العمل على تبصير المسلمين بدينهم ، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ، ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها ، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها ، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها .

• - فالغرض من « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » هو أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العالم شرقيه وغريبه ، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم في رفق وحسن تقبل ، فينتج لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحينئذ تتجلى أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها ، ويعملون في المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأي

الصحيح الذي يهdy إليه المنطق والدليل ، فإذا بقي بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب ، أو تقطع به البراهين ، كان أمره بعد ذلك هيناً لا ينبغي أن يفضى إلى التقاطع والتناكر والتقاذف ، وإنما هو الخلاف في الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضاً ، ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين .

\* \* \*

وفي ختام كتابي هذا ، الذي أكتبه إليكم في صباح يوم الجمعة من بتي ، لامن مدار التقريب ، رغبة في المسارعة إلى التجاوب معكم ، يسرني أن أدعوكم لزيارة دار التقريب شخصياً أو باسم مجلة المصور الغراء ، لكي تروا بأنفسكم أوجه النشاط في هذا المركز الإسلامي الهام ، ولكي تعلموا أن الله قد وفق لإخواناً لكم للعمل على تحقيق الأمل الذي تدعون إليه ، ذهب إلى الله بعضهم ، وبقي البعض مجاهدين محتسبين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً »

محمد محمد المدني

والسلام عليكم ورحمة الله

\* \* \*

٣ - وفي العدد التالي (٢١٠١) تابعت مجلة « المصور » دعوتها ، فنشرت تحقيقاً تحت عنوان ( ندوة في الأزهر حول التقريب بين المذاهب الإسلامية ) جاء فيه :  
في الدوائر الدينية والثقافية تناولت الأحاديث والتعليقات ما كتبه أحد بهاء الدين في العدد الماضي من « المصور » حول توحيد المذاهب الإسلامية المختلفة ... كانت الدوائر الأزهرية هي أكثر الدوائر جدلاً ونقاشاً وتعليقاً ، ولكن الاتفاق كان بالإجماع حول الدور الذي يلعبه الاستعمار في إضرام الخلافات المذهبية لكي يعمد أسباباً بعيدة الجذور للتفريق حتى يتسنى له أن يضرب الأمة بعضها ببعض ، ويؤلب فريقاً من قادة هذه المذاهب ضد الفريق الآخر ، وهؤلاء القادة يسرون خلفه سواء عن جهل أو عن علم ، والمستعمر وراء كل هذا ينتظر في زهو محي كل رجال المذاهب راكعين يشكرون إليه جور بعضهم على بعض ، فينصر مرة لهذا ، وأخرى لذلك .

والأصول في الإسلام ، لا تكاد تختلف عليها المذاهب الإسلامية ، وهي : السنة ، والشيعة الإمامية ، والشيعة الزيدية ، والاثني عشرية ، فكلهم يؤمنون بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن كتاباً ، وبالكعبة قبله ، وتبقى بعد ذلك بقية الفرق الأخرى ، والمذاهب التي ذكرناها قد قامت بينها عدة محاولات للتقريب على فترات متباعدة ، كان آخرها ما قامت به جماعة من علماء الدين أطلقت على نفسها اسم « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ، واتخذت لها مقرّاً في القاهرة منذ عشرين عاماً ، والجماعة تؤمن بالتقريب بين المذاهب ، ولكنها تعتبر التوحيد شيئاً محال التحقيق ، وكان وما يزال هدفها الأول هو العمل على جمع كلمة أصحاب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها ، والسعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما وقد كان من بين المسهمين في هذه الجماعة أكثر من شيخ من شيوخ الأزهر السابقين ، وعلى رأسهم المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم .

\* \* \*

ومن أجل هذا الهدف النبيل جلس السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف المهندس أحمد عبده الشرباصي ، ومدير جامعة الأزهر الشيخ أحمد حسن الباقوري ، يناقشان ما جاء في مقال « المصور » ، وكان في نفس الجلسة :

السيد محمد توفيق عويضة سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الشيخ عبد الله المشد مدير إدارة الوعظ والإرشاد بالأزهر .

الشيخ يوسف حسن عمر الأستاذ بكلية الدراسات العربية بالأزهر .

الشيخ أحمد كامل الحضري المراقب العام للتعليم الإعدادي بالأزهر .

السيد / عبد المنعم رمضان الأمين العام بجامعة الأزهر .

السيد / أحمد الشراوى مدير إدارة إحياء التراث والنشر ومدرس بجامعة الأزهر .

المستشرق الانجليزي المحلم عبد الرشيد الأنصارى .

السيد محي الدين الألوانى « هندى » ومدرس اللغة الانجليزية في الأزهر

واعتذر الشيخ الباقورى عن القراءة لأن نظارة القراءة ليست معه ، وعهد بالقراءة إلى السيد أحمد الشرفاوى الذى بدأ يقرأ المقال ، وبدأت التعليقات :

المقال : « وكثير جداً من مشاكل هذه الأقطار الشقيقة ، ومن مشاكلها السياسية والاجتماعية بالذات ، يرجع في جذوره إلى خلافاً دينية لم يعد لها مبرر ، لا من دين ولا من مصلحة ، خلافاً بات مؤكداً أنها تمرقل مسيرة هذه الأقطار في اتجاه التمدن والرقى ونفض غبار التخلف » .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : المؤلم أن الطبقة المثقفة في هذه الطوائف هي التي تؤكد هذا التباعد وتبالغ فيه لكي تكسب من ورائه مكاسب غالباً ما تكون مادية أو أدبية ، وأى خطوة للتقارب سيضطّر من يدّونها إلى التحدث مع المثقفين منهم ، وهنا الكارثة .

الشيخ الباقورى : الواقع أن الإسلام لا يطلب التوحيد بين المذاهب ، ولكنه يمتنع أن يكون بين المذاهب خلاف يصل إلى حد العداوة ، وما دامت المذاهب قد وجدت نتيجة أمرين وهما نصوص محتملة وعقول مختلفة ، إذن فالتوحيد غير محتمل الوقوع بالمرّة ، ولا شك أن بعض أصحاب المذاهب المختلفة قد خدموا الإسلام خدمات جليلة ، كولاى محمد على مؤسس أحمدية لاهور .

الشيخ عبد الله المشد : الذى أبحث عنه وأريد أن أجده له سبباً مقعولاً هو كثرة الكتابة في هذه الأيام عن الإسلام في صحف الغرب بالذات ؟ .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : شيء طبيعي جداً أن تهتم الصحف الغربية بالإسلام بعد أن انحسر الاستعمار عن جزء كبير من أفريقيا ، وقد قرأت في مجلة أفريقية لكاتب أجنبي يقول : إن عدد المسلمين في أفريقيا عام ١٩٣١ لا يزيد على أربعين مليوناً ، وقد أصبح عام ١٩٦٤ - ١٤٤ مليوناً ، برغم أن الاستعمار كان في هذه السنوات يحثم بكل قواه على أفريقيا ، فماذا سيحدث الآن بعد أن انحسر الاستعمار عن أجزاء كثيرة من أفريقيا ؟ .

المقال : ألسنا نجد بابا الكنيسة الكاثوليكية يبدأ جهداً مستثيراً في التقريب بين الكنائس ؟ ألسنا نرى الكنيسة الأرثوذكسية توشك أن تعقد مؤتمراً لنفس الهدف التقدمي ، هدف التوحيد بينهما .

أحمد الشراقوى : شاهدت في الهند مؤتمراً ضخماً عام ١٩٦٢ ، كانت مهمته التقريب بين أتباع جميع الكنائس ، وقد امتلأت نيودلهى يومها بالقساوسة والرهبان من جميع أنحاء العالم لفترة طويلة ، وقد ضاقت بهم فنادق العاصمة ، وحذا لو عقدنا في القاهرة مثل هذا المؤتمر مرة أو مرات حتى يكون التقريب على أسس واعية منهجية .

الشيخ الباقورى : الحقيقة أن فكرة التقريب بدأت في مصر ، وعند ما بدأت الصحف الغربية تكتب عن « جماعة التقريب » بين المذاهب الإسلامية . . تحركت الكنائس لتتقارب في أوروبا ، وذهب رئيس أساقفة « كاتبرى » ، فزار الفاتيكان .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : أنا أذكر بعض الهنود المسلمين من أبناء مذهب الاثنى عشرية التقوا بي في أوغندا عام ١٩٥٤ ، وقالوا لي إنهم جاءوا إلى مصر أيام فاروق وطلبوا علماء من الأزهر لكي يعلّمهم الإسلام في أفريقيا ، ولكن المسؤولين في ذلك العهد رفضوا ، وقالوا لي بالحرف الواحد : « إننا سنحاكم مصر أمام الله يوم القيامة لأنها الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تعلمنا ١١ وجاء معي نفر منهم إلى مصر ، وبحضرت مع المسؤولين في الأزهر يومها عن عالمين يجيدان الإنجليزية ، وذهبا مع إخواننا الهنود الذين جاءوا من قلب أفريقيا ، ولكن السلطات الاستعمارية وقتها منعتهم من الدخول فعادا .

الشيخ عبد الله المشد : الكثير من أبناء المذاهب المختلفة توقفت معلوماتهم عن الإسلام عند حد معين ، وذلك يرجع إلى كثير من الأسباب ، في مقدمتها جهلهم باللغة العربية ، وعدم وجود الوعاظ المرشدين لهم ، واقتصار معلوماتهم على الحد الذى لقنوه من أهلهم فقط .

المقال : « وإذا كان مذهب الخوارج - بمدارسه المختلفة - قد نشأ في تربة الخلاف بين علي ومعاوية ، فقد نشأ مذهب الشيعة - بمدارسه المختلفة - أيضا . . . من مقتل علي بن أبي طالب .

ومرة أخرى ، وبغير دخول في التفاصيل نجد أن الذين « تشيعوا » ، لعل ابن أبي طالب ، وكانوا أغلبية المسلمين ، والذين منهم تكون « الشيعة » ، قد اتخذوا هذا الموقف لأسباب سياسية في الدرجة الأولى .

الشيخ الباقوري : إن كثيرا من الخلافات المذهبية في الإسلام كانت في أساسها خلافات سياسية ، ثم نسبت الأسباب وقيمت النتائج تتضاعف وتتجدد ، وتتلصص الأسباب لبقائها ، ومن هنا كان لابد من تعميق هذه الخلافات بجعلها عقائدية ، لأن الأسباب السياسية يمكن أن تصبح غير نافذة المفعول في إذكاء الخلاف بعد زوال أوائها ، فثلا الاختلاف الذي كان في الماضي حول شخصيات سياسية معينة في تاريخنا ، يصبح شيئا مضحكا ، لو وجدت من يتضاربون من أجله الآن .

الشيخ يوسف عمر : لكن أئمة هذه المذاهب في عاولاتهم هذه أساءوا إلى المذاهب الأخرى لكي يميزوا أنفسهم وبالغوا في هذه الإساءة .

الشيخ عبد الله المشد : لقد بالغوا إلى حد الانحراف .

الشيخ الباقوري : لقد كانت مبالغتهم في التقليل من شأن المذاهب الأخرى بمثابة عملية دفاع عن النفس ، كما أن التيارات السياسية والاستعمارية على مدى العصور كانت تلعب الدور الأول والآخر في احتضان هؤلاء الأئمة .

المقال : « كلها أسباب ولدت لتواجه ظروفًا بينها ، وهي ظروف تعددت وتشعبت واختلفت بحكم انتشار الإسلام في أقطار متباعدة ، وبيئات شتى ، وبحكم تغير الحياة وتجدها ، وما تطرحه هذه الحياة من أسئلة جديدة كانت لإجابات المسلمين عنها تختلف من موقف إلى موقف ، ومن قطر إلى قطر » .

الشيخ الباقوري : ولادة المذاهب التي تواجه الظروف يبدو أنها مستمرة ، كما يقول الأخ بهاء ، وستظل مستمرة ، وقد شاهدت في بعض البلاد الإسلامية التي زرتها ، والتي تحررت عقب الحرب الثانية ، شاهدت بين شبابها من يقول :

« إنني شيوعي لأنني مسلم » ، وذلك لأن المسيحية في نظرهم اقرنت بالاستعمار الذي كانوا يناهضونه ، ومثل هذا الفهم الخطير لا يعلم أحد إلى ماذا سيتحول بعد مائة سنة مثلا ، ما لم تحدث حملة تقارب وتفاهم وتبصير وتوعية .

الشيخ عبد الله المشد : ولكن على أكتاف من ستقوم هذه الدعوة ؟ إن التقارب الذي كان والذي قام في الماضي حامت حوله بعض الأقاويل .

الشيخ الباقوري : إن كل فكرة إنسانية تجد الشخصيات التي تشجعها ... ولكن مثل هذه الأعمال الجليلة لا تسلم أبداً من الاحتجاج عليها ، وإذا كنا قد اختلفنا حول فكرة جليلة كهذه ، فكيف نريد ألا يختلف المسلمون يوم أن كانت دولتهم تحكم معظم أجزاء العالم في مسائل إسلامية أساسية وفرعية .

الشيخ كامل الخضري : لا جدال في أن الخلاف لا يستفيد منه دائماً سوى المستعمر ، وإذن فلماذا تفرص الطوائف الإسلامية على خلافاتها العقائدية ، وعبر مئات السنين لم يمحدها هذا الخلاف نفعا ؟ .

الشيخ الباقوري : اسمع الزد عن سؤالك - عند ما حج المنصور قال لمالك ابن أنس : قد عزمت أن أمر بكتبك هذه التي صنفها فتنسخ ، ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وأمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، فهذا الإمام مالك يرفض أن يفرض مذهبه على الناس بالقوة ، لأنه أدرك أن كتابه الذي جمعه ليس هو كل شيء في الشريعة ، فلفظه نظرة كنظرته ، وبحث كبجته ، وجمع كجمعه ، وقد يكون عند غيره من العلم ما لم يضع يده عليه .

الشيخ يوسف : إذن فكيف السبيل إلى التقارب ، وهذه الخلافات موجودة وبقائه لا سبيل إلى نكرانها ؟ .

الشيخ الباقوري : في رأي أن التقارب الواجب هو أن يفهم كل فريق مذهب الآخر ، وهذا ما حدث من الرسول لأصحابه عند ما قال لهم : « من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة ، فانطلقوا ، فلما أدركهم العصر في الطريق صلى بعضهم ، وأصر البعض الآخر على ألا يصلوا إلا في بني قريظة ،



واختلفوا ، فلما عادوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واحتكموا إليه قال لكل فريق منهما أصبت !! هذا هو التقريب الذي نرجوه .

وقد ذكرت المجلة بعد ذلك أنه جاءها تعليق من كل من أصحاب الفضيلة :  
الشيخ محمد محمد المدني ، والشيخ أحمد الشرباصي ، والشيخ عبد العال عطوه .  
ووعدت بمواصلة البحث في عددها القادم .

\* \* \*

٤ - وفي العدد (٢١٠٢) من المصور نشر تحقيق آخر تحت عنوان « الخلاف الفقهي مفخرة للفكر الإسلامي ... ولكن السياسة استغلت هذا الخلاف وجعلته خلافاً طائفياً » وقد جاء في هذا التحقيق ما يأتي :

شيخ واحد قال لا ... وقد بنى معارضته للتقريب على أسس أوردها في حديثه ،  
وتحمس كل الذين تفضلوا بالإجابة للتقريب ، والشيخ هو أستاذ الشريعة بجامعة  
الاسكندرية ، بينما أجاب أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة بأن التقريب بين المذاهب  
يمكن ، بل هو قائم فعلاً ، فقد أخذنا ونحن أهل السنة بمبدأ هام من مبادئ الشيعة  
في قانون الأحوال الشخصية الجديد !!

الأسئلة التي أثارها « المصور » عن مدى إمكانيات التقريب أو التوحيد بين  
المذاهب الإسلامية ، ما زال صداها يتجاوب في الدوائر الثقافية والدينية .

#### المعقول والمنقول :

وقد تفضل بالإجابة الشيخ محمد محمد المدني الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الأزهر  
والسكرتير المساعد لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في رسالة طويلة شرح  
فيها تاريخ قيام الجماعة التي مارست مهمة التقريب منذ خمسة عشر عاماً جاء فيها :

والذين أشرفوا على هذه الجماعة كانوا يمثلون مذاهب مختلفة من المسلمين كالشيخ  
محمد الحسين آل كاشف الغطاء الشيعي العراقي ، والشيخ عبد المحسن شرف الدين  
الموسوي الشيعي اللبناني ، والشيخ محمد حسين بروجردي زعيم الشيعة الإمامية بإيران ،  
والشيخ محمد تقي القمي الذي كان أول من نادى بإنشاء الجماعة ، وهو من علماء الشيعة

بإيران ، وكان من جهود الجماعة التي عمل معها أكثر من شيخ من شيوخ الأزهر أن قرر الأزهر دراسة المذهب الشيعي الإمامي ، والزيدى في كلية الشريعة ، وبالتالي استجابت جامعة إيران فقررت دراسة فقه السنة في كلية المعقول والمنقول ، وهي تقابل كلية الشريعة عندنا .

### العلاج في يقظة وحذر :

والواقع أن هذه الجماعة قد استطاعت أن تجرى عدة اتصالات سريعة بين أئمة المذاهب المختلفة الذين تفرقوا في أكثر من مكان ، وقد أثمرت هذه الجهود في نواحي التأليف والنشر ، وإخراج مجلة الجماعة التي تحمل رسالتها .

والشيخ المدني يرى أن التقريب ليس معناه المساس بالفقه الإسلامى ، كما أنه لا يرى إدماج مذاهب الإسلام بعضها في بعض ، لأنه يرى في الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين ، ودينهم الذى يقف إلى جانب الاجتهاد والاستنباط دون أن يحجر على حرية التفكير التي هي أسس ما منح الله للإنسان ، ويقول عن التقريب الذى تشده الجماعة :

أن مركزها في القاهرة يجب أن يكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تركز فيه جهود جميع المقتنعين بها ، وأن تلتقى أبحاثهم الفقهية وآراؤهم في رفق وفي جو من البحث العلمى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحينئذ تتجلى للمسلمين الأسباب التي دعت إلى الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية ، فيعالجونها في يقظة وحذر ، ويصلون إلى رأى الصحيح الذى يهدى إليه المنطق والدليل .

### حدود الخلاف والاختلاف :

وكان جواب الشيخ أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر : أنه لا خلاف بين جميع المسلمين فيما يتعلق بأصول الدين وقواعده الأساسية ، والفروض المنصوص عليها في كتاب الله تعالى ، والصحيح المتواتر ، عن سنة رسول الله عليه السلام .

ولكن الخلاف في تعدد الآراء ، وفي درجات الفهم والنظر في بعض الجزئيات

والفروع ووسائل التطبيق ، وقد نشأ هذا الخلاف لاختلاف الأنهام والقدرة على الاستنباط ، ولا شك أن حدة الخلاف قد زادت بمضى المدة وتوالى العصور ، وأوقدت لديها عوامل سياسية ، وتعصبية ، وشخصية ، ولا جدال في أن التقريب بين المذاهب المختلفة في هذه المجالات أمنية يتطلع إليها كل غيور على وحدة الأمة ، واجتماع الكلمة ، وإن كان التقريب لن يقضى على الخلافات الموجودة نهائيا ، فهناك لون من الانفعال الفكري سيزل موجودا ، في هذا الجانب من الفروع والجزئيات مادام هناك تقارب في الإدراك والاستنباط ، ولكن الذي نطمح فيه هو أن يكون الاختلاف مقصوراً على هذه الدائرة الفكرية ، لا أن يتعداها إلى سوء الاستغلال في المجالات السياسية ، والطائفية ، والتعصب .

أما بالنسبة لخطوات التقريب (الرسمية) التي يجب أن تبدأ فإن بعض هذه الخطوات قد بدأ فعلا ، فقد نص قانون تطوير الأزهر الذي أصدره الرئيس جمال عبد الناصر على إنشاء مجمع للبحوث الإسلامية تنطوي هذه المهمة تحت مهامه الكبيرة ، لا سيما ولأنه هذا المجمع تحتم أن يكون بين أعضائه الحسنيين عشرون على الأقل من خارج الجمهورية العربية المتحدة ، وأن يمثلوا إلى حد كبير شق المذاهب الإسلامية ، وقد عقد المجمع مؤتمراً في العام الماضي حضره مائة عالم من علماء المسلمين ، يمثلون ٤٣ دولة من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية ، غير أني أخشى أن تغلب النزعة الأكاديمية على سير المجمع في معالجة هذا الأمر الخطير ، لذلك أعتقد أنه لا بد من أن ينعقد مؤتمر إسلامي لا يتعدى فكرة التقريب ، وتكون أول مهمة للمؤتمر هي رسم خطة لتحقيق التقارب بما يعود على المسلمين بالخير دون أقل مساس بأصول الإسلام ومبادئه .

ويقول الشيخ محمد زكريا البرديسي أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة :

إن التقريب أمر ممكن ، بل تحتمه علينا مقتضيات الأحوال ، فكل هذه المذاهب ترجع إلى الكتاب وإلى السنة ، واختلاف الناس في بعض المسائل الفقهية يرجع إلى الاختلاف في الفهم .

والواقع أن الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية قد بدأ خطوة عظيمة بتقسيم

المباحث الفقهية إلى عدة أقسام ، ورأس كل قسم فقيه من الفقهاء الذين يشار إليهم بالبنان ، وقد اختار كل فقيه من يعاونه في كتابة البحث الذى وكل إليه ، وعلى ما سمعت أنهم قسموا الأبحاث إلى أروقة ، فثلا رواق ، السير ، ورواق ، العبادات ، ورواق ، المعاملات ، وهكذا ...

فلو تحقق هذا لأسدوا إلى الفقه الإسلامى خدمات جليلة ، وجعلوه سهلا يأخذ الناس منه كل ما يريدون دون عناء ، خصوصا وأنهم كما علمت سيتم عرضون للمسائل الجديدة التى يمكن أن تسير عصرنا الحاضر .

وأنا من الذين ينادون بهذا التقريب ، لا سيما وقد أخذنا فى القوانين الجديدة للأحوال الشخصية فى جواز الوصية لوارث بمذهب الشيعة ، وتركنا المذاهب الأربعة التى لا تجيز الوصية لوارث ، وذلك مسaire لمصالح الناس ، والعمل على كل ما فيه مصلحة المسلمين ، مادمننا لا نخرج عما رسمه الكتاب ، وما رسمته السنة النبوية .

• • •

• - وفى العدد نفسه من « المنصور » نشر اقتراح للسيدة « نائلة علوبة » تحت عنوان

[ نموذج على من نماذج التقريب بين المذاهب الإسلامية ]

[ لماذا لا ترث البنات كل تركة الأب ... أسوة بالأولاد ؟ ]

وقد جاء فيه ما يأتى :

قدمت السيدة نائلة علوبة نموذجا عمليا من النماذج التى يفيد فيها التقريب بين المذاهب الإسلامية .

فقد أثار فى لجنة مؤتمر الأسرة موضوع الأب الذى يموت عن بنات فقط ، وطالبت بأن يعدل قانون الميراث بحيث ترث البنات كل تركة ، أسوة بجمالة وجود أبناء ذكور ، خصوصا وأن البنت تكون أكثر حاجة إلى ميراث الأب من الابن ، بدلا من توزيع التركة بين أقارب آخرين .

وهو حكم معمول به فى المذهب الشيعى ، لا السنى ...

ثم قدمت السيدة نائلة علوبة إلى لجنة قوانين الأحوال الشخصية مذكرة حول هذا الموضوع هذا نصها :

يتميز القرآن بأنه وهو كتاب مقدس ، فقد تعرض للعبادات والمعاملات في أصولها وترك التفاصيل في جميع مواد الاجتهاد الذي زخرت به الفتاوى والمؤلفات والدراسات الفقهية طوال أربعة قرون إلى أن قفل باب الاجتهاد .

كما أن تماليم القرآن وأوامره ونواهيه جاءت في جميع أجزائه متوازنة متكافئة لا رجحان لأحدها على الأخرى ، سواء من ناحية العناية أو التفاصيل .

ولذلك جاءت أحكام المواريث كغيرها من الأحكام ، وترك باب الاجتهاد فيها مفتوحا على مصراعيه لمزيد من الشرح والقياس ، في غير ما مساس بالأصل أو نسخ له ، وقد اجتهد الشراح ، وما زالوا يجتهدون ، في تفسير أحكام المواريث ، واقتباس بعض الأحكام التي تتلاءم وصالح المجتمع ، كأحكام الدين الواجبة ، والإذن للورث بالتصرف في ثلث ماله بعد وفاته دون تعليق على إجازة الورثة ، وآية ما نقوله أن مذهباً من المذاهب الإسلامية ، وهو المذهب الشيعي ، وصل في فقهه إلى القول بأن البنات إذا انفردت أو انفردت البنات استأثرن بكامل تركه المتوفى دون أقاربه ، ولا يعني ذلك بدهاء مساواة البنات بالذكر إذا اجتمعا ، ولكن للذكر مثل حظ الأنثيين كصريح نص القرآن إذا اجتمعا من نفس الطبقة .

ورب معترض بأن المذهب الشيعي غير معمول به في بلادنا ، ولكنه مذهب إسلامي أقرته وزارة الأوقاف ، وأشرفت على تقديم بعض المؤلفات التي تكشف عن حقيقة هذا المذهب العريق ، وتزيل ما علق بأذهان الكثيرين خطأ حول مذهب الشيعة وعقيدتهم ، وهو مذهب يعتنقه نفر كبير من رعايا الوطن العربي ، وفي العناية بفهمه وتأصيله دعم للحركة العربية الواحدة ، وتأكيد للوحدة العربية الشاملة .

وجدير بالذكر أن المذهب الشيعي يتميز في فقهه بالتشدد والتسك بأصل التشريع كما ورد في القرآن وعدم التوسع في الحديث ، ومع ذلك فقد أقر المذهب الشيعي للبنات بحقوقها في الميراث كاملاً إذا انفردت .

ولقد اتفق المذهب الشيعي في كثير من أحكامه مع باقي المذاهب الإسلامية الأربعة المعروفة ، ولا يضيرنا أن نأخذ بالأصلح من هذا المذهب الإسلامي في شأن ميراث البنات ، وقد أوصت بذلك لجنة مركز المرأة في المؤتمر الأخير للأسرة الذي عقدته وزارة الشؤون الاجتماعية على نحو ما هو ثابت في محاضرها ؟

## رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدنى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، ولا يعتمد لإعلى المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للبودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخرّوا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها فعلياً أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطه .

\*\*\*

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

## من القانون الأساسى لجماعة التقريب

### المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : -

أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللبقات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

## فهرس

كلمة التحرير . . . . .	١١٥
تفسير القرآن الكريم . . . . .	١١٧
مما لم التقريب . . . . .	١٣١
من ثمرات العقول والمنقول . . . . .	١٤١
مسئولية الفرد عن عمل غير مقصود [ بين الفريضة الإسلامية والفرائع الأخرى ]	١٥٨
تعريف بالقرآن . . . . .	١٦٣
في القصص القرآني . . . . .	١٧٥
قال شيخنا . . . . .	١٨٢
منهج الإسلام في إصلاح [ عقائد الألوهية والربوبية ]	١٩٢
ندوة في الأزهر عن التقريب [ بين المذاهب الإسلامية ]	٢٠٣

## مَسْأَلَةُ الْإِسْلَامِ

مَجْلَدٌ إِسْلَامِيٌّ عَالِيٌّ  
تَصَدَّرَ عَنْ دَارِ الْقُرْبَانِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهَةِ

المحرم سنة ١٣٨٤ هـ

رئيس التحرير : محمد محمد الدفت مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩  
قيمة الاشتراك في السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمناً أو ما يكاد لها